

نموذج رقم (1)

إقرار

أنا الموقع أدناه مقدم الرسالة التي تحمل العنوان:

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وإن هذه الرسالة ككل أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل درجة أو لقب علمي أو بحثي لدى أي مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

DECLARATION

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted elsewhere for any other degree or qualification

Student's name:

اسم الطالب: محمد حبيبي علي حصار

Signature:

التوقيع: 

Date:

التاريخ: ٢٠١٥/٥/٢



الجامعة الإسلامية - غزة

عمادة الدراسات العليا

كلية الآداب

قسم اللغة العربية

شاعرية ابن حجر العسقلاني

دراسة تحليلية

إعداد الطالب

محمد صبحي علي مقداد

إشراف

أ.د. نبيل خالد أبو علي

قدم هذا البحث استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في الأدب والنقد من كلية

الآداب من الجامعة الإسلامية - غزة

(١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م)



نتيجة الحكم على أطروحة ماجستير

بناءً على موافقة شئون البحث العلمي والدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بغزة على تشكيل لجنة الحكم على أطروحة الباحث/ محمد صبحي علي مقدار لنيل درجة الماجستير في كلية الآداب/ قسم اللغة العربية، وموضوعها:

شاعرية ابن حجر العسقلاني - دراسة تحليلية

وبعد المناقشة العلنية التي تمت اليوم الاثنين 08 رجب 1436هـ، الموافق 2015/04/27م الساعة الحادية عشرة والنصف صباحاً بمبنى القدس، اجتمعت لجنة الحكم على الأطروحة والمكونة من:

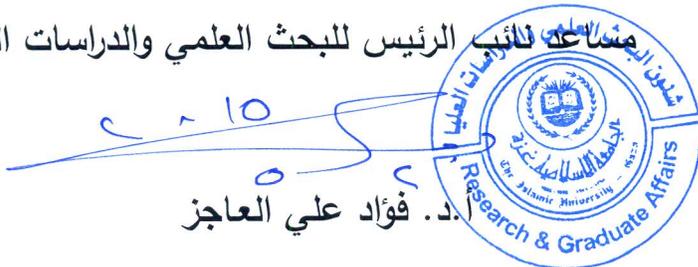
.....	مشرفاً و رئيساً	أ.د. نبيل خالد أبو علي
.....	مناقشاً داخلياً	أ.د. كمال أحمد غنيم
.....	مناقشاً خارجياً	د. محمد إسماعيل حسونة

وبعد المداولة أوصت اللجنة بمنح الباحث درجة الماجستير في كلية الآداب/قسم اللغة العربية.

واللجنة إذ تمنحه هذه الدرجة فإنها توصيه بتقوى الله ولزوم طاعته وأن يسخر علمه في خدمة دينه ووطنه.

والله ولي التوفيق ،،،

مشارع نائب الرئيس للبحث العلمي والدراسات العليا



د. فؤاد علي العاجز



الإهداء

إلى من كان لي نبزاساً يهنيء فكري بالنصح
والتوجيه في حياتي،

إلى أبي العزيز.

إلى من أرضعتني العنان الصاوق، ومن تعت قدميها
تكمن الجنة،

إلى أمي العنون.

إلى من ساندتني وأزرتني في صربي،

إلى زوجتي الغالية.

إلى من أنارت لي الدنيا بقدمها،

إلى ابنتي ليان .

إلى من شملوني بالعطف وأمدوني بالعون ،

إلى أخي وأختي

إلهم جمعاً أهيب جمعاً أمنواضع هبنا راجباً الله

الإطالة في أعمارهم لبروا ثمرة جمعهم.

الشكر والعرفان

قال صلى الله عليه وسلم: "من لا يشكر الناس لا يشكر الله".

انطلاقاً من العرفان بالجميل، فإنه ليسرني وليشج صدري أن أتقدم بالشكر والامتنان إلى أستاذي، ومشر في الأستاذ الدكتور نبيل خالد أبو علي الذي مدني من منابع علمه بالكثير، والذي ما توانى يوماً عن مد يد المساعدة لي وفي جميع المجالات، وحمداً لله بأن يسره في دربي ويسر به أمري وعسى أن يطيل عمره ليقى نبراساً متلاًئلاً في نور العلم والعلماء.

كما أتقدم بجزيل الشكر إلى أستاذي أعضاء لجنة النقاش الموقرين الأستاذ الدكتور كمال أحمد غنيم، والدكتور محمد إسماعيل حسونة، على ما تكبداه من عناء في قراءة رسالتي المتواضعة وإغنائها بمقترحاتها القيمة.

وكذلك أتقدم بجزيل الشكر إلى الهيئة التدريسية في كلية الآداب قسم اللغة العربية، لكل ما قدموه لي من مساعدة ومساندة مكنتني من المضي بخطى ثابتة في مسيرتي العلمية.

وأقدم كذلك بجزيل الشكر إلى جامعتي الحبيبة الجامعة الإسلامية بغزة، ذلك الصرح الشامخ منهل العلم والعلماء، منبع الأدب والأدباء.

مقدمة البحث:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على من علم الناس الدين القويم، وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فالشعر ديوان العرب، ومنبع مفاخرهم، وخزانة حكمتهم، ومعرض فصاحتهم، ومستودع علومهم، وسجل تأريخهم، ولذلك كان للشاعر مكانة رفيعة في قومه، لكونه أكثرهم علماً بتأريخهم، ومفاخر أنسابهم.

وقد عدَّ الشاعر أحد ثلاثة تفرح بها العرب وتسعد، فكانوا لا يُهنئون بعضهم إلا بسلام يولد، أو شاعر ينبغ، أو فارس تنتج، وكان ذلك بسبب شدة حاجتهم إلى الشاعر الذي يدون مآثرهم، ومفاخرهم، ويقبل من رهبة عدوهم، فالشعر حماية لأعراضهم، وذب عن أحسابهم، وتخليد لمآثرهم.

ولما كان الشعر العربي هو من أجمل وأعظم فنون الأدب العربي، وكانت له الهيمنة الكبرى عند العرب، فلم تختص به فئة دون أخرى، لذا فإن من الروعة والجمال وقمة الشاعرية أن تجد عالماً فقيهاً محدثاً ينتج ديواناً شعرياً راقياً يضاهي في قوته ورونقه أصحاب الحرفة أنفسهم، وكأنه يريد أن يؤكد أن هذه الملكة لا تقتصر على أصحاب الكتابات الشعرية فحسب، وإنما يملكها من لديه تدفق فكري لغوي يصقله من خلال أبيات شعرية فيها من فصاحة اللسان وقوة المعاني والأفكار، لذلك فمن استطاع تقدير جهود هؤلاء العلماء، فقد أقام الميزان العدل ووافاهم حقهم، وأنزلهم مكانتهم ومقامهم المرموق.

وقد تداول الشعراء الشعر عبر العصور المتعاقبة، وكان من أهمها العصر المملوكي الذي تربع في مكانة مرموقة في الأدب العربي، لكثرة علمائه وشعرائه، وبالرغم من ذلك لم ينل نصيبه من الدراسة والبحث والنقسي كباقي العصور، وذلك بسبب النظرة الخاطئة التي رسخت، وهي اتهامه بالانحطاط والتخلف، مما جعل الكثير من الكنوز العلمية والأدبية تبقى مدفونة بحاجة لمن يكتشفها ويبحث فيها، ليرى غزارة الأدب والعلم الذي تحويه، ويبطل الادعاءات حوله.

وقد حاولت أن أساهم في كشف إحدى تلك الكنوز من خلال البحث عن شاعرية ابن حجر العسقلاني في ديوانه، وأحسب أن هذا البحث يمثل فتحاً جديداً في ميدان الأدب في العصر المملوكي، الذي وقع عليه الإجحاف بسبب اتهامه بالقصور في مجالات العلم، وكذلك تكمن هذه الأهمية في رسم ملامح النهج الذي سار عليه الشاعر، بين سنة الأولين القدماء في تناول أغراضهم، وبين ما نهجه من التجديد.

خطة البحث

قسمت بحثي إلى ثلاثة فصول ، ثم خاتمة، ففهرس عام، وقد تحدثت في الفصل الأول عن حياة ابن حجر العسقلاني مولده ونشأته ، وحياته العلمية ورحلاته، وما صنفه من مؤلفات جمة، وما حازه هذا العالم من مكانة علمية مرموقة لما قدمه خدمة للدين والعلم.

وكذلك تحدثت في الفصل الأول عن العصر المملوكي الذي هو عصر الشاعر وما امتاز به في الحياة السياسية، والبيئة الاجتماعية، وما امتاز به هذا العصر في الحركة العلمية التي أنتجت الكثير من العلم والعلماء.

أما الفصل الثاني فكان لدراسة الموضوعات الشعرية التي تعرض إليها الشاعر في ديوانه، فدرست مدحه للنبي -صلى الله عليه وسلم- ، والمديح بشكليه الأميريات والملوكيات، وكذلك الغزل، والأغراض الأخرى من رثاء وزهد، وشكوى ، وألغاز، وغيرها.

أما الفصل الثالث فخصصته للدراسة الفنية، فدرست بناء القصيدة لدى ابن حجر، وأسلوبه الذي اتبعه في قصائده، ولغته الشعرية، والصورة الشعرية، والموسيقى الشعرية بنوعها الداخلية والخارجية.

وأخيراً ختمت البحث بخاتمة عرضت فيها ملخصاً للبحث، وأتبعتها بعرض لأهم النتائج التي توصلت إليها، ثم أتبعته بفهرس يسهل الرجوع إلى الموضوعات الرئيسة.

أما منهج البحث اقتضت الدراسة أن أنهج المنهج التكاملي الذي يتيح للباحث استخدام أكثر من منهج تمكن الباحث من الإحاطة بجميع مكونات النص الأدبي ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر المنهج التاريخي ، والمنهج الإحصائي، والمنهج الوصفي.

فقد حاولت في هذا البحث أن أرد التهم التي دارت حول شعر وشعراء العصر المملوكي وتبيين الظلم الواقع على عصر هذا العالم الذي اتهم بالقصور العلمي والفكري والأدبي على الرغم مما أنتجه لنا الفقهاء والعلماء والأدباء من كنوز ثمينة شغلت مساحات واسعة في المكتبات العربية في جميع المجالات العلمية والأدبية.

وهذا مبلغ علمي وجهدي، فإن وفقني فيه فذلك بفضل الله تعالى، ثم بتوجيه مشرفي الأستاذ
الدكتور نبيل خالد أبو علي، وإن كانت الأخرى فحسبي أني اجتهدت، والله الموفق.

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الفصل الأول

أبن حجر العسقلاني وعصره

جبانة أبين حجر

- مؤلفه ونشأته.
- جبانته العلميه ورعايته.
- مؤلفاته ومكانته العلميه.

اسمه:

هو أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد العسقلاني الأصل، المصري المولد والنشأة ولد في شعبان سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة^(١).

وقد اختلف في جده الرابع من حيث إثباته وحذفه ومن حيث تقديمه وتأخيره ، فقد أثبت السخاوي في نسبة جده الرابع محمود، قبل أحمد^(٢).

وقد ذكر في تصنيفه " تبصير المنتبه بتحرير المشتبه " ترجمة عم والده فخر الدين عثمان بن محمد بتقديم محمود على أحمد فيقول: " وفخر الدين عثمان بن محمد بن علي بن محمود بن أحمد الكناني المصري الشافعي يُعرف بابن البزاز"^(٣).

ولكن صاحب الترجمة خالف ذلك الترتيب في كتابه الدرر الكامنة في ترجمة عم والده بتأخير محمود عن أحمد، فقال: "عثمان بن محمد بن علي بن أحمد بن محمود الكناني العسقلاني"^(٤).

وقد كتب في مقدمة تصنيفه إنباء الغمر " أما بعد فيقول العبد الضعيف أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن محمود بن أحمد بن حجر العسقلاني"^(٥)، فقد أثبت جده الخامس محمود بين أحمدين.

(١) ابن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ): رفع الإصر عن قضاة مصر، تحقيق علي محمد عمر، ط١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٨م، ص ٦٢.

(٢) السخاوي، محمد بن عبد الرحمن (المتوفى ٩٠٢هـ): الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الاسلام ابن حجر، تحقيق ابراهيم باجس عبد المجيد، ط١، دار ابن حزم ، بيروت ، ١٩٩٩م، ص ١٠١.

(٣) ابن حجر العسقلاني: تبصير المنتبه بتحرير المشتبه، تحقيق محمد علي النجار، ط. المكتبة العلمية بيروت، د.ت، ١/٤١٤.

(٤) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق مراقبة: محمد عبد المعيد ضان، ط٢. مجلس دائرة المعارف العثمانية ، صيدر اباد، الهند، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م ، ٣/٢٦٢.

(٥) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأنبياء العمر، تحقيق حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر، القاهرة، ١٩٦٩، ٣/١.

وقد أورد في قصيدة شعرية أثبت فيها أن لقبهم بحجر إنما كان لقب جد أبيه أحمد،
يقول^(١):

من أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي الكناني المحتد
ولجد جد أبيه أحمد لقبوا حجراً ، وقيل بل اسم والد أحمد

وما اعتمده من نسبه هو أنه أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن محمود بن
أحمد العسقلاني ، كما اعتمده صاحب الجواهر والدرر مبرراً ذلك بكثرة وجوده^(٢)، وإن كان
كثير منه ورد بخطه مختصراً أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد العسقلاني.

كنيته ولقبه

لقب بشهاب الدين وشيخ الاسلام^(٣) ، علم الأعلام ، أمير المؤمنين في الحديث ، حافظ
العصر^(٤) ، الشهير بابن حجر وهو لقب لبعض آبائه^(٥) ، ويقال نسبة إلى آل حجر وهم قوم
يسكنون الجنوب الآخر على بلاد الجريد وأرضهم قابس^(٦).

ويكنى بأبي الفضل، وكني بذلك تشبيهاً بقاضي مكة أبي الفضل محمد بن أحمد بن
عزيز العقيلي النويري، وكذا كناه شيخه العراقي أيضاً على الجادة أبا العباس، وكذا كناه بها
العلاء بن المغلي وغيرهما، وكناه آخر أبا جعفر، وهو شذوذ^(٧).

(١) عنوان الزمان: ١١٥، ١١٦/١.

(٢) انظر: الجواهر والدرر: ص ١٠٢.

(٣) لقب شيخ الاسلام يطلق على المتبع لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، مع المعرفة بقواعد العلم
والتبحر في الاطلاع على أقوال العلماء ، انظر الجواهر والدرر: ص ٦٥.

(٤) يطلق هذا اللقب على من يكون عارفاً بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بصيراً بطرقها ، مميّزاً
لأسانيدها ، انظر الجواهر والدرر: ص ٧٩.

(٥) انظر: السخاوي، محمد بن عبد الرحمن (المتوفي ٩٠٢هـ): الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، طبعة دار
مكتبة الحياة ، بيروت، د.ت، ٣٦/٢.

(٦) انظر: ابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، طبعة دار ابن كثير ، بيروت ، ١٩٩٣م ،
٣٩٥/٩.

(٧) انظر: الجواهر والدرر: ص ١٠٢.

مولده ونشأته :

وهو يترجم لنفسه في مصنفه (رفع الإصر) قال: أن مولده ونشأته في مصر، وولد في الثاني والعشرين^(١) من شعبان سنة ثلاث وسبعين وسبعمئة ، ومات أبوه في رجب سنة سبع وسبعين وسبعمئة، وماتت أمه قبل ذلك وهو طفل، فنشأ يتيماً^(٢).

وقد عاش شيخنا في كنف ورعاية وصيه الرئيس الشهير زكي الدين أبو بكر ابن نور الدين علي الخروبي ، حيث استصحبه معه ، إذ لم يكن له من يكفله^(٣).

أما نسبه ، فأصله من عسقلان بفلسطين، وقد قال عن والده : "والدي كناني الأصل، يعني بكسر الكاف ، وفتح النون ، وبعد الألف نون ثانية ، وكتب شيخنا مرة ، الكناني القبيلة، قال : وكان أصلهم من عسقلان وهي مدينة بساحل الشام من فلسطين"^(٤).

وقد نظم نسبه ومولده وغير ذلك في قصيدة كتبها^(٥) :

ذي الفضل من بهاده يهتدي	الحَمْدُ لِلَّهِ الكَرِيمِ السَّيِّدِ
ن الأزكيان على النبي محمد	ثم الصلاة مع السلام الأكملا
الغر الكرام نجوم كل مقلد	وعلى الصحابة الطيبين وله
منحوا الإجازة عند حسن القصد	والتابعين وبعد فالعلماء قد
عسرت عليه رحلة للمورد	لا سيما لمحدث متبحر
مرفوع والموقوف ضمن المسند	واحتاج لاستيعاب ما يروي من الـ
ئله بغير توقف وتردد	والمستحب إجابة المسئول سا
نكر الإجازة ، لا بقيد مقيد	فلذلك صحت مطلقا لجميع من

(١) وفي عنوان الزمان " ثاني عشر " .

انظر: ابراهيم بن حسن البقاعي ، عنوان الزمان بترجم الشيخ والأقران ، تحقيق حسن حبشي ، ط١، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، ٢٠٠١م ، ١/١١٥ .

(٢) انظر: رفع الإصر: ص ٦٢ .

(٣) السابق: ص ٦٢ .

(٤) الجواهر والدرر: ١٠٣ .

(٥) عنوان الزمان ١/١١٦، ١١٥ .

من أحمد بن علي بن محمد بن
ولجد جد أبيه أحمد لقبوا
وبمصر مولده وأصله جدوده
فأجاب ما سألوا لهم وأجازهم
ومجازه منهم ومسـموعاتـه
وكذلك الإنشاء من خطب ومن
فأجازهم بجميع ذلك شاملاً
شعبان عام ثلاث من بعد سبع
وكتبت ذا في الثاني من صفر لعـ
ما غنت الورقاء في فنن وما

محمد بن علي الكناني المحتد
حجراً ، وقيل بل اسم والد أحمد
من عسقلان المقدسية قد بدي
مسموعه عن كل خبر مسند
في كل فن منته أو مبتدي
نثر ونظم موجز ومقصد
لجميعهم باللفظ مع خط اليد
وسبعين : اتفاق مولدي
ام الضاد مع بسط لهجرة أحمد
وما ناح المطوق شيقاً لمغرد

حياته العلمية ورحلاته :

بدأت علامات النبوغ تظهر عليه منذ صغره مع أنه لم يدخل الكتّاب حتى أكمل خمس سنين، حيث حفظ القرآن الكريم وله تسع سنين، وصلى بالناس التراويح وقد أكمل اثنتي عشرة سنة^(١).

وكانت أولى حياته العلمية في مكة، حين استصحبه وصيه زكي الدين الخروبي في حجه سنة خمس وثمانين وسبعمائة ، فقد سمع صحيح البخاري على مسند الحجاز عفيف الدين عبد الله النشاوري ، آخر أصحاب إمام المقام رضي الدين الطبري ، وكان سماعه بقراءة الشيخ شمس الدين محمد بن عمر السّلاوي الدمشقي^(٢).

فكانت تلك فاتحة شغفه في طلب الحديث النبوي الشريف، فطلبه بنفسه في سنة ثلاث وتسعين لكنه لم يلزم الطلب إلا من ست وتسعين^(٣)، فملاً الأرض سماعاً ، ورحل فيه حتى طاف البلاد، فسمع بالقاهرة من شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني ، والحافظين ابن الملقن والعراقي ، وأخذ عنهم الفقه ، ومن الشيخ برهان الدين إبراهيم الإبناسي ، ونور الدين الهيثمي، والشيخ تقي الدين محمد بن محمد الدجوي ، والقاضي صدر الدين محمد بن إبراهيم السلمي، وآخرين.

ويسرياقوس من المفتي صدر الدين سليمان بن عبد الناصر الأبيشيبي.

وبغزة من أحمد بن محمد بن عثمان الخليبي ، وبالرملة من أحمد بن محمد الأيكي، وبالخليل من صالح بن خليل بن سالم ، وببيت المقدس شمس الدين محمد بن إسماعيل القلقشندي ، وبدر الدين حسن بن موسى بن مكي ، ومحمد بن محمد علي المنبجي ، ومحمد بن عمر بن موسى.

(١) انظر: الضوء اللامع ١/٣٦.

(٢) انظر: الجواهر والدرر ١٢٣ ، ورفع الإصر ٦٣.

(٣) انظر: الضوء اللامع ١/٣٧.

وبدمشق من بدر الدين محمد بن محمد بن قوام البالسي ، وفاطمة بنت محمد بن أحمد بن المنجا التنوخي ، وفاطمة بنت محمد بن عبد الهادي ، وغيرهم .

وبمنى من زين الدين أبي بكر بن الحسين^(١).

وقد رزقه الله ملكة سرعة الحفظ في صغر سنه ، بحيث كان كل يوم يحفظ نصف حزب، وبلغ من أمره في ذلك أنه حفظ سورة مريم في يوم واحد ، وأنه كان في أكثر الأيام يصحح الصفحة من " الحاوي الصغير " ثم يقرأها تأملاً مرة أخرى ، ثم يعرضها في الثالثة حفظاً^(٢).

وقد حفظ القرآن وهو ابن تسع والعمدة وألفية ابن العراقي والحاوي الصغير ومختصر ابن الحاجب الأصلي والملحة وغيرها ، وبحث في صغره وهو بمكة "العمدة" على الجمال بن ظهيرة وبعد بلوغه لازم أحد أوصيائه الشمس بن القطان في الفقه والعربية والحساب وغيرها^(٣) .

واشتغل بطلب العلوم الأخرى ، فأطلق العنان لنفسه وعزمه في طلب الفقه ، والنحو وعلوم الأدب ، والمعاني والبيان وغيرها.

أما طلبه للفقه ، فقد تفقه على يدي ابن القطان ، والإمام الزاهد الفقيه برهان الدين إبراهيم بن موسى الأبناسي ، ولازمهما كثيراً ، وتفقه أيضاً على يدي شيخ الإسلام العلامة سراج الدين أبي حفص عمر بن رسلان البلقيني ، لازمه مدة وحضر دروسه الفقهية ، وقرأ عليه الكثير من " الروضة" ، وتفقه على يدي العلامة سراج الدين أبي حفص عمر بن علي بن الملقن، وقرأ في الفقه والعربية أيضاً على الشيخ الإمام نور الدين علي بن أحمد الأدمي^(٤).

(١) ابن تغري بردي ، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، تحقيق محمد أمين ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤ ، ١٨، ١٩/٢ .

(٢) انظر: الجواهر والدرر ١/١٢٣ .

(٣) انظر: الضوء اللامع ١/٣٦، ٣٧ .

(٤) انظر: الجواهر والدرر ١/١٢٨، ١٢٩ .

أما طلبه للأدب والنحو وعلوم اللغة ، فقد نظر في فنون الأدب في سنة اثنتين وتسعين^(١)، حتى فاق فيها، فكان لا يسمع شعراً إلا ويستحضر من أين أخذه الناظم ، وتولع بذلك فطرح الشعراء وقال الشعر الرائق والنثر الفائق ، ونظم المدائح النبوية، وقطع شعرية^(٢)، "ولبلغ نظمه ونثره، فقد كان ينشد منه في المحافل ويخطب من ديوانه على المنابر"^(٣).

مصنفات ابن حجر العسقلاني:

إن أول تصانيفه تغليق التعليق وصل فيه تعليقات البخاري، وهو كتاب نفيس، قرص عليه شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني وغيره، وهو من تصانيفه الجليلة القديمة، وشرح البخاري في نيف وعشرين مجلداً، وهو فتح الباري، وصنف له - أي لكتاب فتح الباري - مقدمة في مجلد، وكتاب فوائد الاحتفال في بيان أحوال الرجال المذكورين في البخاري زيادة على تهذيب الكمال في مجلد ضخمة، وكتاب تجريد التفسير من صحيح البخاري على ترتيب السور، وكتاب تقريب الغريب، وكتاب إتحاف المهرة بأطراف العشرة في ثمان مجلدات، ثم أفرد منه أطراف مسند الإمام أحمد وسماه أطراف المسند المعتلي بأطراف المسند الحنبلي في مجلدين، وكتاب أطراف الصحيحين، وكتاب أطراف المختارة للضياء مجلد ضخمة، وكتاب تهذيب الكمال للحافظ المزني في ست مجلدات، ومختصره تقريب التهذيب مجلد ضخمة، وكتاب تعجيل المنفعة برواية رجال الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب، وكتاب الإصابة في تمييز الصحابة خمس مجلدات، وكتاب لسان الميزان وتحريير الميزان، وكتاب تبصير المنتبه بتحريير المشتبه مجلد ضخمة، وكتاب طبقات الحفاظ في مجلدين، والدرر الكامنة في المائة الثامنة، وإنباء الغمر بأبناء العمر، وكتاب قضاة مصر مجلد ضخمة، وكتاب الكاف الشاف في تحريير أحاديث الكشاف مجلد، وكتاب الاستدراك عليه في مجلد آخر، وكتاب التمييز في تخريج أحاديث الوجيز مجلدين، وكتاب الدراية في منتخب تخريج الهداية، وكتاب الإعجاب ببيان الأسباب مجلد ضخمة، وكتاب الأحكام لبيان ما في القرآن من الإبهام، وكتاب الزهر المطول في بيان الحديث المعدل مجلد، وشفاء الغلل في بيان العلل، وتقريب النهج بترتيب الدرر، والإفتان في رواية القرآن، والمقتررب في بيان

(١) وفي عنوان الزمان: "بدأ اشتغاله بالأدب في سنة سبع وثمانين" ١١٧/١.

(٢) انظر: الجواهر والدرر ١٢٦/١.

(٣) الضوء اللامع ٣٨/١.

المضطرب، والتعريج على التدريج، ونزهة القلوب في معرفة المبدل من المقلوب، ومزيد النفع بما رجح فيه الوقف على الرفع، وبيان الفصل بما رجح فيه الإرسال على الوصل، و تقويم السناد بمدرج الأسناد، والإيناس بمناقب العباس، وتوالي التأنيس بمعاني ابن ادريس، والمرجة الغيثة عن الترجمة الليثية، والاستدراك على الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء مجلد، وتخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب الأصلي وقع في الإملاء مجلدين، وتحفة الظراف بأوهام الأطراف مجلد، والمطالب العالية من رواية المسانيد الثمانية، والتعريف الأوحى بأوهام من جمع رجال المسند، وتعريف أولى التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس، وكتاب الأعلام بمن ولي مصر في الإسلام، وتعريف الفئة بمن عاش مائة من هذه الأمة، والقصد الأحمد في من كنيته أبو الفضل واسمه أحمد، وكتاب إقامة الدلائل على معرفة الأوائل، والخصال المكفرة للذنوب المقدمة والمؤخرة، والشمس المنيرة في تعريف الكبيرة، والإتقان في فضائل القرآن مجلد، وكتاب الأنوار بخصائص المختار، والآيات النيرات للخوارق المعجزات، والنبأ الأنبه في بناء الكعبة، والقول المسدد في الذب عن المسند، وبلوغ المرام بأدلة الأحكام ، وبذل الماعون بفضل الطاعون، والمنحة فيما علق الشافعي به القول على الصحة، والأجوبة المشرقة عن الأسئلة المفارقة، ومنسك الحج، وشرح مناسك المنهاج كذلك، وتصحيح الروضة كتب منه ثلاث مجلدات، ونخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر كراسة، وشرحها نزهة النظر بتوضيح الفكر، والانتفاع بترتيب الدارقطني على الأنواع، ومختصر البداية والنهاية لابن كثير، وتخريج الأربعين النووية بالأسانيد العلية، والأربعين المتباينة، وغير ذلك عدة تصانيف أخر، وله ديوان شعر كبير وآخر صغير^(١).

(١) انظر: الأعلام ١/ ١٧٨ - ١٧٩.

عسر أبن حجر

- البيئة السبابة.
- البيئة الـ جنماعة.
- البيئة النفاوية.

البيئة السياسية:

يعد العصر المملوكي من أهم العصور في التاريخ الإسلامي؛ لما له من دور كبير وواضح في التطور الحضاري الذي انعكس على شتى العلوم ، فقد أصبح هذا العصر يتسم بعصر الموسوعات العلمية ، فقد أنتج لنا علماء هذا العصر الكثير من الفنون والعلوم في مجلدات ضخمة كالفقه ، والادب والطب والتاريخ وغيرها .

ولعناية المماليك بالحركة العلمية ، نشأ جيل من المتعلمين ، وظهر لفيف من العلماء الأجلاء ، منهم شهاب الدين النويري ، وابن حجر العسقلاني ، وابن فضل الله العمري ، والقلقشندي، وتقي الدين المقريزي ، وابن تغري بردي ، وشمس الدين الخاوي ، وجلال الدين السيوطي .

أصل المماليك:

يعرف المملوك لغة بأنه " العبد " ^(١) ، أما في تاريخ العالم الإسلامي فالمماليك هم الرقيق الأبيض الذين اعتمد عليهم حكام الشرق الأدنى الإسلامي ، ولا سيما في مصر والشام في صراعهم ضد بعضهم البعض في خضم الفوضى السياسية التي نشبت عقب وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وكان أولئك الحكام المتنازعون يشترون المماليك صغاراً في سن الطفولة ينشئونهم تنشئة عسكرية وسياسية وخاصة ليكونوا عدتهم في الصراع المرتقب ^(٢).

ويذكر المؤرخون أن أول من استخدم المماليك وجلبهم إلى مصر، وجعلهم عمدة لجيشه هو أحمد بن طولون ^(٣)، وهو أول الولاة الذين استقلوا بمصر بعد الفتح العربي ، بعدها اتبع هذه السنة ملوك الفاطميين وخطوا في جندهم بين أجناس مختلفة ، ولم وصل الملك إلى صلاح الدين الأيوبي اتخذ جنوده من الأكراد ومجلوبي المرتزقة وحذا خلفاؤه حذوه ، ثم جاء الملك الصالح نجم الدين بن أيوب في سنة ٦٣٦هـ ، استكثر من المماليك الأتراك ، ونشأهم نشأة

(١) ابن منظور : لسان العرب، طبعة دار الحديث ، القاهرة ، ٢٠٠٣م ، مادة ملك ، ٣٦٣/٨ .

(٢) انظر: قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ط١، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٩٤م، ص ٧ ، ٨ .

(٣) ابن طولون (٢٢٠ - ٢٧٠ هـ = ٨٣٥ - ٨٨٤ م) : أحمد بن طولون، أبو العباس: الأمير صاحب الديار المصرية والشامية والثغور، تركي مستعرب.(الأعلام : ١/٤٠١).

عسكرية ، وبنى لهم قلعة خاصة بجزيرة الروضة ليقيموا بها ، وسماهم البحرية واتخذ منهم أمراء دولته وخاصته وبطانته وحراسه^(١).

أما بداية العصر المملوكي فقد رأى العديد من المؤرخين^(٢) بأن أول من تولى أمر دولة المماليك هي شجر الدر زوجة السلطان الأيوبي الملك الصالح نجم الدين أيوب ، حيث تولت السلطة بعد وفاته ، ومن ذلك نورد قول المقرئزي : " إن شجر الدر أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك ، فهي أولى سلاطين المماليك في مصر ، وذلك لأنها كانت جارية تركية الجنس اشتراها الملك الصالح أيوب، وحظيت عنده حتى أعتقها وتزوجها .. "^(٣).

وتحملت شجر الدر الأهوال والمحن مع زوجها الصالح الى أن تسلطن ، فكانت تدبر أمور مصر في حياته وفي مرضه وبعد موته ، يقول ابن تغري بردي: " وإليها غالب تدبير الديار المصرية في حياة سيدها الملك الصالح وفي مرضه وبعد موته "^(٤).

ومن الأعباء التي تحملتها شجر الدر ، تدبر أمور مصر بعد موت زوجها حيث قامت بإخفاء نبأ وفاة زوجها في شعبان سنة سبع وأربعين وستمائة وصارت تعلم بخطها مثل علامة الملك الصالح ؛ لكي لا يتفرق شمل الجند وهو يحاربون الصليبيين في المنصورة ، وأرسلت في طلب ابنه توران شاه _ حاكم حصن كيفا وديار بكر نيابة عن أبيه في الشام _ كي يتسلم مقاليد الحكم ، فلما وصل القاهرة مضت زوجة أبيه إلى القدس، ولكنه أشغل نفسه بتهديدها ، فبعث يطلب الأموال والجواهر منها ، فكانت فيه ، فاتفق الجميع عند ذلك على قتله _ وهم مماليك

(١) انظر: محمود رزق سليم ، موسوعة عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، ط٢، مكتبة الآداب، القاهرة ، ١٣٨١هـ - ١٩٦٢م ، : ١/١٤، ١٣.

(٢) فممن رأوا بأن شجرة الدر أول سلاطين المماليك قاسم عبده قاسم حيث قال : " ثم تولت العرش شجر الدر أول سلاطين المماليك في مصر والشام " . (انظر: عصر سلاطين المماليك ص ٨).

(٣) تقي الدين المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٩ ، ٢٦١/١ .

(٤) يوسف بن تغري بردي (٨٧٤هـ) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، د.ت، ٣٧٣/٦.

أبيه البحرية _ ، وكان قتله يوم الاثنين السابع والعشرين من شهر محرم للعام ثمانية وأربعين وستمئة هجرية^(١).

وبعدها تولت شجر الدر حكم البلاد ثمانين يوماً، ثم تنازلت عن الحكم لزوجها الملك المعز عز الدين أيبك^(٢) الذي تزوج بها في التاسع والعشرين من ربيع الآخر، حيث أصبح أتابك^(٣) العساكر مع شجر الدر، حتى أنكر عليها الخليفة العباسي المستعصم بالله ؛ لأنها امرأة^(٤).

وفي الخامس من جمادى الأولى بعد سلطنته بخمسة أيام ثارت المماليك البحرية الصالحيّة وقالوا: لا بدّ لنا من سلطان يكون من بنى أيوب يجتمع الكلّ على طاعته، وانفقوا على أن يكون الملك المعزّ أيبك هذا أتابكاً عليهم، واختاروا أن يقيموا صبيّاً عليهم من بنى أيوب يكون له اسم السلطنة، وهم يدبرونه كيفما شاءوا ويأكلون الدنيا به ، فوقع الاتفاق على الملك الأشرف مظفر الدين موسى، وكان عمر هذا الصبيّ، عشر سنين^(٥).

بعدها اجتمع الأمراء عند الملك المعز أيبك لقتال صلاح الدين يوسف صاحب الشام وحلب ليسترد ملك ابن عمه الملك المعظم توران شاه، وفي سنة اثنتين وخمسين وستمئة خلع المعز أيبك الملك الأشرف مظفر الدين موسى الأيوبي ، فاستقل بذلك بالحكم إلى أن قتل يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول سنة خمس وخمسين وستمئة^(٦).

(١) انظر: النجوم الزاهرة ٦/٣٧١.

(٢) الملك عز الدين أيبك كان تركي الأصل والجنس فانتقل إلى ملك السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب من بعض أولاد التركماني فعرف بين البحرية بأبيك التركماني وترقي عنده في الخدم حتى صار أحد الأمراء الصالحيّة وعمله جاشنكيراً (متذوق مأكّل ومشرب السلطان أو الأمير للتأكد من خلوه من السم)، إلى أن مات الملك الصالح وقتل بعده ابنه الملك المعظم. السلوك لمعرفة دول الملوك ١/٤٦٣.

(٣) تعني الأب الأمير وهو أمير الجيوش أي القائد العام للجيش. وهو أكبر الأمراء المقدمين بعد نائب السلطنة. ويدعى أيضاً "أتابك العساكر" لم تكن له صلاحيات أمر ونهي.

(٤) حيث كتب لأمرء مصر يعاتبهم ويقول لهم : "إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً" انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك ١/٤٦٤.

(٥) النجوم الزاهرة ٧/٥.

(٦) حيث قتله شجر الدر حين أراد أن يتزوج ببنت الملك الرحيم صاحب الموصل وكانت شجر الدر شديدة الغيرة. انظر: النجوم الزاهرة ٧/١٣، ١٢، ٥.

" فكانت مدة سلطنة الملك المعز سبع سنين تنقص ثلاثة وثلاثين يوماً وعمره نحو ستين سنة"^(١).

وبعدها بعام في سنة ست وخمسين وستمائة، حصل للأمة أمرٌ لم يكن أفضح منه على مرّ التاريخ، وذلك بتدبير من الوزير الرافضي ابن العلقمي الذي كان حريصاً على زوال دولة بني العباس ونقلها إلى العلويين، حيث كان يتواصل سراً بالتتار ويرسل إليهم؛ لينتقم من العباسيين^(٢)، فأشار على الخليفة المستعصم _ وكان ضعيف الرأي والتدبير _ بقطع أرزاق أكثر الجند، وكانت بغيته من وراء هذه المشورة أن تكون سبباً في تفتت الجيش وضعفه وغضبه على الخليفة، وبعدها اجتهد في تسهيل مهمة التتار في احتلال وتخريب العراق، فكاتبهم سراً وأطمعهم في البلاد، وطلب منهم أن يكون نائبيهم بالبلاد فوعده بذلك، فعندما دخل هولاءكو بغداد بجيش جرار يبلغ حوالي مائتي ألف مقاتل، كان أول من استقبلهم الوزير ابن العلقمي حيث أشار على الخليفة أن يخرج إليهم في تقرير الصلح، فاجتمع بهولاءكو، ودبر أمر إهانة الخليفة، فأمعن التتار في إذلاله، ثم قتلوه وبدأ الخراب في العاصمة بغداد حيث استمر القتل والنهب والسبي بضعة وثلاثين يوماً، فلم ينجُ منهم إلا من اختفى^(٣)، فكان عدد القتلى كما قول الذهبي: "أنهم بلغوا ثمانمائة ألف"^(٤).

بعد هذه الحادثة لم يبق من جذوة الإسلام شيءٌ إلا في مصر، ومن تسلطوا عليها، فكانت تلك الحادثة الابتلاء الحقيقي لهم في مواجهة أعداء الإسلام، والدفاع عن بلادهم، واسترداد ما

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك ١/٤٩٤.

(٢) سبب حنق ابن العلقمي على أهل السنة أنه كان يريد الفتنة بين أهل السنة والرافضة، حتى تجالدا بالسيوف، وقتل جماعة من الرافضة، فاشتكى أهل البصرة إلى الأمير مجاهد الدين الدوادار وللأمير أبي بكر ابن الخليفة، فأمر الجند بنهب الكرخ، فهجوا على الرافضة بالكرخ وقتلوا منهم جماعة، فأمرهم ابن العلقمي بالصبر وقال لهم: أنا أكفيكم فيهم. انظر: النجوم الزاهرة ٧/٤٨.

(٣) انظر: النجوم الزاهرة ٧/٤٧-٥٠.

(٤) الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (المتوفى: ٧٤٨هـ): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٣ م، ٣٦/٤٨.

وقع بأيدي التتار من الأراضي الإسلامية، حيث استولى التتار على جميع دول المشرق الإسلامي باستثناء مصر والحجاز واليمن^(١).

فبرز لتلك المهمة الملك المظفر سيف الدين قطز الذي تولى الإمارة بعد أن خلع السلطان الملك المنصور نور الدين علي ، حيث كان صغير السن لا يحسن التدبير، وأمور البلاد تعظم وتدلهم، فطلب الناس خلع المنصور وسلطنة قطز حتى يقوم بهذا الأمر الجلل ، فتم الأمر، وصمم على لقاء التتار^(٢)، وخرج من مصر في الجحافل الشامية والمصرية في يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان، ووقع القتال بين الطائفتين ، فقتل الكثير منهم ، لكن الملك المظفر أبلى بلاء حسناً ، حيث أظهر براعةً ودهاءً في القتال ، حتى تمَّ نصر الله بإعلاء كلمته، وإذلال أعداء الله فانكسر التتار وولوا مدبرين بعد أن قتل معظم أعيانهم وقتل مقدم العساكر التنزية كتبغانوين، وتبع الأمير ركن الدين بيبرس البندقاري ما تبقى من جيشهم المهزوم إلى أطراف البلاد^(٣).

وقد أشاد بهذا الانتصار العظيم العديد من الشعراء، ومن ذلك قول بعض شعراء دمشق^(٤):

هلك الكفر في الشام جميعاً	واستجد الإسلام بعد دُحُوضه
بالمليك المظفر الملك الأز	وع سيف الإسلام عند نهوضه
ملك جاءنا بعزمٍ وحزمٍ	فاعتززنا بسُمره وببيضه
أوجب الله شكر ذاك علينا	دائماً مثل واجبات فروضه

وفي هذا يقول الشيخ شهاب الدين أبو شامة^(٥):

غلب التتار على البلاد فجاءهم	من مصر تركى يجود بنفسه
بالشام أهلكهم ويدد شملهم	ولكل شيء آفة من جنسه

(١) انظر: النجوم الزاهرة ٧/٧٨.

(٢) كانت قلوب المسلمين قد أيست من النصر على التتار لأنهم ما قصدوا إقليمياً إلا فتحوه ، فأجمعوا على حفظ مصر لا غير. النجوم الزاهرة ٧/٧٨.

(٣) النجوم الزاهرة ٧/٧٨-٧٩.

(٤) السابق: ٧/٨٢.

(٥) السابق: ٧/٨٢.

وبعدها جاءت ولاية السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري ، فقد حصلت بينه وبين الملك المظفر وحشة بسبب ولاية حلب، حيث وعده الملك المظفر بولاية حلب، فلما وضعت الحرب أوزارها وارتفعت كلمة الحق، فانصرف عن إعطائها له، وولّاهم لعلاء الدين علي بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، فدبّر الظاهر بيبرس مكيّدة لقتل الملك المظفر، وهو في طريق عودته إلى مصر ، فقتله عند الصالحية يوم السبت السادس عشر من شهر ذي القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة ، فمراسيم الاحتفال بالنصر المعدّة لاستقبال الملك المظفر قطز ، أصبحت لمبايعة الظاهر بيبرس^(١).

ونهج بيبرس نهج الملك المظفر في تتبع التتار والصليبيين للقضاء عليهم ، فلقق بهم إلى أطراف البلاد حتى قتل منهم الكثير^(٢).

ويعتبر المؤرخون بيبرس المؤسس الحقيقي لعظمة الدولة البحرية ؛ لما تمّ على يده وفي عهده من أعمال جليّة^(٣).

ثم ولي الملك المنصور سيف الدين قلاوون سنة ٦٧٨ هـ ، فلم تمضِ على توليه الإمارة مدة يسيرة ، حتى خرج عليه الأمير شمس الدين سنقر الأشقر نائب دمشق ، فانشغل قلاوون في هذه الفتنة الداخلية لرد دمشق إلى حكمه وولايته ، فاستغل التتار هذا الخلف فقصدوا البلاد الشامية ، فخرج لملاقاتهم جميع من كان بدمشق من العساكر الشامية والمصرية ، وأرسلوا إلى سنقر للتكاتف خوفاً على هلاك الإسلام ، فامتثل سنقر لذلك ، فدخل التتار حلب وعاثوا فيها الفساد يومين ، ولما بلغهم من أمر وحدة المسلمين خرجوا منها ، وبعدها دانت البلاد للمنصور ، وقد حاول التتار الهجوم مجدداً على الشام ، فخرج لهم قلاوون بجند من عسكر الشام وعسكر مصر حتى كسر هيبتهم وشتت شملهم^(٤).

(١) النجوم الزاهرة ٧/٨٤.

(٢) السابق: ٧/٨٢.

(٣) موسوعة عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ١/٢٦.

(٤) النجوم الزاهرة ٧/٣٠٠-٣٠١.

وفي عام أربع وثمانين وستمائة هجرية ، استولى المنصور قلاوون على حصن المرقب، ثم فتح طرابلس في عام ثمان وثمانين وستمائة ثم خرج على رأس جيشه قاصداً عكا ، ولكنه توفي في ذي القعدة من سنة تسع وثمانين وستمائة^(١).

لذلك كله اعتبر السلطان قلاوون من أعظم سلاطين المماليك ، لما قام به من فتوح وأعمال جليلة ، ولأنه رأس أسرة قلاوون التي تتابع على عرش مصر منها أربعة عشر ملكاً، وحكموها وحدهم قرابة مائة عام ، وكان قلاوون مغرماً بشراء المماليك الجدد ، قيل : بلغت عدة ما اشتراه اثني عشر ألف مملوك^(٢).

وفي عام (٧٨٤هـ - ١٣٨٢م) بدأ عهد الدولة الجركسية ، وأصل ملوكها من الجنس الجركسي ، أحضروا في عصر المنصور قلاوون ، حيث "أفرد من مماليكه ثلاثة آلاف وسبعمائة من الأمراء والجراكسة ، وجعلهم بالقلعة ، وسماهم البرجية ، وأقام نوابه في البلدان من مماليكه .."^(٣).

فقد استطاع مؤسس هذه الدولة السلطان الظاهر برقوق^(٤) أن يرد كيد التتار ، بعد أن استطاع القائد المغولي تيمورلنك أن يزحف بجيشه الجرار على غرب آسيا ، فخرّب تبريز ، وقتل أهلها ، وهاجم بلاد التركمان والأكراد وتوجه بعدها إلى بغداد ، ثم حلب ودمشق، ثم أرسل رسالة تهديد للسلطان الظاهر برقوق ، فقتل برقوق الرسل وخرج على جيش كبير لمواجهة ، فدخل الظاهر برقوق بغداد، وطرد الحامية المغولية منها، وأعلن حاكم بغداد تبعيته للسلطان الظاهر برقوق في مصر، وبعد ست سنوات تمكن تيمورلنك من السيطرة ثانية على بغداد سنة ١٣٩٩م،

(١) النجوم الزاهرة ٧/٣١٧ - ٣٢٠.

(٢) موسوعة عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي : ٢٩/١.

(٣) النجوم الزاهرة ٧/٣٣٠.

(٤) السلطان الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين برقوق بن أنص العثماني اليلبغاوي الجاركسي القائم بدولة الجراكسة بالديار المصرية. وهو السلطان الخامس والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية والثاني من الجراكسة ، حيث تولى السلطة في التاسع عشر من شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة. انظر النجوم الزاهرة ١١/٢٢١.

ثم توفي السلطان الظاهر برقوق ، فخرج ابنه على رأس الجيش لمواجهة تيمورلنك ، وتمكن من هزيمته في دمشق ، وبعدها انتهاء تيمورلنك هدأت رياح الشر التتيرية^(١).

أما على صعيد الصليبيين استطاع السلطان الأشرف برسباني بحملاته الثلاث التي امتدت على مدار ثلاث سنوات من سنة ٨٢٧هـ وحتى ٨٢٩هـ غزو قبرص وتأديب أهلها ، وإخضاع الجزيرة وأهلها لسلطان المماليك^(٢).

وبذلك استطاع المماليك أن يكون لهم الشرف بأن يكونوا الدرع الحامي لهيبة الإسلام من أعدائه بشتى أشكالهم من تتار وصليبيين وغيرهم ، وأسسوا ملكاً استمر زهاء ثلاثة قرون تبوأته فيه مصر الصدارة سياسياً وأدبياً وعلمياً وثقافياً ودينيًا ، إلى أن انتهى عصر المماليك بهزيمة السلطان التركي قانصوه الغوري في معركة مرج دابق بالشام أمام السلطان العثماني سليم الأول ٩٢٢هـ.

(١) عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ١٩١/٧-١٩٣.

(٢) النجوم الزاهرة ٢٩٢/١٤-٢٩٥.

البيئة الاجتماعية :

اختلف المؤرخون في تصنيف طبقات المجتمع في زمن المماليك فابن خلدون في مقدمته اهتم في تقسيمه على طبقتين، هما الطبقة الحاكمة، وتشمل السلطان والأمراء والوزراء وقادة الجند وكبار موظفي الدولة ، والثانية طبقة الرعية ، وتشمل كل فئات الشعب وشرائحه^(١).

يتضح من تقسيم ابن خلدون أنه أذهب كل الفروق داخل الطبقة الواحدة، وعمد فقط على إظهار الفجوة الواسعة بين الطبقتين.

أما الفلقشندي فقد اهتم بطبقة من انتظم بهم أمر المملكة وقيام الملك وهم أعيان المملكة وأرباب المناصب فقد قسمها على أربعة أضرب : الأول أرباب السيوف وهم على وجهين الأول من حيث مراتبهم وهي على نوعين: الأول الأمراء وهم على أربع طبقات: الطبقة الأولى أمراء المئين مقدمو الألوف، وعدة كل منهم مائة فارس ، والطبقة الثانية أمراء الطبلخاناه ، وعدة كل منهم في الغالب أربعون فارساً، الطبقة الثالثة أمراء العشرات ، وعدة كل منهم عشرة فوارس، الطبقة الرابعة أمراء الخمسات ، والنوع الثاني الأجناد ، وهم على طبقتين : الطبقة الأولى المماليك السلطانية وهم أعظم الأجناد شأناً ، والطبقة الثانية أجناد الحلقة وهم عدد جم وخلق كثير ، أما الوجه الثاني في ذكر أرباب الوظائف من أرباب السيوف فهم على نوعين ، النوع الأول من هو بحضرة السلطان ، وهي خمسة وعشرون وظيفة : الأولى النيابة وهو يحكم في كل ما يحكم فيه السلطان ، الثانية الأتابكية ، ويعبر عن صاحبها بأتابك العساكر وهو أكبر الأمراء المقدمين بعد النائب الكافل ، والثالثة وظيفة رأس نوبة وموضعها الحكم على المماليك السلطانية، الرابعة إمرة المجلس ، الخامسة إمرة سلاح. وأصل موضوعها حمل السلاح للسلطان في المجمع الجامعة، السادسة إمرة أخورية وموضوعها التحدث على إصطبل السلطان وخبوله ، السابعة الدواريّة، وموضوعها تبليغ الرسائل عن السلطان وإبلاغ عامة الأمور، الثامنة الحجوبية ، وموضوعها أن صاحبها ينصف بين الأمراء والجند تارة بنفسه وتارة بمراجعة النائب إن كان، وإليه تقديم من يعرض ومن يردّ، وعرض الجند وما ناسب ذلك ، التاسعة إمرة جاندار، وموضوعها أن صاحبها يستأذن على دخول الأمراء للخدمة ويدخل أمامهم إلى الديوان ، العاشرة

(١) عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة، المطبعة الأميرية ببولاق ، القاهرة ، ١٣٢١هـ ، ص ١٨٣.

الاستادريّة ، وموضوعها التحدّث في أمر بيوت السلطان كلها من المطابخ والشّراب خاناه والحاشية والغلمان، الحادية عشرة الجاشنكيرية ، وموضوعها التحدّث في أمر السّماط مع الأستاذار على ما تقدّمت الإشارة إليه، الثانية عشرة الخازندارية، وموضوعها التحدّث في خزائن الأموال السلطانية من نقد وقماش وغير ذلك ، الثالثة عشرة شدّ الشّراب خاناه. وموضوعها التحدّث في أمر الشّراب خاناه السلطانية وما عمل إليها من السّكر والمشروب والفواكه وغير ذلك، الرابعة عشرة أستاذارية الصحبة، وموضوعها التحدّث على المطبخ السلطاني والإشراف على الطعام والمشى أمامه والوقوف على السّماط ، الخامسة عشرة- تقدمة الممالك. وموضوعها التحدّث على الممالك السلطانية والحكم فيهم، ولا يكون صاحبها إلا من الخدّام، والعادة أن تكون إمرة طبلخاناه، وله نائب أمير عشرة. السادسة عشرة- زمامية الدور السلطانية. وصاحبها من أكبر الخدّام، وهو المعبر عنه بالزّمام، وعادته أن يكون أمير طبلخاناه ، السابعة عشرة- نقابة الجيوش ، وهي موضوعة لتحلية الجند في عرضهم، ومعه يمشي النّقباء ، الثامنة عشرة- المهمندارية. وموضوعها تلقّي الرسل الواردين وأمراء العريان وغيرهم ممن يرد من أهل المملكة وغيرها. التاسعة عشرة شدّ الدواوين ، وموضوعها أن يكون صاحبها رفيقا للوزير متحدّثا في استخلاص الأموال ، العشرون إمرة طبر، وموضوعها أن يكون صاحبها حاملا الطّبر في المواكب ، الحادية والعشرون إمرة علم، وموضوعها أن يكون صاحبها متحدّثا على الطبلخاناه السلطانية وأهلها، متصرفا في أمرها؛ وعادتها إمرة عشرة ، الثانية والعشرون إمرة شكار، وموضوعها أن يكون صاحبها متحدّثا في الجوارح السلطانية من الطّيور وغيرها والصّيود السلطانية وأحواش الطيور وغيرها؛ وهي إمرة عشرة ، الثالثة والعشرون- حراسة الطير. وموضوعها أن يكون صاحبها متحدّثا على حراسة الطيور من الكراكيّ التي هي بصدد أن يصيدها السلطان في الأماكن التي تنزل بها الطيور من المزارع وغيرها ، الرابعة والعشرون شدّ العمائر، وموضوعها أن يكون صاحبها متكلما في العمائر السلطانية مما يختار السلطان إحداثه أو تجديده من القصور والمنازل والأسوار؛ وهي إمرة عشرة. الخامسة والعشرون الولاية ، والولاية بالحاضرة على صنفين : الصنف الأول ولاية الشّرطة، المعروفون في الديار المصرية بولاية الحرب؛ وهم ثلاثة، بالقاهرة، والفسطاط المعروف بمصر، والقرافة ، أما الصنف الثاني فهم ولاية القلعة، وهم اثنان : الأول والي القلعة و الثاني والي باب القلعة، النوع الثاني ما هو خارج عن الحضرة السلطانية، وهم على ثلاث طبقات: الطبقة الأولى نواب السلطنة ، الطبقة الثانية

الكشّاف ، الطبقة الثالثة الولاية بالوجهين: القبليّ والبحريّ ، أما الضرب الثاني من أعيان المملكة وأرباب المناصب حملة الأقاليم، وهم على نوعين : النوع الأول أرباب الوظائف الديوانية، منها الوزارة ، وأرباب الوظائف الدينية ، وفيها قاضي القضاة ، وقضاء العسكر ، وإفتاء دار العدل^(١).

من التقسيم الدقيق لطبقة أعيان الدولة يتبين اهتمام القلقشندي بهذه الطبقة دون ذكر لباقي طبقات المجتمع ، كما ذكرها المقرئ الذي فصل في طبقات المجتمع فجعلها على " سبعة أقسام ، وهي : القسم الأول أهل الدولة ، والقسم الثاني أهل اليسار من التجار وأولي النعمة من ذوي الرفاهية ، والقسم الثالث الباعة وهم متوسطو الحال من التجار، ويقال لهم البرّ ، ويلحق بهم أصحاب المعاش وهم السوق ، والقسم الرابع أهل الفلح ، وهم أهل الزراعات والحرث وسكان القرى والريف ، ، والقسم الخامس الفقراء ، وهم جلّ الفقهاء وأصحاب العلم ، والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم ، والقسم السادس أرباب الصنائع والأجراء أصحاب المهن ، والقسم السابع ذوو الحاجة والمسكنة وهو السؤل الذين يتكفون الناس ويعيشون منهم"^(٢).

بذلك يرى الدكتور نبيل أبو علي حسب تقسيم ابن خلدون والمقرئ لطبقات المجتمع في العصر المملوكي أنه يمكن تصنيفها في " أربع طبقات وهي : طبقة رجال الدولة وتشمل السلطان والأمراء ، والوزراء و قادة الجند وكبار موظفي الدولة من القضاة ورؤساء الدواوين وكبار الكتاب ، ثم طبقة ذوي اليسار من التجار والفقهاء والعلماء ، أما الطبقة الثالثة فتشمل متوسطي الحال من الباعة وأرباب الحرف وطلاب العلم وأهل الزراعات وسكان الريف والقرى ، وأخيراً الفقراء والمساكين ، وقد كان عددهم يزيد وينقص حسب أحوال البلاد السياسية والاقتصادية " ^(٣).

(١) أحمد بن علي القلقشندي (المتوفى: ٨٢١هـ) ، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤/٤-٣٤.

(٢) تقي الدين المقرئ (المتوفى ٨٤٥هـ) : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، تحقيق د. كرم حلمي فرحات ، ط١، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، ٢٠٠٧م ، ص ١٤٧.

(٣) نبيل أبو علي : الأدب العربي بين عصرين المملوكي والعثماني ، ط١، دار المقداد، غزة ، ٢٠٠٨م ، ص ٣٤.

وقد عاش أفراد الطبقة الأولى حياة الترف والبذخ لما تمتعوا به من امتيازات، " حيث استولى من كان في الطبقة من سلاطين ووزراء وأمراء على كثير من خيرات البلاد ، كعائدات الأراضي الزراعية الموقوفة ، وعائدات التجارة التي كان يشتغل بها الكثير منهم " (١).

كان المماليك في هذا العصر هم الطبقة العسكرية الحاكمة بدولتيها- البحرية والبرجية -، فبقيت هذه الطبقة في المناصب الرفيعة ، وعاشت في القصور الفخمة ، ولم تشارك في حياة الشعب العامة إلا من خلال الأعياد والاحتفالات الدينية، ومراسم التنصيب وغيرها، كما أن الشعب اعتبر المماليك طائفة غريبة، غير أن المماليك أنفسهم شعروا بأنهم غرباء عن البلاد ولم يحاولوا الاندماج فيها ، مما جعلهم تصرفون كأقلية عسكرية حاكمة (٢).

أما " أولاد الناس " وهم أبناء المماليك الذين ولدوا في مصر ولم يمسهم الرق ، فكانوا غالباً ينصرفون عن الحياة السياسية والعسكرية التي كان آباؤهم يحيون فيها ، فكانوا يقضون أوقاتهم في لعب الكرة ورمي الرمح وغيرها، ويتمتعون بالثروات التي يرثونها عن آبائهم مما يكفل لهم العيش في ظل الرفاهية، وقد عني بعضهم بالمشاركة في النشاط الثقافي ، وقد برزت من بينهم طائفة كبيرة من المؤرخين منهم " ابن أبيك الدواداري صاحب كتاب كنز الدرر وجامع الغرر المتوفي سنة ٧٣٤هـ " و " خليل بن شاهين الظاهري صاحب كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك المتوفي سنة ٨٧٣هـ " و " ابن دقماق صاحب كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار المتوفي سنة ٨٠٩هـ " و " ابن تغري بردي صاحب كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة المتوفي سنة ٨٧٤هـ " و " ابن إياس صاحب كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور المتوفي سنة ٩٣٠هـ " وغيرهم (٣).

اهتم السلاطين في العصر المملوكي على إظهار الواجهة الدينية لحكمهم مما جعلهم يقرؤون " أهل العمامة " ، فكان المتعممون (٤) يتمتعون بحياة رغيدة وهائلة ، ويقتنون الثروات الطائلة

(١) الأدب العربي بين عصرين المملوكي والعثماني، ص ٣٤.

(٢) عصر سلاطين المماليك ١٤ .

(٣) انظر : قاسم عبده قاسم : موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٥م، ٢٩٠/٣ .

(٤) المتعممون: هو لفظ للفتنة التي كانت عمائمهم أكبر في حجمها من عمائم الآخرين حسب مكانة الشخصية، انظر: عصر سلاطين المماليك ٢٠.

التي كانت الأوقاف الكثيرة توفرها لهم ، ويتقاضون مرتبات عينية ونقدية من الديوان السلطاني وقد تمسكوا بمظاهر الحياة المترفة المنعمة ، فكانوا يركبون الخيول المسومة ، ويرتدون الثياب الغالية، وهو ما يكشف عن أن القضاة والفقهاء قد وضعوا مصالحهم في سلة واحدة مع مصالح الطبقة الحاكمة^(١) .

وثمة فئة عاشت على هامش الطبقة الحاكمة بحكم عملها في الجهازين الإداري والمالي لدولة سلاطين المماليك ، هم فئة المحاسبين والماليين من أهل الذمة الذين عملوا في خدمة الديوان السلطاني ودواوين الأمراء ، وكانت لهم هذه المكانة بحكم خبرتهم في هذا المجال فصعب الاستغناء عنهم ، حيث أخذ عليهم استغلالهم نفوذهم ضد المسلمين ولصالح أبناء طوائفهم^(٢) .

أما طبقة الرعية فكانت تشمل صغار التجار والفقهاء وأصحاب الحرف، والصنائع والفلاحين وعامة أهل المدن، فكان الرابط بينهم وبين الطبقة الحاكمة فقط الضرائب التي كان يفرضها عليهم السلاطين^(٣) .

(١) انظر: عصر سلاطين المماليك ١٩,٢٠ .

(٢) انظر السابق: ٢٠,٢١ .

(٣) انظر السابق: ٢١ .

الحياة الثقافية :

كان للتنشئة الخاصة التي مرّ بها المماليك الأثر الكبير في حياتهم الفكرية والثقافية ، فقد اهتم السلاطين بتربية المماليك تربية خاصة تصل حدّ الإشراف عليها ، وكانت هذه التربية تمر بمراحل ، فمنذ صغرهم يبدؤون بتعليمهم القرآن الكريم ، وبعدها يهتمون بتعليمهم آداب الشريعة وملازمة الصلوات والأذكار ، فإذا شبّ كان تعليمهم شيئاً من الفقه، حتى إذا وصل سن البلوغ بدأ تعليمهم أساليب القتال، وكانوا يعيشون في ثكنات عسكرية تسمى الطباق ، ولم يكن يسمح لهؤلاء المماليك ، وخصوصاً الصغار منهم بمغادرة تلك الطباق إلا فيما ندر ، فقد وصف المقرئ هذه التنشئة: " كان للمماليك بهذه الطباق عادات جميلة، منها أنه إذا قدم بالملوك تاجر، عرضه على السلطان، وأنزله في طبقة جنسه، وسلمه لطواشي برسم الكتابة، فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم، وكانت كل طائفة لها فقيه يحضر إليها كل يوم، ويأخذ في تعليمها كتاب الله تعالى، ومعرفة الخط والتحدث بآداب الشريعة، وملازمة الصلوات والأذكار، وكان الرسم إذ ذاك ألا يجلب التجار إلا المماليك الصغار، فإذا شب الواحد من المماليك، علمه الفقيه شيئاً من الفقه، وأقرأه فيه مقدمة، فإذا صار إلى سن البلوغ، أخذ في تعليمه أساليب الحرب، من رمي السهام، ولعب الرمح، ونحو ذلك فيتسلم كلّ طائفة معلم حتى يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج إليه، وإذا ركبوا إلى لعب الرمح أو رمي النشاب لا يجسر جندي ولا أمير أن يحدثهم أو يدنو منهم، فينقل إذن إلى الخدمة وينتقل في أطوارها رتبة بعد رتبة إلى أن يصير من الأمراء، فلا يبلغ هذه الرتبة إلا وقد تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه، وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه، واشتدّ ساعده في رماية النشاب، وحسن لعبه بالرمح، ومرن على ركوب الخيل، ومنهم من يصير في رتبة فقيه عارف، أو أديب شاعر، أو حاسب ماهر"^(١).

من ذلك نتبين مدى التربية التي نشأ عليها المماليك مما ساعد على وجود أجيال من العلماء والفقهاء والمفكرين ، الذين أبهروا البشرية بموسوعاتهم وعلمهم الجم الغزير .

(١) تقي الدين المقرئ (المتوفى: ٨٤٥هـ) : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨ هـ ، ٣/٣٧٢ ، ٣٧٣.

وقد تعددت مظاهر اهتمام المماليك بالعلم، وتسهيل سبل الوصول إليه حيث ساروا على سنة الأيوبيين في رعاية العلماء وطلاب العلم وتنشيط الحركة الفكرية، ومما ساعد على ازدهار النشاط العلمي في مصر زمن المماليك عدة عوامل أهمها:

انتقال ولاية العلم لها بعدما دمر التتار الحضارة الفكرية في بغداد، وأضاع على الأمة واللغة نفائس لا تعوض ، ففرّ كثير العلماء ، ولم يجدوا أمامهم أرحب من مصر والشام صدراً .

وقد أغرى ذلك الكثير من العلماء في الأصقاع المختلفة حيث الأمن والسلام ، وأصبح الترحيب بهم سنة متبعة ، فممن وفد إلى مصر: ابن خلكان الإريلي المؤرخ صاحب وفيات الأعيان، وابن مالك النحوي الأندلسي صاحب الألفية والتسهيل ، وابن خلدون المغربي صاحب كتاب العبر ومقدمته الشهيرة ، وابن تيمية الحراني الإمام المجتهد صاحب الفتاوي ، وابن منظور الإغريقي صاحب لسان العرب^(١) .

ومنها الغيرة الدينية عند الحكام وتعظيمهم العلماء ورعايتهم ، واستشارتهم في أمورهم العليا، واختيار أصلحهم لولاية القضاء والتعليم ونحوهما ، لما كان لعلماء الدين من جاه عند العامة، ولما كانوا يتصفون به من غزارة علم ورجاحة عقل وسلامة قلب^(٢).

ومنها أيضاً اهتمام السلاطين في إنشاء دور التعليم ورصد الأوقاف ، مما هيا بيئة تعليمية للمشتغلين بالعلوم والآداب طلاباً وأساتذة .

فأنشئوا عدداً ضخماً من دور التعليم في القاهرة وغيرها من المدن المصرية والشامية ، حيث بلغ عدد المدارس في القاهرة وحدها أربعين مدرسة ، وأوقفوا عليها الأوقاف التي تهيء لها أسباب

(١) محمود رزق سليم : الادب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٩٥٧، ص ٩ .

(٢) الادب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث : ص ١٠ .

الاستمرار ، وقد عبر ابن بطوطة عن دهشته من كثرة المدارس في مصر فيقول : " وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها"^(١).

وكان بناؤهم للمدارس إما تقرباً لله ورعاية للشعب، أو مجالاً للمفاخرة ، أو وسيلة تأمين مستقبل أبنائهم عن طريق الوقف على هذه المدارس واشتراط النظر لذريتهم.

ومن عاداتهم في افتتاح المدارس أن يقوموا بحفلات شائقة تلقى فيها الخطب والقصائد، ويختارون للتدريس فيها أبرع العلماء وأفضل الشيوخ .

ومن هذه المدارس: المدرسة الظاهرية التي أسسها الملك الظاهر بالقاهرة عام ٦٦٢هـ، والمدرسة المنصورية التي أنشأها المنصور قلاوون ، والمدرسة الناصرية التي أنشأها العادل كتبغا وأكملها الناصر محمد بن قلاوون ، ومدرسة السلطان حسن ، والمؤيدية ، وغيرها .

ومن أهم الدور التعليمية المجيدة : المارستان المنصوري ، بناء الملك المنصور قلاوون عام ٦٨٢هـ ، ويحتوي على مستشفى للمرضى ومدرسة للطب^(٢) ، وقد أثار المارستان إعجاب ابن بطوطة في رحلته فيقول : " وأما المارستان الذي بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون فيعجز الوصف عن محاسنه وقد أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر"^(٣).

وقد اهتموا بتعليم الفقراء والأيتام ، فقد روى المقرئ عن الجامع الأزهر: " وفي سنة ثمان عشرة وثمانمائة كان عدد كبير من الفقراء يلزمون الإقامة فيه، وبلغت عدتهم في هذه الأيام سبعمائة وخمسين رجلاً ما بين عجم وزبالعة، ومن أهل ريف مصر ومغاربة، ولكل طائفة رواق يعرف بهم، فلا يزال الجامع عامراً بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه والاشتغال بأنواع العلوم الفقه والحديث والتفسير والنحو، ومجالس الوعظ وحلق الذكر، فيجد الإنسان إذا دخل هذا الجامع من الإنس بالله والارتياح وترويح النفس ما لا يجده في غيره، وصار أرباب الأموال يقصدون هذا

(١) ابن بطوطة (المتوفى: ٧٧٩هـ) : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار الشرق العربي، ٢٦/١.

(٢) الأدب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث، ص ١١، ١٢.

(٣) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ٢٦/١.

الجامع بأنواع البرّ من الذهب والفضة والفلوس إعانة للمجاورين فيه على عبادة الله تعالى، وكلّ قليل تحمل إليهم أنواع الأطعمة والخبز والحلوات، لا سيما في المواسم"^(١).

ومنها أيضاً - أسباب ازدهار الحركة العلمية - الاهتمام بإنشاء دور الكتب ليجمعوا فيها أنفس ما أنتجت عقولهم من مؤلفات وموسوعات ، ومن أشهرها : خزانة جامع بأمر الله زوده بها السلطان العادل بيبرس عام ٧٠٣هـ، وخزانة جامع المؤيد زوده بها منشئ الجامع وهو الملك المؤيد شيخ عام ٨١٩هـ، وخزانة القبة المنصورية وأنشأها المنصور قلاوون^(٢).

هذا ما كان من مكتبات عامة أما ما كان يقتنيه بعض العلماء والأمراء فقد روى ابن إياس: " أن القاضي نجم الدين يحيى بن حجي ، كان عالماً فاضلاً، ولما مات وجد عنده خزانة كتب بها أكثر من ثلاثة آلاف مجلد من الكتب النفيسة"^(٣).

ومنها أيضاً اتخاذ اللغة العربية لغة رسمية وهذا ما جعلها حية نامية، رغم أن السلاطين كانوا يتكلمون التركية ، فكانت لغة عاجزة عن أداء حاجة الدولة؛ لأنهم كانوا يحكمون شعوباً عربية ولا يمكن التفاهم بينهم إلا بلغتهم؛ لهذا اتخذوا العربية لغة رسمية في دواوين الدولة، وكان ألمع دواوينها " ديوان الإنشاء " الذي اختص بالمكاتبات العربية الديوانية العليا وكان يختار للعمل فيه أبرع أهل اللغة والادب والكتابة ، مما كان ذلك كله سبباً في ظهور طبقات ممتازة من رجال اللغة والأدب والإنشاء^(٤).

بذلك كله اتسم هذا العصر بنشاط حركة التأليف ، فقد ظهرت طائفة من العلماء الأفاضل الذين أنتجوا للأمة الإسلامية أنفس الكنوز الأدبية في جميع المجالات والفنون، نذكر بعضها، فمن كتب التاريخ مثلاً: الوفيات لابن خلكان، والطالع السعيد للإدقوي، والوفى بالوفيات للصفدي ، والدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني ، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ، والخطط والسلوك

(١) انظر: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ٥٧/٤.

(٢) انظر: الأدب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث، ص ١٣.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، تحقيق محمد مصطفى، ط١، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م، ٢٠١/٣.

(٤) انظر: الادب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث، ص ١٣.

للمقريزي ، وبدائع الزهور لابن اياس المصري ، وحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي .

ومن كتب العربية : الألفية والتسهيل لابن مالك النحوي والأندلسي ، ومغني اللبيب عن كتب الأعراب لجمال الدين بن هشام المصري ، وشفاء العليل في علم الخليل لأمين الدين الحلبي ، وخرانة الأدب في علوم الأدب والبلاغة لابن حجة الحموي ، وتلخيص المفتاح للجلال القزويني ، والمزهر في فقه اللغة للسيوطي ، ولسان العرب لابن منظور .

ومن الموسوعات التي ضمت علوماً وفنوناً عدة : مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري، ونهاية الأرب لشهاب الدين النويري ، وصبح الاعشى لشهاب الدين القلقشندي .

الفصل الثاني

أسرار أساتذتنا الموقرة

- المصائب النبوية.
- المصيب.
- الغزل.
- أغراض أخرى.

الشعر لغةً:

إن المادة اللغوية لكلمة الشعر تتكون من ثلاثة حروف (ش ع ر) وهذه الأصول تحمل معاني الإحساس بالشيء والشعور به، أو ما يخطر ببال الإنسان فينسججه في كلمات تحمل هذا الشعور، فالشعر هو " شعَرَ بِشَيْءٍ، شَعُورًا، فهو شاعرٌ، والمفعول مَشْعُورٌ به.

• شعَرَ به:

١ - أَحَسَّ به، أو أدركه بإحدى حواسِّه الظاهرة أو الباطنة لم يشعر به أحد- شعَرَ بالبرد، التعب والإجهاد.

٢ - خَطَرَ بباليه: ﴿وَأَنَّهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

ويقال: شعُرَ / شعُرَ بِشَيْءٍ، شِعْرًا، فهو شاعرٌ، والمفعول مَشْعُورٌ به.

• شعُرَ فلانٌ: صار شاعرًا، اكتسب ملكة الشعر فأجاده "خالط الشعراء فشعُرَ.

• شعُرَ به: شعَرَ به؛ أَحَسَّ به^(١).

أما الشعر اصطلاحاً:

فقد عرفه النقاد الأوائل في تعريف ابن طباطبا العلوي بأنه: "كلام منظوم بان عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم بما خص به من النظم الذي إن عدل به عن جهته مجته الأسماع وفسد على الذوق. ونظمه معلوم محدود؛ فمن صح طبعه وذوقه لم يحتج إلى الاستعانة على نظم الشعر بالعروض التي هي ميزانه، ومن اضطرب عليه الذوق لم يستغن عن تصحيحه وتقويمه بمعرفة العروض والحدق بها حتى تصير معرفته الاستفادة كالطبع الذي لا تكلف معه^(٢).

(١) معجم اللغة العربية المعاصرة: ١٢٠٥/٢.

(٢) ابن طباطبا العلوي (المتوفى: ٣٢٢هـ): عيار الشعر، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المانع، طبعة مكتبة

الخانجي - القاهرة، د.ت، ص ٦.

فالذي يحكم استعانة الشاعر بالأوزان العروضية من عدمه هو الذوق السليم، والطبع القويم، فصاحب الذوق السليم لا يحتاج إلى الأوزان الشعرية حتى ينسج عليها شعره، على عكس من فسد طبعه.

أما قدامة بن جعفر فقد وضع حداً للشعر ما تخطاه من الكلام فليس منه، واختصر التعريف بقوله: "إنه قول موزون مقفى يدل على معنى".

فقولنا: قول: دال على أصل الكلام الذي هو بمنزلة الجنس للشعر.

وقولنا: موزون: يفصله مما ليس بموزون، إذ كان من القول موزون وغير موزون.

وقولنا: مقفى: فصل بين ماله من الكلام الموزون قواف، وبين ما لا قوافي له ولا مقاطع.

وقولنا: يدل على معنى: يفصل ما جرى من القول على قافية ووزن مع دلالة على معنى مما جرى على ذلك من غير دلالة على معنى.

فإنه لو أراد مريد أن يعمل من ذلك شيئاً كثيراً على هذه الجهة لأمكن وما تعذر عليه.

فإذ قد تبين أن كذلك، وأن الشعر هو ما قدمناه، فليس من الاضطرار إذن أن يكون ما هذه سبيله جيداً أبداً ولا رديئاً أبداً، بل يحتمل أن يتعاقبه الأمران، مرة هذا، وأخرى هذا، على حسب ما يتفق، فحينئذ يحتاج إلى معرفة الجيد وتمييزه من الرديء^(١).

فالملاحظ من تعريفات القدماء أنهم عمدوا على الذوق والطبع في تحديد جيد الشعر من رديئه، وكذلك في وضع الحدود العامة للشعر في الوزن والتقفية.

أما النقاد المحدثين فقد عدّوا الشعر صناعة معقدة غاية التعقيد، وأنه ليس عملاً سهلاً ساذجاً؛ لأنه كما يرى شوقي ضيف: "أنه يخضع لقواعد دقيقة صارمة في دقتها بحيث لا ينحرف عنها صناع الشعر إلا ليضيفوا إليها قواعد أخرى، ما تزال تنمو مع نمو الشعر وتتطور مع تطوره"^(٢).

(١) قدامة بن جعفر (المتوفى: ٣٣٧هـ): نقد الشعر، ط١، مطبعة الجوائب - قسطنطينية، ١٣٠٢، ص ٣.

(٢) شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ط٩، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص ١٤.

وقد قسم القدماء الشعر إلى خمسة أقسام حسب الذوق والطبع فمنها المُرَقِص، والمُطْرِب والمقبول، والمسموع مما يقام به الوزن دون أن يمجّه الطبع، والمتروك وهو ما كان كلاً على السمع والطبع^(١).

وقد قسم بعض النقاد فنون الشعر حسب الأغراض التي قيلت فيها واختلفوا في حصرها فقد عدّها أبو هلال العسكري ستة أقسام هي " المدح، والهجاء، والوصف، والنسيب، والمراثي، والفخر^(٢).

وقال عبد العزيز بن أبي الأصبع: "الذي وقع لي أن فنون الشعر ثمانية عشر فناً وهي: غزل ووصف وفخر ومدح وهجاء وعتاب واعتذار وأدب وزهد وخمريات ومراث وبشارة وتهاني ووعيد وتحذير وتحريض وملح، وباب مفرد للسؤال والجواب^(٣).

غير أن الذوق العربي العام كان يفضل من بين أغراض الشعر أربعة يؤثرها على غيرها، وهي: النسيب، والفخر، والمديح، والهجاء؛ وسبب إيثارهم لهذه الأغراض لما لها من صلة وثيقة بحياة الشعور والاجتماع، فالنسيب لشيوع الغناء وكثرة الغنبيين، والأغراض الثلاثة الأخرى هي صورة الحياة الاجتماعية عند العرب، بما فيها من عصبية ونضال واكتساب معاش، وكأن الشعر عندهم تصوير حياتهم الروحية والاجتماعية^(٤).

(١) انظر: الأبشيهي (محمد بن أحمد) المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق محمد خير طعمه الحلبي، ط٥، دار المعرفة، بيروت، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، ص ٥٨٤.

(٢) العسكري، (أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران)، (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ) الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة المكتبة العنصرية - بيروت، ١٤١٩هـ، ص ٤٣١.

(٣) المستظرف ص ٥٨٤.

(٤) أحمد أحمد بدوي: أسس النقد الأدبي عند العرب، طبعة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٩٦م ص ١٣٦.

الشاعرية:

أما الشاعرية: مصدر صناعي من شاعر: موهبة قول الشعر "يتمتع هذا الرجل بشاعرية فيأضة"^(١).

الشعرية لغة: الشعرية اسم مشتق من كلمة "شعر" وقد أضيفت إليها اللاحقة "ية" لإضفاء الصفة العلمية، تماماً كما لو يقال: علم الشعر، وذلك جريئاً على نحو الأسلوبية، والأسنوية، والأدبية، الشعرية اصطلاحاً: مفهوم الشعرية نابع من الشعر، وكامن فيه عبر التاريخ، حيث تعود أصول تواجد هذا المفهوم إلى كتاب الشعر لأرسطو، الذي اعتمد نظرية المحاكاة كأساس نظري لشعريته، التي يمكن أن نطلق عليها (شعرية المحاكاة) التي قعد لها أرسطو، يبتغي منها أن تكون مدعاة (للتطهير)، وأنموذجاً للمجتمع المثالي الذي تتطلع إليه الحضارة اليونانية، ثم تغير مفهوم الشعر ومن خلاله مفهوم الشعرية، وفق التطورات التي ظل يشهدها التاريخ، ومدى تأثير تلك التدايعات، التي أخرجت إلى الوجود مدارس واتجاهات مذهبية أدبية، على غرار الكلاسيكية، ثم الرومانسية فالواقعية والتعبيرية ثم الرمزية، فالسريالية والواقعية الروسية ثم اتجاه الشعر الخالص، وغير ذلك. وإن أتينا إلى ما يميز الشعر لوجدناه يعتمد مبدأ التخيل، الذي يعد جوهره الأساس بحيث يزوده بصفة الحسية، والشعور بالمدرجات التي أعيد تشكيلها^(٢)، عن طريق المحاكاة، التي تقتضي فراسة الشاعر، وحذقه ومهارته أو ما يسمى (الشاعرية)، فالشاعرية هي التي تصنع (شعرية النص أو الخطاب الأدبي)، وبتعبير أوسع وأعم، فشاعرية الفنان هي التي تصنع شعرية فنه .

ويذهب التصور الإغريقي الأرسطي في رؤيته للشاعرية على نحو أن "الشاعر لا يحاكي ما هو كائن، ولكنه يحاكي ما يمكن أن يكون، أو ما ينبغي أن يكون بالضرورة أو الاحتمال، فإذا حاول الفنان أن يرسم منظرًا طبيعيًا مثلاً، ينبغي عليه ألا يتقيد بما يتضمنه ذلك المنظر، بل يحاكيه ويرسمه كأجمل ما يكون، أي بأفضل مما هو عليه، فالطبيعة ناقصة، والفن يتم ما في الطبيعة من نقص، لذلك فإن الشعر في نظره مثالي وليس نسخة طبق الأصل عن الإنسانية"^(٣).

(١) معجم اللغة العربية المعاصرة: ١٢٠٦/٢.

(٢) ينظر: إحسان عباس، فن الشعر، (دن)، بيروت 1959، ص. 210.

(٣) شكري عزيز الماضي، في نظرية الأدب، دار الحداثة بيروت، 1986، ط١ ص 33.

فالمحاكاة هنا تستدعي براعة الفنان وإبداعيته أو شاعريته، لأنه إذ يحاكي فهو لا يقرر الحقيقة، وإنما يتخيل ليقول ما هو غير ممكن في الواقع، وبالتالي يداعب أحاسيس الجماهير ويرفعها لتكون أكثر مثالية، وبالتالي يكون تأثير محاكاته أبلغ .

فشعرية النص -من هذا المنطلق- تعني كل ما يشحن اللغة العادية، ويجعل منها قطعة شعرية جذابة ومؤثرة، ذات وقع خاص على النفس.

ولو أردنا تمثل الشعرية في صورة فوتوغرافية لوجدنا أن كل واحد منا يلتقط لنفسه العديد من الصور، على مراحل من الزمن، ولكنه يجذب إلى واحدة منها بالذات، دون سواها من الصور، فشعرية تلك الصورة هي ما يغلفها من سر يجعلنا ننجذب إليها، ونتأثر بها .وما ينبغي الإشارة إليه هنا، هو أن رؤيتنا لتلك الصورة حتما لا تكون على درجة واحدة من الإعجاب، إذ تتفاوت درجات جماليتها من ناظر إلى آخر، ومن صورة إلى أخرى، ومن ثمة نكتشف أن شعرية العمل الفني متأرجحة وليست ثابتة، وقد تتأثر بعملية التلقي والتأويل، باعتبار أن المتلقي فاعل عند قراءته، وله سهمه في الأثر الفني، وينطوي ذلك على خلفيته الثقافية، التي دون شك تختلف عن ثقافة غيره، وعلى سبيل المثال: ما يراه العاشق خالاً* ينمق خد معشوقه، يراه الطبيب سرطاناً مقيناً، سيأتي يوماً ما على نخر وتخريب ذلك الوجه الصبوح.

ومن هذا المنطلق وكمختصر للقول يبدو أن الشعرية أو الشعرية . مادامت الشعرية مجرد جمع لمصطلح الشعرية. "كعلم للشعر" تهتم بمواصفات الخطاب الفني وماهيته وتسهم في البحث والتأصيل للكتابة النقدية التي تحوم حوله . إذ إن اللغة الأدبية أو اللغة الشعرية، قديماً وحديثاً، هي تلك اللغة التجاوزية، التي تخترق المعيار و"تختلف عن اللغة القياسية، لأنها تنزاح بطبيعتها عن معيارية اللغة، لأن هدف اللغة الأدبية هو إثارة انفعال لا تقرير وقائع، فهي لغة استشرافية بطبيعتها لأنها لا تعرف اختزال المعنى، إنها توسع وتضيق في ذات الوقت التفاوت بين الرمز والفكرة، بين العلامة والمكتوب، والمكتوب والمعنى المحدد"⁽¹⁾، ومن ثم فإن الشعرية على مستوى السماع تعني الإطراب وشدة الوقع على القلب وإثارة المشاعر، أما على مستوى اللغة،

(1) عبد الله إبراهيم، التفكير الأصول والمقولات، دار إفريقيا الشرق، 1989، المغرب ص.75

فهي التمرد على المعيار، والانحراف عن القاعدة، واللعب بحرية على وتر الدلالة، والتملص
بمرونة من قبضة مقاصد الألفاظ المتواضع عليها.

المصائب والنبوة

أولاً : المدائح النبوية :

المديح هو ذكر الصفات الحسنة للممدوح ، ولكن قيمة المديح تتعلق بالممدوح ، وما اختص به هذا المدح أن الممدوح هو سيد الورى، إمام النبيين، أفضل البشر على الإطلاق ، من مدحه صدق ، ومن عدل عن ذلك من الكفرة خاب وخسر ، فكله محمود، صفاته ، أخلاقه ، معاملاته، حياته كلها توصف بما يوصف - صلى الله عليه وسلم - من الحسن.

فقد ارتبط هذا النوع من المديح بالعصر الذي أشرق فيه نور الهدى ، وتجلت فيه أسمى آيات الرقي بالفكر والإنسان ، فكان شعاع الإسلام يبدد ظلام الجهل والعبودية لغير رب العباد، فبعث لنا سراجاً نهتدي بما أمده الله له من الكتاب والحكمة ، فكان أعظم وأنبل رجل عرفته البشرية محمد - صلى الله عليه وسلم - الذي أسدى لهذه الأمة جميلاً لو بقيت في صوامعها تشكر الله على هذه النعمة ما وقَّت هذه النعمة حقها، فالشغل في ذكر صفاته وأخلاقه فيه من الأجر العظيم ما فيه ، فحق لمن مدحه أن يفخر بما يصنع.

في بداية دعوته - صلى الله عليه وسلم - تعرض لهجمة إعلامية لتشويه ما يدعو إليه من الهدى ، فاشتد هجاء قريش له، فحث النبي - صلى الله عليه وسلم - أصحابه لنصرة دين الله ونصرة نبيه فقال: " ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بأسلحتهم أن ينصروه بألسنتهم " ، فبرز حسان بن ثابت وقال : أنا لها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " اهجهم فوالله لهجاؤك عليهم أشد عليهم من وقع السهام في غلس الظلام، اهجهم وروح القدس معك"^(١)، فكان حسان ابن ثابت من الثلاثة الذين دافعوا عن نبي الله صلى الله عليه وسلم وردوا غيظ الحاقدين ، فكان هو وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة، من برزوا لتلك المهمة الجهادية، فقال النبي صلى الله عليه وسلم في حقهم: " هؤلاء نفر أشد على قريش من نضح النبل"^(٢).

(١) ابن رشيبي القيرواني الأزدي (المتوفى: ٤٦٣ هـ) : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، المحقق: محمد محيي

الدين عبد الحميد، ط٥، دار الجيل، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م ، ٣١/١.

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، ٣١/١.

فكانت المدائح النبوية في أول هذا العصر مهمة جهادية ، يمدح فيها الشعراء نبيهم ويفخرون به في نفس الوقت ، فكان شعرهم مدح وفخر ودفع ، ومن أشهر تلك القصائد ، همزية حسان بن ثابت، التي أولها^(١):

عفت ذات الأصابع فالجواء إلى عذراء منزلها خلاء

فسار فيها على النهج القديم فبدأ بالوقوف على الأطلال ، ثم ذكر المحبوبة ، ثم وصف الخمر ، الغرض من القصيدة وهو مدح النبي - صلى الله عليه وسلم - وهجاء أبي سفيان أحد زعماء قريش.

وله مقطوعة من بيتين خصها لمدح النبي صلى الله عليه وسلم فيقول^(٢) :

وأحسن منك لم تر قط عيني

وأجمل منك لم تلد النساء

خُلِّفَتْ مبرراً من كل عيب

كأنك قد خُلِّفَتْ كما تشاء

ولكن الحق أن نمو هذا الفن وازدهاره كان في عصر الموحدين بالأندلس ، فقد توسعوا في موضوعاته ، وبرعوا في تناوله ، حيث برع في هذا الفن العديد من الشعراء حتى أنهم أفرغوا له أنفسهم ، من هؤلاء الشعراء الذين صرفوا شعرهم لهذا الفن عبد الرحمن الفازلي^(٣) ، الذي وصفه المقرئ بأنه : "صاحب الأمداح في سيد الوجود - صلى الله عليه وسلم -"^(٤) ، وقد أتى عليه المقرئ في مدحه للنبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : " له في مدح النبي - صلى الله عليه عليه

(١) ديوان حسان بن ثابت : شرحه وكتب هوامشه وقدم له الأستاذ عبد أ. مهنا ، ط٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٤م ، ص ٢٠ .

(٢) السابق: ص ٢١ .

(٣) هو عبد الرحمن بن يخلفتن بن أحمد اليجنشي الفازلي، ولد بقرطبة ونشأ بها ثم سكن تلمسان، وكان عالماً بالحديث متصرفاً في فنونه، كاتباً شاعراً مجوداً، مشاركاً في أصول الفقه، ذا معرفة بعلم الكلام، تجول ببلاد العدة والأندلس كثيراً، وغلب عليه شعر الزهد والتصوف . (نفح الطيب ٤/٤٦٨)

(٤) أحمد بن محمد المقرئ التلمساني (المتوفى: ١٠٤١هـ) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق إحسان عباس ، ط١ ، دار صادر، بيروت ، لبنان، ١٩٩٧ ، ٤٦٨/٤ .

وسلم - ، بدائع قد خضع لها البنيان وسلم، أعظم تلك المعجزات نظماً ونثراً، وأوجز في تحبير تلك الآيات البيّنات فجلاً سحرأً، ورفع للقوافي راية استظهاراً تخير فيه الأظهر^(١).

وممن برز لفن المدائح النبوية أيضاً ابن الجنان الشاطبي فذكر المقرئ: " أن كلامه في النبويات نظماً ونثراً جليل "^(٢).

ومما يدل على ازدهار هذا الفن في العصر الأندلسي أن النساء كانت لهن مشاركة فيه ، كما كان للنثر أيضاً مشاركة واسعة فيه ما يعني رواج هذا الفن في هذا العصر ^(٣).

وقد تنوعت الموضوعات التي عالجتها قصيدة المدح النبوي ، فنظم الشعراء قصائد في وصف مآثر الرسول - صلى الله عليه وسلم- ، ومناقبه، ومعجزاته، ونظم آخرون يتشوقون فيها إلى زيارة مقامه الكريم ، ونظم بعضهم قصائد يتباركون فيها بآثاره الكريمة .

وقد سلك الشعراء في مدائحهم دروباً مختلفة في نظم المدائح النبوية ، فبعضهم يبني مدحته على قوله (صلى الإله على النبي الهادي) ، أو قوله : (صلوا على خير البرية)^(٤)، فنتكرر هذه العبارة في مطلع كل بيت وتسير المدحة كلها على هذا النمط ^(٥).

وقد يبدأ الشاعر مدحته بتوجيه الخطاب مباشرة إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - ، ويلتمس منه الشفاعة ، ومنهم من يستهل مدائحه النبوية بمقدمات غزلية ينتقلون بعدها إلى مدح النبي - صلى الله عليه وسلم - ، ومنهم من يلتفت إلى المعلقات والقصائد المشهورة ، فيأخذها ويصرف معناها إلى المدح النبوي^(٦).

(١) نفع الطيب ٤/٤٦٨ .

(٢) السابق: ٧/٤٣١ .

(٣) فوزي سعد عيسى : الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، ط١، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٩م، ص٢٦٧ .

(٤) نفع الطيب ٧/٤٤٠ .

(٥) انظر : الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ص ٢٦٨ .

(٦) السابق: ٢٦٨-٢٧٠ .

المدائح النبوية في عصر ابن حجر العسقلاني:

المديح النبوي فن أصيل في العصر المملوكي حيث رأى بعض النقاد أن اتساع ورسوخ هذا الفن واتساح معالمه كان في هذا العصر، حيث أضحت له تقاليد وأصوله، وظهر الشعراء الذين اشتهروا به وأجادوه^(١).

ولعل ذلك يرجع إلى جملة عوامل منها أن العصر كان عصر تعصب إسلامي ، وغيره دينية واسعة بسبب حروب الصليبيين والتتار وطمعهم في أملاك المسلمين ، والقضاء عليهم وعلى دينهم ، ومنها أن العصر كان عصر ظلم وإرهاق واستبداد من الحكام ، فلاذ الشعب يبيت آلامه بالتوسلات إلى الله سبحانه أن يكشف عنه الغمة ، وأشرف ألوان التوسلات ذكر النبي الكريم ، والتشفع به إلى الله.

وهناك عامل آخر وهو إعجاب الشعراء ببردة البوصيري التي وجهت المديح النبوي وجهة جديدة لم تكن من قبل ، فعارضوها بقصائد ضمنوها ألواناً من البديع وسموها "البديعيات" .

ومن رجال المديح النبوي - عدا البوصيري - الشاب الظريف ، وابن نباتة المصري ، وابن حجر العسقلاني ، وأصحاب البديعيات ومنهم صفي الدين الحلبي ، وعز الدين الموصللي ، وتقي الدين ابن حجة الحموي^(٢).

(١) انظر: محمود سالم محمد: المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي، ط١، دار الفكر، دمشق، ١٤١٧هـ، ص١٨.

(٢) الأدب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث ٦٩-٧٠.

كتب ابن حجر في ديوانه سبع قصائد في المدح النبوي ، فترى في مدائحه السبعة للمصطفى - صلى الله عليه وسلم - أنه سار على نهج المادحين القدماء في بناء قصائده، من أمثال كعب بن زهير في برده ، والبوصيري ، فبدأ بالتغزل ، ولوم العواذل، وشدة الشوق ، ولوعة الوجد ، ولكن تظهر شاعرية ابن حجر في هذا الغرض في تعامله الخاص بالمقدمة الغزلية، التي تعامل معها على غرار السابقين، فلم يجعلنا نسبح بخيالنا في الغزل والنسيب، بعيداً عن مراده ومأربه، فأرض المحبوب هي بالنسبة إليه أرض ممدوحه المصطفى -صلى الله عليه وسلم-، فترى في مدحته السادسة يذكر في مقدمته الغزلية مناطق بأرض الحجاز، يقول^(١):

وذكرى أرض نَعْمَان^(٢) بها قد روت عيناى عن ماء السماء

ويزيد على ذلك بأن يطلب من القوافل أن تأخذ جسمه وروحه إلى طيبة مدينة رسول الله - صلى الله عليه وسلم- فهي مجتمع الهناء، فيها الرائحة الطيبة والفوز بالخير والنجاة من الشر، والملاذ لكل تائه، فكل ترابها دواء لرمد العيون، يقول^(٣):

وَلَا أُنْسَى غَدَاةَ الْبَيْنِ لَمَّا
وَقَدْ زُفَّتْ لَهُمْ نَجْبٌ تَهَادَى
وَحَطَّتْ مِنْ مَنَاسِمِهَا سُطُورًا
فَقَلْتُ لَهَا خُذِي جِسْمِي وَرُوحِي
مَنَازِلُ طَيْبَةِ الْفِيحَاءِ عِرْفَاءُ
فَإِنْ رِمِدَتْ مِنَ التَّسْهِيدِ عَيْنٌ
رَأَيْتِ الْيَأْسَ مُنْقَطِعَ الرَّجَاءِ
كَأَمْثَالِ الْعَرَائِسِ لِلْجِلَاءِ
وَسَارُوا فَهِيَ خَطُّ الْإِسْتَوَاءِ
لَطِيبَةٌ حَيْثُ مَجْتَمَعَ الْهِنَاءِ
مَفَازَةٌ طَيْبَةٌ وَمَلَاذُ نَائِي
فَأْتَمِدُ تَرِبَهَا عَيْنُ الدَّوَاءِ

وفي نسيبه في مدحته الأولى تراه يستهجن لوم عدّاله له بمجرد معرفتهم بأن مغرم، مع عدم معرفتهم من محبوبه ، ولكن يعدهم بأن يأتيهم تأويل ما لاموا عليه، وهو بمعنى إذا علم العواذل بمن كان الشاعر يلام في غرامه وهواه ، لسكتوا وعلموا عين الخطأ، وفي هذا إشارة إلى أن هذا الهوى لا يختلف عليه اثنان ، ولا يكون محل لوم العدّال، يقول^(٤):

(١) الديوان : ١٢١

(٢) أرض نعمان موضع بالحجاز (انظر معجم البلدان : ٣٧٩/١)

(٣) الديوان : ١٢٢ .

(٤) الديوان : ٩٧ .

لَوْ أَنَّ عُدَّالِي لَوَجَّهَكَ أَسْلَمُوا
كَيْفَ السَّبِيلُ لِكْتِمِ أَسْرَارِ الْهَوَى
لَامَ الْعَوَازِلِ كُلِّ صَادٍ لَلْقَا
لَمْ يَعْلَمُوا بِمَنْ الْهَوَى لِكِنَّهُمْ
لَامُوا وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُ مَا
إِنْ أBRمُونِي بِالْمَلَامِ فَإِنَّ لِي

لَرَجَوْتُ أَنِّي فِي الْمَحَبَّةِ أَسْلَمُ
وَلِسَانُ دَمْعِي بِالْغَرَامِ يُتَرْجَمُ
وَمَلَامُهُمْ عَيْنُ الْخَطَا إِنْ يَعْلَمُوا
لَامُوا لَعَلَّهُمْ بِأَنِّي مُغْرَمٌ
لَامُوا عَلَيْهِ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَفْهَمُوا
صَبْرًا سَيَنْقُضُ كَلِمًا قَدْ أBRمُوا

وفي نسيب مدحته الخامسة يذكر صفات حبيبه ، ومنها ما أكرم الله به حبيبه المصطفى-
صلى الله عليه وسلم- من سقيا الأرض القحط^(١)، ويكرر تسفيه العذال في لومه إن لاموه على
حبه وهواه، يقول^(٢):

غَرَامٌ غَرِيمِ الْوَصْلِ فِيهِ مَمَاطِلُ
وَأَيَّامٌ هَجَرٍ مِنْ حَبِيبٍ مُغَاضِبِ
غَنِيٌّ جَمَالٍ لَا يَلِينُ لِبَائِسِ
كَأَنَّ الثَّرَى فِي الْمَحَلِّ مُسْتَشْفَعٌ بِهِ
فِيَا عَادَلِي إِنِّي قُتِلْتُ تَوَلَّيْتُهَا
سَقَى اللَّهُ دَهْرًا كَانَ لِلشَّمْلِ جَامِعًا
وَأَقْسِمُ أَيْمَانًا بِحَقِّ مُحَمَّدٍ

وَصَبْرٌ لِحَلِي الْجِيدِ بِالدَّمْعِ عَاطِلُ
عَهْدِنَاهُ أَيَّامَ الرِّضَى وَهُوَ وَاصِلُ
وَلَا يَرَحَمُ الْمُشْتَاقَ وَالدَّمْعُ سَائِلُ
لِيُرْوِيَهُ مِنْ سُحْبِ جَفْنِي وَإِبِلُ
فِيَا لُمْتَنِي فِيهِ فَمَا أَنْتَ عَاقِلُ
بِهِ فَهَلِ الرِّضْوَانُ لِلْجَمْعِ شَامِلُ
لَقَدْ أَوْحَشْتَنِي مِنْهُ تِلْكَ الشَّمَائِلُ

من ذلك يتضح مدى التواصل المعنوي والوحدة العضوية في قصيدة المدح النبوي فالمقدمة
الغزلية لم يكن لغرضه ومعناه، وإنما لإبراز وتأکید مدى شوقه وحبه للمصطفى-صلى الله عليه
وسلم-.

(١) وتجد ذلك في السيرة النبوية عندما قالت قريش لأبي طالب : أقحط الوادي ، وأجذب العيال ، فهلم
فاستسق، فخرج ومعه غلام ، كأنه شمس دجن، نجلت عنه سحابة قثماء ، حوله أغيلمة، فأخذه أبو طالب،
فألصق ظهره بالكعبة ، ولأذ بأصبعه الغلام ، وما في السماء قرعة ، فأقبل السحاب من ههنا وههنا، وأغدق
واغودق ، وانفجر الوادي ، وأخضب النادي والبادي ، فقال أبو طالب:
وأبيض يستسقى الغمام بوجهه
ثمال اليتامى عصمة للأرامل

انظر الرحيق المختوم ص ٤٢ .

(٢) الديوان: ١١٨ .

وكان انتقال ابن حجر من النسب إلى عرضه الأساسي في مدح الحبيب انتقالاً سلساً فتكاد لا تشعر بالفجاءة في الانتقال.

أقسام قصيدة المدح النبوي عند ابن حجر:

أخلاق النبي - صلى الله عليه وسلم - وآثاره كان لها الحضور الأبرز في مدحه النبوي، فقد بدأ نظمه بنفي وجود كلام يستطيع أن يحوي أخلاق النبي وصفاته، وأن كل كلام المادحين في فضل النبي - صلى الله عليه وسلم - لا يساوي شيئاً أمام ما شهد به الله عز وجل له في كتابه الكريم، المعجز بلفظه وبقائه، ففي ذلك يقول ابن حجر^(١):

يَا سَيِّدَ الرُّسُلِ الَّذِي آيَاتُهُ لَا تَقْضِي أَبَدًا وَلَا تَنْصَرِّمُ^(٢)
مَاذَا يَقُولُ الْمَادِحُونَ وَمَدْحُكُمْ فَضْلًا بِهِ نَطَقَ الْكِتَابُ الْمُحَكَّمُ
الْمُعْجِزُ الْبَاقِي وَإِنْ طَالَ الْمَدَى وَلَا بُلْغَ الْبُلْغَاءِ فَهُوَ الْمُفْحِمُ
الْأَمْرُ أَعْظَمُ مِنْ مَقَالَةٍ قَائِلٍ إِنْ رَقَّ الْقُصَّاحَاءُ أَوْ إِنْ فَخَّمُوا

فآثاره بها طب القلوب ، ويهداه دواء لداء الذنوب، فهو الرحمة المهداة، فكان الخوف والجزع بوجوده يتحول، وكان الأمان والطمأنينة بالتمسك بسنته يتمكّن، فمن نصره وآمن به فاز ، ومن كفر به خاب وخسر في الدنيا والآخرة ، يقول^(٣):

آثَارُ خَيْرِ الْمُرْسَلِينَ بِهَا شِيفَا دَاءَ الدُّنُوبِ لِخَائِفِ يَتَهَوِّمُ
هُوَ رَحْمَةٌ لِلنَّاسِ مُهْدَاةٌ فِيهَا وَيَلِّ الْمَعَانِدِ إِنَّهُ لَا يُرْحَمُ
نَالَ الْأَمَانَ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ إِذَا شُبِّتَ وَقُودًا بِالطُّغَاةِ جَهَنَّمُ

(١) الديوان: ١٠٢، ١٠١.

(٢) لا تنصرم : لا تستأصل ولا تهجر ، لأن الصرْمُ: القطع البائن ، (لسان العرب ، مادة صرم) ٣٢٣/٥.

(٣) الديوان: ١٠٠.

فحق لمن كان الله وليه وناصره أن تكون تلك هي آثاره فهو الرسول البشير الذي لا ينطق عن الهوى ، وفي إشارة الى قوله تعالى " ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ " (١) يقول (٢):

اللَّهُ أَيَّدَهُ فَلَيْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فِي أَمْرِهِ أَوْ نَهْيِهِ يَتَكَلَّمُ
ثم ينتقل إلى مدح نسب النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقد ذكر شرف أصل رسول الله، ونسبه، فقد ورد أنه صفيُّ الله اصطفاه الله من بني هاشم فقال : "إن الله تعالى اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم" (٣)، يقول ابن حجر (٤):

**أبو القاسم المختار من نسلِ هاشمٍ وأزكى الورى نفساً وأصلاً ومحتداً
نبيِّ براه الله أشرف خلقه وأسماءه إذ سمَّاه في الذَّكر أحمداً
فأكرم به عبداً صفيّاً ممدحاً وأنعم به مولىً وفيّاً محمداً**

ثم ينتقل للحديث عن مولده - صلى الله عليه وسلم - وما حدث من معجزات وإرهاصات ودلائل بالبعثة "فقد سقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى؛ وخمدت النار التي يعبدها المجوس، وانهدمت الكنائس حول بحيرة (ساوة) بعد أن غاضت" (٥) ، ورأت أمه حين ولدته نوراً خرج منها أضاعت له قصور الشام (٦)، ففي ذلك قال ابن حجر (١):

(١) سورة النجم ، الآية ٣،٤ .

(٢) الديوان : ١٠٠ .

(٣) مسلم بن الحجاج النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ): المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث العربي - بيروت ، حديث رقم ٢٢٧٦ ، ١٧٨٢/٤ .

(٤) الديوان : ١٢٦ .

(٥) محمد الغزالي السقا (المتوفى: ١٤١٦هـ) : فقه السيرة ، ط١، دار القلم ، دمشق، ١٤٢٧هـ، ص ٦١ .

(٦) فعن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم قالوا له: أخبرنا عن نفسك. قال: " نعم أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى عليهما السلام، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاعت له قصور الشام ... " وقال بعضهم: وقع جاثيا على ركبتيه، وخرج معه نور أضاعت له قصور الشام وأسواقها، حتى رئيت أعناق الإبل ببصرى، رافعا رأسه إلى السماء.

إِيوانُ كَسْرَى إِنشَقَّ ثُمَّ تَسَاقَطَتِ
وَالْمَاءُ غَاضَ وَنَارُ فَارِسَ أُخْمِدَتِ
هَذَا وَآمَنَةٌ رَأَتْ نَاراً لَهَا
بُصْرَى أَضَاعَتْ وَالِدِياجِي تُظَلِّمُ

ويبدأ بعدها بسرد معجزات النبي - صلى الله عليه وسلم - التي لا ينكرها إلا من كان
كفيفاً عن رؤية نبراس الهدى، وسبيل الرشاد ، لأنه كمن أنكر ضوء الشمس في رابعة النهار،
قال ابن حجر (٢):

ذِي الْمُعْجَزَاتِ فَكُلَّ ذِي بَصَرٍ غَدَا
كَالشَّمْسِ ضَاعَتْ لِلْأَنَامِ وَأَشْرَقَتْ
لِصَوَابِهَا بِالعَيْنِ ذَا تَصَوِّبٍ
إِلَّا عَنِ الْمَكْفُوفِ وَالْمَحْجُوبِ

فمن معجزاته صلى الله عليه وسلم - معجزة الحصى التي نطقت وسبحت بين يدي النبي
- صلى الله عليه وسلم - (٣)، ومعجزة تكليم البهائم، إشارة إلى تكليم شكوى الجمل له من
صاحبه (٤)، يقول (٥) :

ذُو الْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَاتِ فَسَلَّ بِهَا
نُطِقَ الْحَصَى وَبِهَائِمًا قَدْ كَلَّمُوا

ومعجزة انشقاق القمر فقد ثبتت في كتاب الله - عز وجل - بقوله: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾﴾ (٦)، وكذلك وردت في السنة النبوية، فقد ورد

انظر: ابن كثير القرشي الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) : البداية والنهاية، دار الفكر، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م،
٨٥/٢.

(١) الديوان: ١٠١.

(٢) الديوان: ١٠٦.

(٣) "فقد ورد عن أبي ذر الغفاري قال: إني لشاهد عند النبي صلى الله عليه وسلم في حلقة وفي يده حصى
فسبحن في يده وفيها أبو بكر وعمر وعثمان وعلي فسمع تسيبهن من في الحلقة..."
أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني: المعجم الأوسط ، تحقيق : طارق بن عوض الله بن محمد، عبد
المحسن بن إبراهيم الحسيني ، دار الحرمين - القاهرة ، ١٤١٥ ، حديث ١٢٤٤ ، ٥٩/٢.

(٤) فقد روى أن جملأ شكى للنبي صلى الله عليه وسلم سوء معاملة صاحبه
مسند الإمام أحمد بن حنبل : تحقيق شعيب الأرنؤوط ، عادل مرشد، وآخرون ، ط١، مؤسسة الرسالة،
٢٠٠١ م، رقم الحديث ١٧٤٥.

(٥) الديوان: ١٠٠.

(٦) سورة القمر : آية ١،٢.

عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - " أن أهل مكة سألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يريهم آية ، فأراهم انشقاق القمر"^(١)، فقد طلب مشركو قريش من النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يشق لهم القمر إثباتاً لصدق نبوته ، فطلب النبي من ربه أن يعطيه سؤالهم، وكان ذلك مع موافقتهم على الدخول في الإسلام إن حدث ذلك ، فوقع ما كانوا يطلبون وكان ذلك في ليلة البدر، ولكن كفرهم وعنادهم جعلهم يحيدون عن طريق الهدى ، فاتهموا النبي - صلى الله عليه وسلم - بالسحر^(٢)، يقول^(٣) :

وَأِنْشَقَّ بَدْرُ اللَّيْلِ مَعْجَزَةً لَهُ وَبِهِ أَتَاهُ النَّصْرُ قَبْلَ مَغِيبِ

ومعجزة نبع الماء من بين يدي النبي - صلى الله عليه وسلم - وذلك يوم الحديبية حين عطش الناس ولم يجدوا ماءً ليشربوا ولا ليتوضؤوا ، فكان بين يدي النبي - صلى الله عليه وسلم - إناء به ماء فوضع يده الشريفة فيه ، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون^(٤)، فيقول^(٥):

نَطَقَ الْجَمَادُ بِكَفِّهِ وَبِهِ جَرَى مَاءٌ كَمَا يَنْصَبُ مِنْ أَنْبُوبِ

(١) محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي : صحيح البخاري ، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط١، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ١٤٢٢ هـ. رقم الحديث ٣٦٣٧ ، ٢٠٦/٤ .

(٢) للمزيد حول معجزة انشقاق القمر انظر: محمد الطيب النجار (المتوفى: ١٤١١ هـ) : القول المبين في سيرة سيد المرسلين ، دار الندوة الجديدة ، بيروت. ص ٤١٧ .

(٣) الديوان ١٠٦ .

(٤) ففي صحيح البخاري عن جابر رضي الله عنه، قال: عطش الناس يوم الحديبية، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين يديه ركة فتوضأ منها، ثم أقبل الناس نحوه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما لكم؟» قالوا يا رسول الله: ليس عندنا ماء نتوضأ به ولا نشرب، إلا ما في ركوتك، قال: «فوضع النبي صلى الله عليه وسلم يده في الركة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون». قال: فشرينا وتوضأنا فقلت لجابر: كم كنتم يومئذ؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة" (الحديث رقم : ٤١٥٢ ، ١٢٢/٥)

(٥) الديوان: ١٠٦ .

ومن معجزاته أنه رد عيناً في تبوك عيناً تجري فيه الماء بعد أن كانت لا تجود بالماء إلا القليل القليل^(١)، يقول^(٢) :

وَالْعَيْنُ أوردَهَا وَجَادَ بِهَا كَمَا قَد رَدَّهَا كَالشَّمْسِ بَعْدَ غُرُوبِ

ومعجزة رد الشمس بعد مغيبها، فمن معجزات سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - أنه طلب من الله أن يرد الشمس بعد غروبها ؛ لأن سيدنا عليّ - رضي الله عنه - لم يصلّ العصر لأن النبي وضع رأسه في حجر عليّ ، فلم يحركه حتى غربت الشمس^(٣)، يقول^(٤) :

وعين الشمس رُدَّتْ بَعْدَ حَجَبِ لَدَى الْحَسَنِينِ مِنْهُ بِالِدَعَاءِ

ومعجزة رد عين الصحابي الجليل قتادة بن النعمان^(٥) يوم أحد حيث أصيب في عينه فوقعت على وجنته ، فأصبحت أحسن عينيه^(٦)، وفي ذلك يقول^(٧) :

(١) قدم - صلى الله عليه وسلم - تبوك، فوجد عينها كشارك النعل، فغُرِفَ له منها قليلاً قليلاً، حتى اجتمع له شيء قليل، فغسل فيه يديه ووجهه، ثم أعاده فيها فجرت العين بماءٍ مُنهمِرٍ، وبقيت العين إلى الآن. (صحيح مسلم : ١٧٨٤/٤)

مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ): المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت.

(٢) الديوان ١٠٦.

(٣) فعن أسماء بنت عميس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى الظهر بالصهباء من أرض خيبر ثم أرسل علياً في حاجة ف جاء وقد صلى رسول الله العصر فوضع رأسه في حجر علي ولم يحركه حتى غربت الشمس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم إن عبدك علياً احتبس نفسه على نبيه فرد عليه شرقها، قالت أسماء: فطلعت الشمس حتى رفعت على الجبال فقام علي فتوضأ وصلى العصر ثم غابت الشمس. انظر البداية والنهاية ٨٠/٦.

(٤) الديوان: ١٢٣.

(٥) قَتَادَةَ بنِ النُّعْمَانِ ت (٢٣ هـ) : قَتَادَةَ بنِ النُّعْمَانِ بنِ زَيْدِ بنِ عَامِرِ الأَنْصَارِيِّ الظُّفَرِيِّ الأَوْسِيِّ: صح أبي بدري، من شجعانهم. كان من الرماة المشهورين. شهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت معه يوم الفتح راية بني ظفر. وتوفي بالمدينة وهو ابن ٦٥ سنة. له سبعة أحاديث. (الاعلام: ١٨٩/٥).

(٦) عن عاصم بن عمر بن قتادة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رمى يوم أحد عن قوسه حتى اندقت سيّتها، فأخذها قتادة بن النعمان فكانت عنده، وأصيبت يومئذ عين قتادة بن النعمان حتى وقعت على

وَعَيْنُ قُتَادَةَ سَالَتْ فَزُدَّتْ وَمُؤَدَّتْ مِنْ يَدَيْهِ بِالضِّيَاءِ

وعين علي - رضي الله عنه - يوم خيبر التي بفضل الله برئت على يد النبي - صلى الله عليه وسلم - ، عندما أراد أن يعطيه الراية ليكون الفتح على يديه ^(٢) ، يقول ^(٣) :

بِالْعَيْنِ قَدْ جَادَ أَفْضَالًا وَأُورِدَهَا وَرَدَّهَا بَعْدَ مَا أُرْخَتْ لَهَا سُجْفًا

وفي ذكر ما في حادثة الإسراء والمعراج من معجزات، فقد أشار ابن حجر بعض الأحداث التي وقعت مع النبي - صلى الله عليه وسلم - في ليلة الإسراء والمعراج ، من سفره بجسمه ، وخدمة جبريل - عليه السلام - له ، وإمامته بالأنبياء في المسجد الأقصى ، والمنزلة التي وصل إليها النبي - صلى الله عليه وسلم - عند صعوده إلى الجبار جلّ جلاله ، فدنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى ، وفي ذلك يقول ^(٤) :

وَبَلِيَّةِ الْإِسْرَاءِ سَارَ بِجِسْمِهِ وَالرُّوحُ جِبْرِيلُ الْمُطَهَّرُ يَخْدِمُ

صَلَّى بِأَمْلَاكِ السَّمَاءِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَلَهُ عَلَيْهِمْ رِفْعَةٌ وَتَقْدِيمُ

وَعَلَا إِلَيَّ أَنْ جَاَزَ أَقْصَى غَايَةٍ لِلْغَيْرِ لَا تُرْجَى وَلَا تَتَوَهَّمُ

وَلِقَابِ قَوْسَيْنِ إِعْتَلَى لَمَّا دَنَا أَوْ كَانَ أَدْنَى وَالْمَهَيْمُنُ أَعْلَمُ

وقد أثبت في غير موضع أن حادثة الإسراء والمعراج قد حدثت بالروح والجسد، يقول ^(٥) :

أَسْرَى بِجِسْمِكَ لِلْسَّمَاءِ فَبَشَّرْتَ أَمْلَاكَهَا وَحَبَّتْكَ بِالْتَّرْحِيبِ

وجنته، فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكانت أحسن عينيه وأحدهما " (دلائل النبوة للبيهقي ٢٥١/٣).

(١) الديوان: ١٢٤.

(٢) فلما كانت ليلة الدخول قال صلى الله عليه وسلم : لأعطين الراية غدا رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وكلهم يرجو أن يعطاها فقال : أين علي بن أبي طالب، فقالوا : يا رسول الله ، هو يشتكي عينيه. قال: فأرسلوا إليه، فأتى به، فبصق رسول الله صلى الله عليه وسلم في عينيه ودعا له فبرؤ ، كأن لم يكن به وجع، ... " (الرحيق المختوم: ٢٦١).

(٣) الديوان: ١١٢.

(٤) الديوان: ١٠١.

(٥) الديوان: ١٠٧.

فَعَلَوْتَ ثُمَّ دَنَوْتَ ثُمَّ بَلَغْتَ مَا لَا يَنْبَغِي لِسِوَاكَ مِنْ تَقْرِيْبٍ

ثم ينتقل للحديث عن الجهاد ، فيصف البطولات والمعارك التي خاضها النبي -صلى الله عليه وسلم- ، فيذكر ما اتصف به - صلى الله عليه وسلم - من الشجاعة والجرأة في قتال الكفر وأهله، فكان الليث في المعركة ، صادقاً في جميع أحواله في حربه وسلمه ، فقد كان الليث يعترف بقوة وبأس النبي - صلى الله عليه وسلم - ، كما كان الغيث يغترف من جوده وكرمه، فهو الذي صد يد الكفر عن سطوتها ، وأحدث تغييراً في أحداث الزمن ، فجاء طبيباً للناس بعد أن كانوا يرتعون في سقم الجاهلية ، وقد جمع ابن حجر في مدحه صفتي الكرم والشجاعة كما جاء في السنة النبوية عن أنس، قال: "كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أجمل الناس، ومن أجود الناس، ومن أشجع الناس"^(١) وفي ذلك يقول^(٢):

الليثُ والغيثُ في يومي ندى وريٍّ والصديقُ الفعلُ في يومي وغيٍّ ووفاءٍ
الواهبُ الهازمُ الآلافِ من كرمٍ وسطوةٍ للعدى والصحبِ قد عرفا
فالغيثُ من جوده في الجذبِ مغترفاً كالليثِ من بأسه في الحربِ معترفاً
من قامَ في كفِّ كفِّ الكفرِ حينَ سَطَّتْ حقاً وفي صرفِ صرفِ الدهرِ حينَ هفا
كانَ الأنامُ جميعاً قبلَ مبعثِهِ على شفا جُرفِ هارٍ فعادَ شفا

وفي إشارة إلى التأييد الإلهي له في حروبه فقد أيده ربه بالملائكة جنداً يقاتلون معه أعداء الله^(٣)، يقول^(٤):

المُصْطَفَى المَرْتَقَى الأَفْلاكِ معجزةً وكانَ في الحربِ بالأَملاكِ مرتدفاً

ففي غزوة بدر رد الله كيد أعدائه، ونكست رؤوسهم مما حباه الله من نصر لنبيه، وخزي لأعدائه يقول^(٥):

(١) دلائل النبوة للبيهقي : ٣١٣/١ .

(٢) الديوان : ١١٠ .

(٣) في ذلك إشارة لقول الله تعالى : ﴿ إِذْ نَسْتَعِينُونَ رَبَّنَا فَأَسْتَجِبَ لَكُمْ أَنِّي مُدْكُم بِأَفْ مِنْ الْمَلَائِكَةِ

مُرْدِفِينَ ﴿ الأنفال ٩

(٤) الديوان : ١١٠ .

(٥) الديوان : ١١١ .

رُدَّتْ أَعَادِيهِ فِي بَدْرِ مَنْكَسَةً بِخَجَلَةٍ أَوْرَثَتْهَا النَقْصَ وَالْكَفَا^(١)

وأما معركة خيبر فقد حصل فيها آيات ومعجزات ، منها أن سيدنا علي - رضي الله عنه- قد حمل باب حصن ناعم حتى دخل المسلمون الحصن وفتحوه ، ولم يقدر على إعادة الباب أربعون رجلاً^(٢)، يقول^(٣):

وَيَوْمَ خَيَّبَ آيَاتٌ مُبَيَّنَةً بِالْبَابِ مِنْهُ عَلِيٌّ قَدْ عَلَا شَرْفًا

أما يوم حنين فقد حدث ما حدث للمسلمين من انكشاف عن النبي - صلى الله عليه وسلم-، ولكن لم يدم طويلاً ، فاجتمع الناس حول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وقاتلوا أهل الكفر قتالاً شديداً، فتشتت شملهم، وتمزق جمعهم، وكان الفتح والنصر المبين، يقول^(٤):

وَفِي حَنِينٍ قَمِيصُ الشِّرْكَ لَيْسَ لَهُ لَمَّا تَمَزَّقَ رَافٍ مِنْ عِدَائِهِ زَفَا^(٥)

وَكَمْ خَوَارِقَ حَتَّى فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ سَمَرِهِ وَسُيُوفٍ بَرُّهَا خَطْفًا

وإنما وصف الشرك بالقميص لما يوصف به من الضعف والهوان، وسهولة التمزيق.

ويصف أخلاقه في التعامل مع أعداء الله بعدما منَّ الله - عز وجل - عليه بالتمكين، فكان العفو والمسامحة من شيمه - صلى الله عليه وسلم - وصفاته، وأعظم عفوٍ قام به النبي - صلى الله عليه وسلم-، يوم فتح مكة حيث قال : " يا معشر قريش ، ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: فإنني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: " { لَا تَتَّزِبَ عَلَيْكُمْ }^(٦)، اذهبوا فأنتم الطلقاء"^(٧)، وقد ذكر أثناء مدح النبي - صلى الله عليه وسلم- بالعفو

(١) (الكلف) نمش يَعْلُو الوُجْهَ كالسَّمْسَمِ وَحُمْرَةَ كدرة تَعْلُو الوُجْهَ والبُهْق. (المعجم الوسيط ٧٩٥/٢).

(٢) فعن جابر أَنَّ عَلِيًّا «حمل الباب يوم خيبر حتى سعد المسلمون ففتحوها وإنه جُرِبَ فلم يحملة إلا أربعون رجلاً. انظر: أبو بكر بن أبي شيبة (المتوفى: ٢٣٥هـ) : الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق: كمال يوسف الحوت مكتبة الرشد ، الرياض ، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ. رقم الحديث ٣٢١٣٩ : ٣٧٤/٦.

(٣) الديوان: ١١١.

(٤) الديوان: ١١١.

(٥) رَفَا النَّوْبَ ونحوه: رفاه، ضمَّ بعضه إلى بعض وأصلح ما به من تقوب وخروق. (انظر : أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: ١٤٢٤هـ) بمساعدة فريق عمل : معجم اللغة العربية المعاصرة ، عالم الكتب ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م. مادة (رفا) : ٩٢٢/٢.

(٦) سورة يوسف : آية ٩٢.

(٧) صفي الرحمن المباركفوري : الرحيق المختوم ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، الرياض ، ٢٠٠٣ ، ٢٨٧.

الأعظم الذي قام به في فتح مكة بعض أعماله، ومنها أن هدم الأصنام التي حول الكعبة^(١)، يقول^(٢):

وَبَفَتْحِ مَكَّةَ قَدِ عَفَا عَمَّنْ هَهَا فَأَتَوْهُ بِالْتَرغِيبِ وَالتَّرهِيْبِ
وَأَزَالَ بِالتَّوْحِيدِ مَا عَبَدُوهُ مِنْ صَنَمٍ بِرَأْيِ ثَابِتٍ وَصَالِبِ

فكان العفو يشمل من كان على كفره ولم يؤذِ النبيّ - صلى الله عليه وسلم - أما المجرمين الذين آذوه وهجوه ، فإن هذا العفو لا يشمل، فقد أهدر النبي دمائهم ، فكان ذلك شفاءً لغيظ المسلمين^(٣)، يقول^(٤):

وَسَقَى الطُّغَاةَ كُؤُوسَ حَتَفٍ عَجَلَتْ لِمُؤْمِنِينَ ذَهَابَ غَظِظُ قُلُوبِ
لَمْ يَحْتَمُوا مِنْ مِيمِ طَعْنَاتٍ وَلَا أَلْفَاتِ ضَرِبَاتِ بِلَامِ حُرُوبِ^(٥)

وفي ذلك يثني على أصحابه الذين نصره أول دعوته، فهم الجند الذين سيرهم الله لحماية دينه، فجاهدوا مع نبيه، وبذلوا الغالي والنفيس فداءً له، يقول^(٦):

صَلَّى عَلَيْكَ وَسَلَّمَ اللّهُ الَّذِي أَعْلَاكَ مَا لَبَّى الْحَجِيجُ وَأَحْرَمُوا
وَعَلَى قَرَابَتِكَ الْمَقَرَّرِ فَضْلُهُمْ وَعَلَى صَحَابَتِكَ الَّذِينَ هُمْ هُمْ
جَادُوا عَلَوْا ضَاءُوا حَمَوْا زَانُوا هَدَوْا فَهُمْ عَلَى السَّتِّ الْجِهَاتِ الْأَنْجُمُ
نَصَرُوا الرَّسُولَ وَجَاهَدُوا مَعَهُ وَفِي سُبُلِ الْهُدَى بَدَّلُوا النُّفُوسَ وَأَسْلَمُوا

(١) فقد روي أن النبي - صلى الله عليه وسلم - عندما دخل المسجد الحرام طاف بالبيت ، وفي يده قوس وحول البيت وعليه ثلاثمائة وستون صنماً ، فجعل يطعنها بالقوس، ويقول : " جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً " (الإسراء : ٨١) (انظر الرحيق المختوم : ٢٨٦).

(٢) الديوان: ١٠٦ .

(٣) فقد أهدر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم فتح مكة تسعة من أكابر المجرمين، وأمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة (انظر الرحيق المختوم: ٢٨٧)

(٤) الديوان: ١٠٦ .

(٥) الموم، بالضم: الشَّمْعُ، وأداةٌ للحائِكِ يَصْنَعُ فِيهَا الْغَزْلَ، وَيُنْسَجُ بِهِ، وأداةٌ لِلإِسْكَافِ، وَالبِرْسَامُ، وَأشدُّ الْجُدْرِيِّ، مِيمٌ، كَقَيْلٍ، فَهُوَ مَمومٌ. (القاموس المحيط : ١١٦١). واللامُ: الْهَوْلُ (القاموس المحيط : ١١٥٩) ،

(٦) الديوان: ١٠٣، ١٠٢ .

فهم الذين حازوا على الفوز في الدنيا والآخرة؛ لأنهم نالوا الشرف في السبق والتقديم،
يقول^(١):

وَجْوهُ أَصْحَابِهِ كَالدُّرِّ مُشْرِقَةٌ إِذَا رَأَيْتَ إِمْرَأً عَن هَدِيهِمْ صَدَفَا
نَالُوا السَّيَادَةَ فِي دُنْيَا وَآخِرَةٍ وَالسَّبْقَ وَالْفَضْلَ وَالتَّقْدِيمَ وَالشَّرَفَا

فهم سادة البشر، وأئمة الورى، البحار إذا جادوا، الأسود الضارية في المعارك إذا جاهدوا،
يبيعون أنفسهم رخيصة لرب السماء، وحق لهم بما علمهم النبي - صلى الله عليه وسلم - أن
يفخروا، يقول^(٢):

مِن مَعَشَرٍ كَانُوا الْأَثَمَةَ لِلْوَرَى فَاقُوا الْبَرِيَّةَ سَيِّدًا وَمَسُودَا
فَإِذَا سَخَّوْا كَانُوا الْبِحَارَ وَإِنْ سَطَّوَا كَانُوا الْأَسُودَ أَوْ الشُّرَاةَ الصَّيْدَا^(٣)

وخص في مدحه من صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - العشرة المبشرين
بالجنة^(٤)، وحذر من وقف في وجه طاعتهم وتأييدهم، يقول^(٥):

وَبِالرُّضَى خُصَّ مِنْهُمْ عَشْرَةٌ زُهْرٌ يَا وَيْحَ مَنْ فِي مَوَالَاةٍ لَهُمْ وَقَفَا
سَعْدٌ سَعِيدٌ زَبِيرٌ طَلْحَةٌ وَأَبُو عُبَيْدَةَ وَابْنُ عَوْفٍ قَبْلَهُ الْخَلْفَا

ومدح أنصار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من بفضلهم اشتد عضد الإسلام، فهم
الذين شهد لهم القرآن بأسمى مراتب المحبة^(١)، فقد آثروا إخوانهم الذين هجروا من ديارهم على

(١) الديوان: ١١٢.

(٢) الديوان: ١١٧.

(٣) (الشرى): يُقَالُ هُمَ أَسَدُ الشَّرَى أَشْدَاءُ شَجَعَانُ. أو قصد (الشاري) المُشْتَرِي وَالْبَائِعِ وَمَنْ يَبِيعُ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَالْجَمْعُ شِرَاةٌ (المعجم الوسيط : ٤٨١/١) (الأصيد) المزهو بِنَفْسِهِ وَكُلُّ ذِي حَوْلٍ وَطُولٍ مِنْ ذَوِي السُّلْطَانِ . ولم يقصد مذمة هنا إنما حق لهم أن يفخروا بأنفسهم لأنهم تربوا على يد النبي صلى الله عليه وسلم . (المعجم الوسيط : ٥٣٠/١).

(٤) عن عبد الرحمن بن عوف، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد في الجنة، وسعيد في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة" (سنن الترمذي حديث رقم ٣٧٤٧: ١٠١/٦).

(٥) الديوان: ١١٢.

أنفسهم، حتى ولو كان بهم من الحاجة ما كان، ووصف ما بهم من شجاعة ورباطة جأش في القتال، يقول^(٢):

وَالسَّابِقُونَ الْأُولَى قَدْ هَاجَرُوا مَعَهُ وَمَا بِفَضْلِ الْأَنْصَارِ النَّبِيِّ خَفَا
تَبَوُّوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ قَبْلُ وَقَد آوُوا وَقَفُوا نَصَرُوا فَازُوا شَرَفَا
الْمُؤْتِرُونَ وَإِنْ لَاحَتْ خِصَابَتُهُمْ عَلَى نَفْسِهِمُ الْعَافِينَ وَالضُّعْفَا
الضَّارِبُونَ وَجْهًا أَقْبَلَتْ غَضَبًا وَالتَّارِكُونَ ظُهُورًا أَدْبَرَتْ أَنْفَا

وممن نصر دين الله الذين نقلوه إلينا بحفظهم عن الصحابة الكرام من تابعين وتابعيهم، يقول^(٣):

وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ فَهُمْ نَقَلُوا لِمَا حَفَظُوهُ مِنْهُمْ عَنْهُمْ
وَأَتَى عَلَى آثَارِهِمْ أَتْبَاعُهُمْ فَتَفَقَّهُوا فِيهَا رَوُوا وَتَعَلَّمُوا

فهم الذين قاموا بتدوين الحديث الشريف، وأبدعوا في تقسيم أبوابه، وبقّر الشاعر أن أصح الكتب بعد كتاب الله كتابي البخاري ومسلم، اللذان أجهدا أنفسهما في تتبع الصحيح من كلام رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، يقول^(٤):

هُم دَوَّنُوا السُّنَنَ الْكِرَامَ فَنَوَّعُوا أَبْوَابَهَا لِلطَّالِبِينَ وَقَسَمُوا
وَأَصَحُّ كُتُبِهِمْ عَلَى الْمَشْهُورِ مَا جَمَعَ الْبُخَارِيُّ^(٥) قَالَ ذَاكَ الْمُعْظَمُ

(١) قال الله تعالى يمدح صنيع الأنصار مع المهاجرين: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتْلِحُونَ﴾ الحشر ٩

(٢) الديوان: ١١٢.

(٣) الديوان: ١٠٣.

(٤) الديوان: ١٠٣.

(٥) إمام الحفاظ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي مولاهم البخاري صاحب الصحيح والتصانيف مولده ١٩٤ هـ، وقال ابن خزيمة: " ما تحت أديم السماء أعلم بالحديث من البخاري"، توفي سنة ٢٥٦ هـ. (محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: تذكرة الحفاظ، دراسة وتحقيق: زكريا عميرات، ط١، دار الكتب العلمية بيروت، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م. ١٠٤/٢).

وَتَلَاهُ مُسْلِمٌ^(١) الَّذِي خَضَعَتْ لَهُ فِي الْحِفْظِ أَعْنَاقُ الرِّجَالِ وَسَلَّمُوا^(٢)
فَهَمَّا أَصْحُ الكُتُبِ فِيمَا يُجْتَلَى إِلَّا كِتَابَ اللَّهِ فَهُوَ مُقَدَّمٌ

وقد حذر المخالفين من المعاندة في القدرح في كتاب البخاري فهذا الكتاب لا يشك بصحته مسلم على وجه الأرض ، ولا الإمام مسلم أيضاً إن كان قصد ذلك، ونبه إلى قضية عدم التمييز بين الإمامين والتفضيل بينهما ، فكل منهم خدم دين الله في تحقيق كلام نبي الله ، وكل منهما اختص بشيء امتاز به فالبخاري تفوق في نقده وفقهه ، واعتنائه بتبويب كتابه وترجم لكل كتاب بالأبواب ، لما تصدى لاستنباط الأحكام، أما مسلم فامتاز بجمعه وبسرده ، فهو يجمع ما يتعلق بالباب في موضع واحد بأسانيده التي يرتضيها ، لكنه مع ذلك لم يكتب تراجم أبوابه^(٣)، يقول :

قُلْ لِلْمُخَالِفِ لَا تُعَانِدْ إِنَّهُ
رَسْمُ المَصْنَفِ بِالصَّحِيحِ فَكُلُّ ذِي
هَذَا يَفُوقُ بِنَقْدِهِ وَبِفَقْهِهِ
وَأَبُو الحَسَنِ بِجَمْعِهِ وَبِسَرْدِهِ
فَجَزَاهُمَا اللَّهُ الكَرِيمُ بِفَضْلِهِ
مَا شَكَ فِي فَضْلِ البُخَارِيِّ مُسْلِمٌ
عَقْلٌ غَدَا طَوْعاً لَمَّا هُوَ يَرْسُمُ
لَا سِيَّما التَّبْوِيبُ حِينَ يُتْرَجَمُ
فَالجَمْعُ بَيْنَهُمَا الطَّرِيقُ الأَقْوَمُ
أَجْراً بِنَاءِ عِلَاهُ لَا يَتَهَدَّمُ

وقد مدح كتاب سنن أبي داود^(٤) ، وقد ذكره في المرتبة بعد البخاري ومسلم ، لما أورد الأحاديث الصحيحة في الأحكام^(١) ، فكان يختار الأقوى والأصح ثم يورده في بابه ، يقول^(٢) :

(١) أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد بن كوشاذ القشيري النيسابوري صاحب الصحيح ، أحد الأئمة الحفاظ وأعلام المحدثين ، ولد سنة ٢٠٤ هـ ومات في رجب سنة ٢٦١ هـ . (ابن خلكان البرمكي الإربلي (المتوفى: ٦٨١ هـ) : وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس ، ط١ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٤ . ١٩٤/٥ .

(٢) اشتهر مسلم بشدة الحفظ ، قال بندار : "الحفاظ أربعة أبو زرعة ومحمد ابن اسماعيل والدارمي ومسلم" ابن حجر العسقلاني : تهذيب التهذيب ، ط١ ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م ، ١١٥/١٠ .

(٣) رمضان إسحاق الزيان : دراسات في الحديث الشريف وعلومه ، ط١ ، دار المنارة ، فلسطين ، غزة ، ٢٠١١ م ، ص ٢٩ .

(٤) أبو داؤد (٢٠٢ - ٢٧٥ هـ = ٨١٧ - ٨٨٩ م) سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي السجستاني ، أبو داود: إمام أهل الحديث في زمانه . أصله من سجستان . رحل رحلة كبيرة وتوفي بالبصرة .

مِثْلَ الْبُخَارِيِّ ثُمَّ مُسْلِمِ الَّذِي يَتْلُوهُ فِي الْعَلِيَا أَبُو دَاوُدَا
فَاقَ التَّصَانِيفَ الْكِبَارَ بِجَمْعِهِ اَل أَحْكَامَ فِيهَا يَبْذُلُ الْمَجْهُودَا
قَدْ كَانَ أَقْوَى مَا رَأَى فِي بَابِهِ يَأْتِي بِهِ وَيَحَرِّزُ النَّجْوِيَدَا
فَجَزَاهُ عَنَّا اللَّهُ أَفْضَلَ مَا جَزَى مَن فِي الدِّيَانَةِ أَبْطَلَ التَّرِيدَا

وقد مدح من كتَّبَ في سيرة النبي - صلى الله عليه وسلم - ومعجزاته الدالة على صدق نبوته ، ومنهم الإمام البيهقي^(٣) في كتابه دلائل النبوة الذي يقول عنه في مقدمته : " أردت، والمشية لله تعالى، أن أجمع بعض ما بلغنا من معجزات نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم -، ودلائل نبوته، ليكون عوناً لهم على إثبات رسالته"^(٤) ، يقول ابن حجر^(٥):

لَهُ مَعْجَزَاتٌ جَاوَزَ الرَّمْلَ عَدَّهَا لَخَدْمَتَهَا زَهَرَ السَّمَاءُ مَوَائِلُ
لَقَدْ جَمَعَ الْحَفَاطُ فِيهَا وَأَطْنَبُوا لِأَنَّ مَحَلَّ الْقَوْلِ لِلْقَوْلِ قَابِلُ

له (السنن)، وهو أحد الكتب الستة، جمع فيه ٤٨٠٠ حديث انتخبها من ٥٠٠٠ ، ٥٠٠٠ حديث.(الأعلام : ١٢٢/٣).

(١) قال الإمام النووي: إن "سنن أبي داود" لم تستوعب الصحيح من أحاديث الأحكام ولا معظمها، وكم في "صحيح البخاري" و"مسلم" من حديث حُكْمِي ليس في "سنن أبي داود".

على أن الإمامَ أبا داود إذا ما قُورِنَ بأصحاب السنن، كان أكثرهم إيراداً لها، كما يقول الإمام الخطابي: فأما السنن المحضة، فلم يقصد واحد منهم جمعها واستيفاءها، ولم يقدر على تخليصها واختصار مواضعها من أثناء تلك الأحاديث الطويلة، ومن أدلة سياقها على حسب ما اتفق لأبي داود. ولذلك حل هذا الكتاب عند أئمة الحديث وعلماء الأثر محلَّ العجب، فضُربت فيه أكبادُ الإبل، ودامت إليه الرِّجْل .

أبو داود السُّجِسْتَانِي (المتوفى: ٢٧٥هـ) : (مقدمة تحقيق كتاب سنن أبي داود ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط- محمَّد كامل قره بللي ، ط١، دار الرسالة العالمية، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م. ص ٤٥ .

(٢) الديوان : ١١٨ .

(٣) البِيهَقِيُّ : (٣٨٤ - ٤٥٨ هـ = ٩٩٤ - ١٠٦٦ م) هو أحمد بن الحسين بن علي، أبو بكر: من أئمة الحديث. ولد في خسروجرد (من قرى بيهق، بنيسابور) ونشأ في بيهق ورحل إلى بغداد ثم إلى الكوفة ومكة وغيرهما ، من مصنفاته منها (السنن الكبرى) عشر مجلدات، و (السنن الصغرى) و (المعارف) و (الأسماء والصفات) و (ودلائل النبوة). (خير الدين الزركلي دمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ) :الأعلام ، ط٥، دار العلم للملايين، ٢٠٠٢ م. ١/١١٥، ١١٦).

(٤) أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ) : دلائل النبوة ، تحقيق : د. عبد المعطي قلججي، ط١، دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م ، ١/٦٩ .

(٥) الديوان : ١٢٠

وَلَا مِثْلَ جَمْعِ الْبِيهَقِيِّ فَحُسْنُهُ تَقَوْمٌ لَهُ يَوْمَ الْفَخَارِ دَلَائِلُ
فَيَا رَبِّ بِالْإِحْسَانِ فِي الْخُلْدِ جَاوِزِهِ فَأَيُّكَ بِالْإِحْسَانِ كَافٍ وَكَافِلُ

جزاء من يخالف أمره : فليس لمن يخالف أمره إلا أن يقع في ضلال الفتنة في الدنيا،
والعذاب يوم القيامة ، مصداقاً لقوله تعالى : " ﴿... فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ
يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ^(١)، وفي ذلك يقول ^(٢):

فَلْيَحْذَرِ الْمَرْءُ الْمُخَالَفَ أَمْرَهُ مِنْ فِتْنَةٍ أَوْ مِنْ عَذَابٍ يَوْمُهُ

وفي خضم مدحه للنبي صلى الله عليه وسلم يمدح أخلاقه وصفاته، فرب السماء مدح
أخلاقه في كتابه قائلاً : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ^(٣)، وقد ذكر خلقه الحسن أقرب الناس إليه ،
فعن صفية بنت حيي- رضي الله عنها- قالت: "ما رأيت أحداً أحسن خلقاً من رسول الله-
صلى الله عليه وسلم"-^(٤). وكان خادمه أنس - رضي الله عنه - يقول: " كان النبي- صلى الله
عليه وسلم - أحسن الناس خلقاً "^(٥) ، فهو جامع الصفات الكريمة ، والمحامد الجليلة ،
موصوف بكرمه وكثرة احتمالته، وشدة حيائه، وعفوه، وجوده، وسخائه، وشجاعته، وتواضعه،
وصبره على المكروه، وإغضائه، وإعراضه عما كرهه، ورقفه بأمتة، وكظمه الغيظ، وحلمه، وكثرة
تبسمه، وسروره، ومزاحه، وبكائه، وحزنه، ومنطقه ، فهو واسع العطاء، الهادي ، شديد البأس
على أعداء الله، فقد حاول ابن حجر جمع بعض صفاته مادحاً إياه في بيتٍ قائلاً^(٦):

مبِيرُ الْعَدَا مُوَلِي النَّدَى قَامِعُ الرَّدَى مَبِينُ الْهَدَى مُرْدَى الْعَدَا وَاسِعُ الْجَدَا^(٧)

وأما زهده - صلى الله عليه وسلم - ففي سيرته العطرة ما نستدل على ترفع النبي - صلى
الله عليه وسلم - عن ملذات الدنيا، والصبر على ضنك الحياة، واختياره الدار الآخرة، وما أعد

(١) سورة النور : الآية ٦٣ .

(٢) الديوان : ١٠٠ .

(٣) سورة القلم : ٤ .

(٤) المعجم الأوسط حديث رقم ٦٥٨٠ : ٦/٣٤٤ .

(٥) صحيح البخاري حديث رقم ٦٢٠٣ : ٨/٤٥ .

(٦) الديوان : ١٢٦ .

(٧) مبير بمعنى مهلك ، (أباره) أهلكه (المعجم الوسيط ٧٦/١). (الجداء) العطاء والمطر العام وفي الحديث

(اللَّهُمَّ اسْقِنَا غَيْثًا غَدَقًا وَجَدًا طَبَقًا) (المعجم الوسيط ١١٢/١)

الله تعالى له فيها، على الدنيا وبذلك أمره ربه. قال الله - عز وجل - ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنِيَ إِلَىٰ مَآ مَسَعْنَا بِهِ أَنْزُلْنَا جَأْمَهُمْ مِنْ هَمَزَةٍ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَتُفْتَنَهُمْ فِيهِ وَمِنْزِقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾^(١)، وقد خُيِّرَ النبي - صلى الله عليه وسلم - بين أن يكون عبداً نبياً، وبين أن يكون ملكاً نبياً، فاختر أن يكون عبداً نبياً^(٢)، ففي زهده يقول ابن حجر^(٣) :

لَمْ يَقْتَطِفْ زَهْرَةَ الدُّنْيَا وَزَيْنَتَهَا بَلْ مَالَ عَنْهَا وَلَا حَتَّ رَوْضَةَ أَنْفَا^(٤)

أما جوده وكرمه فلا يكاد يشك في عطائه اثنان، فكان لا يرد سائلاً، ففي ذلك يقول^(٥):

هُوَ الْكَرِيمُ الَّذِي مَا رَدَّ سَائِلُهُ مَا شَكَ شَخْصَانٍ فِي هَذَا وَلَا اخْتَلَفَا

ويقول أيضاً واصفاً جوده وكرمه، بأنه لا يخشى الفقر من كثرة العطاء:

وَعَيْنَ الْمَالِ جَادَ بِهَا سَخَاءً فَلَيْسَ يَخَافُ فَقْرًا بِالْعَطَاءِ

أما حياؤه فقد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - من أشد الناس حياءً، فعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه -، يقول: "كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، أشد حياءً من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه"^(٦)، يقول^(٧):

كَرِيمٌ بِالْحَيَاةِ مِنْ رَاحَتِيهِ يَجُودُ وَفِي الْمُحْيَا بِالْحَيَاءِ

(١) سورة طه: ١٣١

(٢) عن ابن عباس يحدث أن الله عز وجل، أرسل إلى نبيه صلى الله عليه وسلم ملكاً من الملائكة، معه جبريل عليه السلام، فقال الملك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "إن الله يخيرك بين أن تكون عبداً نبياً، وبين أن تكون ملكاً نبياً. فالتفت نبي الله صلى الله عليه وسلم إلى جبريل، عليه السلام، كالمستشير له، فأشار جبريل، عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن تواضع. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بل أكون عبداً نبياً.. " (دلائل النبوة للبيهقي: ١/٣٣٤).

(٣) الديوان: ١١١.

(٤) رَوْضَةُ (أُنْفَى) بضم نين أي لم يرعها أحد كأنه (اسْتَوْفَى) رعيها. (محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ) : مختار الصحاح ، تحقيق: يوسف الشيخ محمد ، ط٥، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت ، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م. مادة أن ف ، ١/٢٣).

(٥) الديوان: ١١٢.

(٦) صحيح البخاري حديث رقم ٣٥٦٢ : ٤/١٩٠.

(٧) الديوان: ١٢٢.

أما سداد الرأي ورجاحة العقل، فقد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - من رجاحة عقله، ووزنة فكره، لا يبدي رأياً إلا في محله، ولا يحاور إلا بالمنطق، وقد أقرّ قومه برجاحة عقله فحكّموه في وضع الحجر الأسود، يقول ابن حجر^(١):

وعين الفكر منه أسد رأياً نعم وأشدُّ مرأى في المرء

وينتقل إلى غرضه من قصيدة المدح وهو التقرب من رسول -الله صلى الله عليه وسلم- ويحظى بشفاعته، ولكنه استهل طلبه وغرضه بذكر ما اختص به النبي - صلى الله عليه وسلم- من صفات بين الأنبياء، حيث قال - صلى الله عليه وسلم - : " أعطيتُ خمساً لم يعطهن أحدٌ قبلي: نصرتُ بالرعبِ مسيرة شهرٍ، وجُعِلت لي الأرضُ مسجداً وطهوراً، فأبما رجل من أمّتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلّت لي المغنم ولم تحل لأحدٍ قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبيُّ يُبعثُ إلى قومه خاصّةً وبعثت إلى النَّاسِ عامةً " ^(٢)، وفي ذلك يقول ابن حجر^(٣):

مِنْ بَعْضِ مَا أُوتِيَتْ خَمْسُ خَصَائِصٍ لَمْ يُعْطَهَا الرُّسُلُ الَّذِينَ تَقَدَّمُوا
جُعِلَتْ لَكَ الْأَرْضُ الْبَسِيطَةُ مَسْجِداً
وَأُصِرْتَ بِالرُّعْبِ الْمَرُوعِ قَلْبَ مَنْ
وَأُعِيدَتْ الْأَنْفَالُ حَلَالاً بَعْدَ أَنْ
وَبُعِثْتَ لِلثَّقَلَيْنِ تُرْشِدُهُمْ إِلَى الدِّ
وَخَصَّصْتَ فَضْلاً بِالشَّفَاعَةِ فِي عَدِ
لَمْ يُعْطَهَا الرُّسُلُ الَّذِينَ تَقَدَّمُوا
طُهِرَافاً فَصَلَّى النَّاسُ أَوْ فَتَيَّمُوا
عَادَاكَ مِنْ شَهْرٍ فَأَصْبَحَ يَهْرَمُ
كَانَتْ مُحَرَّمَةً فَطَابَ الْمَغْنَمُ
بَيْنَ الْقَوِيمِ وَسَيْفِ دِينِكَ قَيْمٍ
فَالْمُسْلِمُونَ بِفَضْلِهَا قَدْ عَمَّمُوا

ويذكر ما حباه الله من الشفاعة، فيطلب منه أن يشفع له، وأن يحميه من أهوال يوم القيامة، فهو الطبيب له من مرض الذنوب، فيقول^(٤):

يَحْبُوكُ رَبُّكَ مِنْ مَحَامِدِهِ الَّتِي
وَيَقُولُ قُلْ تَسْمَعُ وَسَلْ تُعْطِ الْمُنَى
تُعْطَى بِهَا مَا شِئْتَ مِنْ مَطْلُوبٍ
وَاشْفَعْ تَشْفَعُ فِي رَهِينِ ذُنُوبٍ

(١) الديوان: ١٢٤.

(٢) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ، المجلد الأول ص ٤٣٦، كتاب التيمم.

(٣) الديوان: ١٠٢.

(٤) الديوان: ١٠٧.

فَأَشْفَعْ لِمَادِحِكَ الَّذِي بِكَ يَتَّقِي أَهْوَالَ يَوْمِ الدِّينِ وَالتَّعْذِيبِ
فَلأَحْمَدَ بْنِ عَلِيٍّ الأَثَرِيَّ فِي مَاهْوَلِ مَدْحِكَ نَظْمُ كُلِّ غَرِيبِ
قَدْ صَحَّ أَنَّ ضَنَاهُ زَادَ وَذَنْبُهُ أَصْلُ السَّقَامِ وَأَنْتَ خَيْرُ طَبِيبِ

ومما اختص به سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم -، أنه كتب نبياً في ظهر سيدنا آدم -
عليه السلام - بينما كان آدم - عليه السلام - بين الروح والجسد^(١)، وفي ذلك يقول^(٢):

نَبِيٌّ خُصَّ بِالتَّقْدِيمِ قَدَمًا وَآدَمُ بَعْدُ فِي طِينٍ وَمَاءِ

ومن المقدمات التي قدم بها طلبه الشفاعة تصويره مشهد أهوال يوم القيامة حيث يبغى كل
إنسان الخلاص والسلامة لنفسه، إلا النبي - صلى الله عليه وسلم - بما حباه الله من مكانة
عظيمة جعلته يتصدر الأنبياء والأمم في طلب الشفاعة وهذا هو المقام المحمود^(٣)، ففي هذا
المشهد وهذه الأهوال يسعد المسلم الذي نصر نبي الله وآمن به، ولا يكون هذا حال من جحد
برسالته، يقول^(٤):

وَمَقَامِكَ المَحْمُودُ فِي يَوْمِ القَضَا حَيْثُ السَّعِيدُ رَجَاهُ نَفْسٌ تَسْلَمُ
يَحْبُوكَ رَبُّكَ مِنْ مَحَامِدِهِ الَّتِي تُعْطَى بِهَا مَا تَرْتَجِيهِ وَتَغْنَمُ
وَيَقُولُ قُلْ تُسْمَعُ وَسَلْ تُعْطَ المُنَى وَأَشْفَعُ تُشَفَّعُ فِي العِصَاةِ لِيرْحَمُوا
فَهُنَاكَ يَغْبُطُكَ الوَرَى وَيُسَاءُ مَنْ جَحَدَ النُّبُوَّةَ إِذْ يُسَرُّ المُسْلِمُ

ويصف حال الناس يوم القيامة وهم في الحشر حين تدنو الشمس من الرؤوس ، ويتمكن
العطش من الناس ، فيكونوا في أشد الحاجة للماء ، فيطمئن المؤمنون بما حازوا عليه من

(١) وفي رواية معاذ قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم متى كتبت نبياً؟ قال: كتبت وآدم بين الروح
والجسد. (دلائل النبوة للبيهقي : ١٢٩/٢)

(٢) الديوان: ١٢٢.

(٣) ويقال أن المقام المحمود الذي ذكره الله: أن النبي صلى الله عليه وسلم يكون يوم القيامة بين الجبار وبين
جبريل ، فيغبطه لمقامه ذلك أهل الجمع ، انظر : (فتح الباري شرح صحيح البخاري ٤٠٠/٨)

(٤) الديوان: ١٠٢.

الأمان، فيردون الحوض الشريف فيشربون من يده الشريفة شربة ماء لا يظمؤون بعدها^(١)،
يقول^(٢):

نال الأمان المؤمنون به إذا تُشَبَّتْ جَهَنَّمُ بِالطَّغَاةِ وَقَوْدَا
يَرُدُّونَ إِذْ ظَمُّوا عَلَى الْحَوْضِ الَّذِي يَرُوي الغَلِيلَ فِيأَلَهُ مَوْرِدَا
أما الخاتمة في قصيدة المدح النبوي عند ابن حجر، فقد ختمها بالصلاة على النبي -صلى
الله عليه وسلم-:

ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ فَإِنَّهُ يُبْدَأُ بِهِ الذِّكْرُ الْجَمِيلُ وَيَخْتَمُّ
يَا أَيُّهَا الرَّاجُونَ خَيْرَ شَفَاعَةٍ مِنْ أَحْمَدٍ صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا
ومثّل ما ورد في مدحته السادسة^(٣):

عَلَيْكَ سَلَامَ رَبِّ النَّاسِ يَتَلَوُ صَلَاةً فِي الصَّبَاحِ وَفِي الْمَسَاءِ
وقد يختم مدحته بالإضافة إلى الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم- الصلاة على
الآل والأصحاب كما في مدحته السابعة^(٤):

عَلَيْهِ صَلَاةُ اللَّهِ ثُمَّ سَلَامُهُ كَذَا الْآلِ وَالْأَصْحَابِ مِثْلِي وَمَفْرَدَا

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا وَإِنَّهُمْ يَنْبَاهُونَ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ وَارِدَةً، وَإِنِّي أَرْجُو أَنْ
أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ وَارِدَةً. (محمد بن عيسى بن سَورَة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى:
٢٧٩هـ) الجامع الكبير -سنن الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت،
١٩٩٨ م. حديث رقم ٢٤٤٣: ٢٠٨/٤)

وفي رواية البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: أنا فرطكم على الحوض، فمن ورده شرب منه،
ومن شرب منه لم يظمأ بعده أبدا، ليرد علي أقوام أعرفهم ويعرفوني، ثم يحال بيني وبينهم، قال: " إنهم
مني، فيقال: إنك لا تدري ما بدلوا بعدك، فأقول: سحقا سحقا لمن بدل بعدي " (صحيح البخاري حديث رقم
٧٠٥٠ ، ٤٦/٩)

(٢) الديوان: ١١٦.

(٣) الديوان: ١٢٤.

(٤) الديوان: ١٢٨.

الله أكبر

المدح من الفنون القديمة في الأدب العربي وخاصة الشعر، يكون القصد منه إبراز فضائل الممدوح، وإظهار صفاته وشمائله، فيشيد بكرمه وشجاعته وحكمته وزهده وتواضعه، وغيرها من الصفات الحميدة.

وأحسن المديح ما كان في الممدوح، واختص بالخصال الأربعة وهي: (العقل والشجاعة والعدل والعفة)، فمن كان مدحه بهذه الخصال كان مصيباً، فيجوز الإغراق في بعضها أو يقصر مدحه في بعضها، فالجود مثلاً الذي هو أحد أقسام العدل، فمن أغرق في التفتن لإظهار معانيه ليس مخطئاً، لإصابته في مدح الإنسان ببعض فضائله، وفي ذلك يقول قدامة ابن جعفر: " فنقول: إنه لما كانت فضائل الناس من حيث هم ناس، لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان، على ما عليه أهل الألباب من الاتفاق في ذلك، إنما هي العقل والشجاعة والعدل والعفة، كان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع الخصال مصيباً، والمدح بغيرها مخطئاً؛ ثم قد يجوز مع ذلك أن يقصد الشاعر للمدح منها بالبعض والإغراق فيه دون البعض، مثل أن يصف الشاعر إنساناً بالجود الذي هو أحد أقسام العدل وحده، فيغرق فيه ويفتن في معانيه، أو بالنجدة فقط، فيعمل فيها مثل ذلك أو بهما، ويقتصر عليهما دون غيرهما، فلا يسمى مخطئاً لإصابته في مدح الإنسان ببعض فضائله، لكن يسمى مقصراً عن استكمال جميع المدح"^(١).

احتل المدح مكانة مرموقة في المجتمع الجاهلي، وكان غرضه في وقتها لحاجة القبيلة لتخليد مآثرها، ورفع مكانتها بين القبائل، وكانوا يمدحون القبائل التي يجدون فيها كرم الجوار مشيدين بعزتها وإبائها وشجاعة أبنائها، ثم انتقل المدح في أواخر العصر الجاهلي وسيلة للكسب، فيمدحون الملوك وبنالون الجوائز والعطايا^(٢)، أما في العصر الإسلامي فقد ارتبط فقط بمدح النبي - صلى الله عليه وسلم -، ثم ازدهر هذا الغرض في العصر الأموي حيث احتل المنزلة الأولى بين أغراض الشعر، حيث قصد الشعراء خلفاءها بمدائحهم لنيل عطاياهم، فرفع الشعراء قدر الوضيع، وجعلوا الجبان شجاعاً، والبخيل كريماً، مقابل ضريبة يدفعها الممدوح للشاعر، وكذلك كان الحال في العصر العباسي، إلى أن جاء عصر المماليك، فأصبح المدح

(١) قدامة بن جعفر (المتوفى: ٣٣٧هـ): نقد الشعر، الطبعة: الأولى مطبعة الجوائب - قسطنطينية، ١٣٠٢ ص ٢٠.

(٢) انظر: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي)، الطبعة الثامنة، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص ٢١١.

يحمل معاني الصدق في الإشادة بصفات الممدوح ، إن كان حاكماً ، أو أميراً ، أو عالماً ، أو قاضياً ، يقول الدكتور نبيل أبو علي: " أضحى الشعر في العصر المملوكي تعبيراً صادقاً عن أحاسيس الشاعر تجاه ممدوحه"^(١).

ومثال هذا التعبير الصادق عن الأحاسيس ما تجده في ديوان ابن حجر العسقلاني فقد مدح كل من استحق المدح لأخلاقه أو لمآثره، أو لما أحدثه من نصرة للدين، فأبان حميد خصال ممدوحيه ، وأرخ لبعض الحوادث التي وقعت في ذلك العصر.

فقد قسم قصائد مدحه إلى قسمين كل قسم به سبع قصائد: أما القسم الأول فأطلق عليه الملوكيات وخصه بمدح الملوك ، فأفرد أربع قصائد بمدح الملك الأشرف اسماعيل بن العباس صاحب اليمن، وقصيدة خصّها بمدح ابنه الملك الناصر أحمد بن الأشرف اسماعيل، وقصيدة مدح بها الملك المنصور عبد العزيز صاحب تونس، وقصيدة يمدح بها الخليفة المستعين بالله أمير المؤمنين، أما القسم الثاني فقد خصه بمدح الأمراء والأصحاب، وسماه الأميريات والصاحبيات فمدح الأمير جمال الدين يوسف بن أحمد بن محمد الحريري، والأمير يلبغا السالمي، ووزير صاحب اليمن، وسعد الدين بن غراب ناظر الخواص، وبعض رؤسائه، و مجد الدين بن مكانس، والجناب العالي بن الدماميني.

والملاحظ أن لكل فئة من الفئتين اللتين خصهم ابن حجر في شعر المدح صفات مشتركة عامة بين أفراد كل فئة وصفات خاصة يتفرد بها كل واحد من هذه الفئات حسب المكانة الاجتماعية التي احتلها ، وحسب ما صنعه لخدمة الدين والعلم.

فقد سار ابن حجر في بناء قصائد مدحه على ما بناه السابقين، فبدأ بالتغزل بالمحبوب، بكل معانيه، وإن كان يقصد من ذلك في بعض القصائد التقرب إلى الممدوح، ثم الإشادة بأخلاق الممدوح ، ثم الدعاء له.

(١) الادب العربي بين عصرين المملوكي والعثماني : ٦١.

أولاً : المقدمة الغزلية

اشتملت المقدمة الغزلية على كل معاني الشوق والحنين للأحبة والأهل والأقارب الذين حالت بينه وبينهم الغربة والهجرة ، وصار يعاتبهم على جفاهم وبعدهم، ويطلب من أحبابه البعد عن سماع العذال ، كذلك إظهار الحزن الشديد على الفراق، ودلل على هذا الحزن بالسهر والاشتغال بالأشياء التي تخفف عنه ألمه، لكن في بعض مدائحه قد يقصد بتغزله بمدوحه، ولم تخلو مدائحه من الغزل المحسوس العفيف.

فترى الشوق والحنين للقاء الأحبة، وأحبابه الذين يشنق لهم هم أهله الذين ابتعد عنهم ووطنه الذي تغرب عنه، وقد استخدم المعنى القرآني لرسم حالته النفسية في بعده عن أحبابه وأهله، فالنار اشتعلت في جوانحه من شدة الشوق، والدمع قد حفر أخدوداً في خده من حرارة الشوق، ففي مدحته الأولى للملك الأشرف اسماعيل بن العباس، يقول^(١):

صَبُّ لِقْيَاكَ بِالأَشْوَاقِ مَعْمُودٌ فَقَيْدُ صَبْرٍ عَنِ الأَحْبَابِ مَفْقُودٌ
نَاءٍ عَنِ الأَهْلِ والأَوْطَانِ مُغْتَرِبٌ وَوَجِدٌ مَا لَهُ فِي الصَّبْرِ مَوْجُودٌ
مُتَيِّمٌ قَدْ بَكَى بَعْدَ الدُّمُوعِ دَمَاءٌ كَأَنَّ مَا هُوَ فِي عَيْنَيْهِ مَقْصُودٌ
النَّارُ ذَاتُ وَقُودٍ فِي جَوَانِحِهِ شَوْقاً وَفِي خَدِّهِ لِلدَّمْعِ أَخْدُودٌ^(٢)

وقد عبّر عن معاني الشوق لأهله وأبنائه بكل ما يعبر محب لمحبيه وكأنه يتغزل به، وأن بعده عنه يسبب له الألم والتوجع ، ففي مدح وزير صاحب اليمن يظهر معاني الشوق والحنين لأهله فهو لم ينس حبه لهم ، ويبين أثر بعده عنهم، فعيناه فارقت النوم من شوقه لهم، والنجم شاهد على سهره، يقول^(٣):

فَلَا وَحْيَاةِ القُرْبِ لَمْ أَنَسْ عَهْدَكُمْ وَلَوْ أَنَّنِي فِي البُعْدِ بِالرُوحِ أَفْجَعُ
سَلُّوا النِّجْمَ يَشْهَدُ أَنَّني بِنْتُ سَاهِدًا وَإِلَّا الدُّجَى هَلْ طَابَ لِي فِيهِ مَضْجَعُ

(١) الديوان ١٢٩.

(٢) متأثر بقوله تعالى: قَتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴿٤﴾ التَّامِرِ ذَاتِ الأُوقُودِ ﴿٥﴾ سورة البروج: آية ٥، ٤.

(٣) الديوان: ١٦٨.

وأوضح أنه يتشوق إلى أهله عندما تمنى أن يلتقي ابنتيه زين خاتون وفرحة، يقول^(١):

تُرى هَلْ أَلَقِي زَيْنَ خَاتُونَ بَعْدَمَا تَتَاءَتِ بِنَا السُّكْنَى وَعَادَ المُوَدَّعُ
وَهَلْ أَلْتَقِي تِلْكَ الطُّفَيْلَةَ فَرِحَةً قَرِيباً كَمَا فَارَقْتُهَا وَهِيَ تَرْضَعُ

حيث فارق ابنته فرحة وهي صغيرة السن، وهي في سن الرضاعة^(٢):

صَغِيرَةٌ سِنَّ نَابَهَا أَمْرٌ فُرَقْتِي فَمِنْ أَجْلِهَا سِنَّ النَّدَامَةِ يُقْرَعُ

ثم يتعذر إليهم بسبب فراقه لهم، موضحاً أن فراقه لهم ليس بسبب مله ، فهم بالنسبة إليه

كالماء للظمان ، إنما كان البعد عنهم بسبب ضيق الدنيا وكدر العيش^(٣):

فَوَاللَّهِ مَا فَارَقْتُهُمْ عَن مَلَالَةٍ وَهَلْ مَلَّ ظَامٍ مَّوْرِدًا فِيهِ يَشْرَعُ
وَلَكِنَّ ضَيْقَ العَيْشِ أَوْجَبَ عُزْبَتِي وَسَعِي لُهُمْ فِي الأَرْضِ كِي يَتَوَسَّعُوا
فيطلب من عاذليه أن يرفقوا بقلبه^(٤):

فِيَا عَاذِلِي رِفْقاً بِقَلْبِي فَإِنَّهُ عَلَى دُونِ مَنْ فَارَقْتُ يُبْكِي وَيُجْرَعُ

فألهم والمشيب والغربة اجتمعت على الشاعر فأثقلت كاهله، فيقول^(٥):

مَشِيبٌ وَهَمٌّ وَإِنْكَسَارٌ وَغَرِيبَةٌ وَمِنْ دُونِ ذَا صُمِّ الصَّفَا يَتَصَدَّعُ

أما الغزل على غير حقيقته فقد جعل محبوبه الذي يتغزل به هو ممدوحه، ومن المؤكدات

على أن ابن حجر قصد الممدوح في غزله ، أنه جعل في مدحته الرابعة بلدة المحبوب ميفات

أهل اليمن، وهو منزل الملك الأشرف، فيقول^(٦):

رعى الله ركباً يمموا أرضها التي أجادت يد الغيث الهتون صقالها
ولمّا ألموا في السرى بيلملم لأجسادهم إحرامها قد حلا^(١)

(١) الديوان: ١٦٩.

(٢) الديوان: ١٦٩.

(٣) الديوان: ١٦٩.

(٤) الديوان: ١٦٩.

(٥) الديوان: ١٦٩.

(٦) الديوان: ١٤٢.

أما العذال فما ذكر غزل إلا وهم حاضروه ، فقد كانوا السبب في إسرار حب الشاعر لمحبيه، فطلب من محبيه ألا يظن السكون في الحب كان بسبب خروجه من قلبه ، ففي مقدمة مدحته للملك الناصر أحمد بن الأشرف اسماعيل بن الأفضل بن العباس^(٢)، يقول^(٣):

وَلَا تَظَنُّوا سَكُونِي فِي الْغَرَامِ بِكُمْ يَقْضِي بَأْنَ فُؤَادِي مِنْكُمْ خَالِي
إِنِّي أُسِرُّ الْهَوَى مِنْ لَائِمِي لِيَرَى أَنِّي سَلَوْتُ فَلَا يُغْرَى بِتَعْذَالِي

ويستخدم أسلوب تأكيد المدح بما يشبه الذم ، لتأكيد أن محبيه خالٍ من العيوب إلا من العذال وهذا ليس ذنبه، فيقول^(٤):

لَا عَيْبَ فِيهِ غَيْرَ أَنْ رَقِيبِهِ لَا يَأْتَلِي فِي لَوْمِهِ إِنْ يَأْتِ لِي^(٥)

أما الغزل على حقيقته فتراه يذكر الصفات الحسية للمحوبة ، فقد وردت في مقدمة مدائحه الغزلية ، ولكنه غزل حسي عفيف، فتراه يصف القوام ، والوجنتين، والريق، فجنة المأوى تراها في وجنة المحبوب ، ورشفة من الريق تمثل الشفاء من كل أمراضه، فيقول^(٦):

وَأَهْيَفِ جَنَّةِ الْمَأْوَى بِوَجْنَتِهِ وَشَهْدَةُ الرِّيقِ فِيهَا بَرٌّ إِعْلَالِي
ويقول^(٧):

حَدَّثَ عَنِ الْجِسْمِ وَالْقَدِّ الْقَوِيمِ وَلَا تُسْنِدُهُ إِلَّا لِصَفْوَانَ بْنِ عَسَّالٍ

(١) الْمَلْمُ: بفتح أوله وثانيه، ويقال: يللم، والروايتان جيدتان صحيحتان مستعملتان: جبل من جبال تهامة على

ليلتين من مكة، وهو ميقات أهل اليمن. (معجم البلدان : ٢٤٦/١).

(٢) الْمَلِكُ النَّاصِرُ (٨٢٧ هـ - ١٤٢٤ م) أحمد بن إسماعيل بن العباس الرُّسُولِي، الملك الناصر ابن الأشرف

ابن الأفضل: من ملوك الدولة الرسولية في اليمن. تولاهما بعد وفاة أبيه سنة ٨٠٣ هـ ، وتلقب بالملك الظافر،

واستمر الناصر إلى أن توفي متأثراً من روعة أصابته بسقوط صاعقة على حصنه خارج مدينة زبيد (انظر

ترجمته في شذرات الذهب ٢٥٧/٩ ، والسلوك لمعرفة دول الملوك ١٠٥/٧، الأعلام ٩٧/١).

(٣) الديوان: ١٤٤.

(٤) الديوان : ١٣٥.

(٥) يَأْتَلِيْ هُوَ مَنْ أَلُوْتُ أَي قَصَّرْتُ. (لسان العرب مادة ألا : ٢٠١/١)، وهنا جناس بين (يَأْتَلِي) و(يَأْتِ لِي).

(٦) الديوان: ١٤٥.

(٧) الديوان: ١٤٥.

وفي قصيدة مدح الملك المنصور عبد العزيز صاحب توس من بلاد المغرب، فقال يصف قوام المحبوبة^(١):

مُهْفَهْفُ قَدْ مَتَرَفُ الْجِسْمِ أَغْيَدُ تَكَادَ عَقُودَ الْغَانِيَاتِ تَوُودُهُ

أما ريق محبويه فيقطر منها الخمر حلاوة وطلاوة ، ولكن لا تكتمل هذه الحلاوة إلا في فمه، ففي مدح الأمير يلبغا السالمي^(٢) ، يقول^(٣):

وريقته كالخمر لکنها حلت وحلت فكانت في فمي أسوغا

وقد يظهر أثر الصدّ على جسمه ، فيصاب بالسقم والضنك ، فيحذر الشاعر المحبوب أنه سيحاسبه يوم الحشر عمّا لاقاه من صدّه ، ففي مدح الأمير جمال الدين يوسف أحمد بن محمد البيري بن الحريري بن البصري^(٤) يقول^(٥):

ثُمَّ انْتَبَهْتُ وَعَادَ ثَوِي بُ الصَّدِّ يَكْسُو الْجِسْمَ سَقْمَا

قَدْ خُصَّ جِسْمِي بِالضَّنَا فَلَيْسَ أُنْ فِي الْحَشْرِ عَمَّا

من الحزن والبكاء تجد عيناه تصبّ الدم بعد بكائها^(٦):

(١) الديوان: ١٥٠.

(٢) يَلْبَغَا السَّالِمِي: (٨١١ هـ = ١٤٠٩ م) يلبغا أبو المعالي السالمي الظاهري الحنفي: من أشهر أمراء الجند في دولة الملك " الظاهر " برقوق، ثم ابنه " الناصر ". كان يذكر أنه سمرقندي سماه أبواه يوسف، وسبي فجلب إلى مصر مع تاجر اسمه " سالم " فنسب إليه، واشتره برقوق. ولما خلع برقوق (سنة ٧٩١) أخذ يلبغا مدينة صفد باسمه، فعرف له ذلك بعد عودته إلى الملك. ثم كان أحد أوصيائه، فقام بتحليف المماليك لولده الناصر. وسار في " الأستادارية " سيرة عفيفة، مع عسف وشدة، وأبطل مظالم كثيرة. وجمع أموالا لمحاربة تيمورلنك. فاتهم واعتقل (سنة ٨٠٣) ونفي إلى دمياط. كان ملازما للاشتغال بالعلم، وسماع الحديث مع السخاوي وغيره. انظر ترجمته في النجوم الزاهرة ١٣/١٧١، إنباء الغمر ٢/٤١٧، والضوء اللامع ١٠/٢٨٩).

(٣) الديوان: ١٦٦.

(٤) الأمير الوزير المشير ناظر الخواص وكاشف الكشاف جمال الدين يوسف بن أحمد الأستادار البجاسي البيري. قتل في ليلة الثلاثاء حادي عشر جمادى الآخرة بعدما حكم إقليمي مصر والشام ولم يفته من السلطة إلا الاسم (السلوك ٦/٢٥٢، ٢٢٥).

(٥) الديوان: ١٥٨.

(٦) الديوان: ١٨١.

قَف تَلَقَ جَفَنِي بَعْدَ الدَّمْعِ صَبًّا دَمًا ما في وقوفك عند الصَّبِّ من باسٍ
فالبعد عن المحبوب الذي أسر قلبه وبعد عن بصره يورث في القلب غصة وألماً وهماً ،
ومن مظاهر ذلك الحزن الشديد مشهد الدموع في عينيه، فأصبح من حزنه دمعاً حراً طلق، وقلبه
بأغلال الحب مصفود^(١):

أَسْرَتِ قَلْبِي وَقَدْ حُجِّبَتْ عَن بَصْرِي تِيهًا فَكَانَ لَهُ بِالقُرْبِ تَبْعِيدُ
وَبِنْتِ عَنِّي فَطَرَفِي فِي مَجَاهِدَةٍ مَعَ الدَّمْعِ وَقَلْبِي مِنْكَ مَجْهُودُ
وَقَدْ تَطَابَقَ حَالُ الصَّبِّ مِنْ حَزْنِ فَدَمْعُهُ مُطَلَّقٌ وَالْقَلْبُ مَصْفُودُ
السهر والاشتغال بعد النجوم ، فالطيف وخيال الأحبة إذا أراد زيارته وجد عينيه مسدودة
من كثرة السهر ، يقول^(٢):

وَالطَّيْفُ مَا زَارَ إِذْ بَابُ الزِّيَارَةِ مِنْ فَرِطِ السَّهَادِ بِفَتْحِ الجفنِ مَسْدُودُ
أَبِيْتُ أَرعى النُّجُومَ الزُّهْرَ أَحْسَبُهُ فِيهَا إِلَى أَنْ حَلَايَ فِيهِ تَسْهِيْدُ
فبعده عن محبوبه أصابه بالأرق فلم يستطع النوم، يقول^(٣):

اللَّهُ فِي صَبِّ جَفَاهُ مَنَامُهُ مِنْ بَعْدِ فَقْدِ حَبِيبِهِ وَالْمَنْزَلِ

(١) الديوان ١٣٠ .

(٢) الديوان ١٣٠ .

(٣) الديوان : ١٣٥ .

ثانياً: مدح صفات الممدوح وأخلاقه:

فقد أفرد أربع قصائد في مدح الملك الأشرف إسماعيل بن الأفضل العباس بن المجاهد صاحب اليمن^(١)، يبرز فيها أخلاقه الكريمة ، وإدارته الحكيمة للبلاد فمن سيرته أنه كان موضع مدح لما له من الخصال والمناقب، حيث مدحه الكثير من العلماء والشعراء لصفاته وكرمه وجوده يقول السخاوي: " فسار سيرة محمودة حمده الخاص والعام وكان جواداً لا نظير له في ذلك قريباً مهيباً حليماً صبوراً عطوفاً متحريراً عن سفك الدماء بغير حق شديد البأس حسن السياسة ممدحاً مدحه الأعيان كالفقيه علي بن محمد الناشري والشرف بن المقر^(٢).

فيقول في جوده وكرمه وسعة عطائه^(٣):

الأشرفِ الملكِ بنِ الأفضلِ بنِ علي يِ بنِ المؤيِّدِ حامِي المُلِكِ داوُدِ
المانِحُ الفُضْلَ صَفْواً فَيضُ راحِتهِ وَالغَيْثُ إنِ جادَ ثَعبانُ وَمَكْدودُ^(٤)

ويستخدم أسلوب تأكيد المدح بما يشبه الذم في تقرير صفة الكرم والجود ، فيقول^(٥):

ولا عَيْبَ في إِحسانِهِ غيرَ أَنَّهُ يُسَلِّسُ أَعناقَ الوَرى بِالقلائِدِ

(١) السخاوي (المتوفى: ٩٠٢هـ) : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت. ٢٩٩/٢.

(٢) إسماعيل بن العباس بن علي بن داود بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول . ولد في ذي الحجة سنة إحدى وستين وسبعمائة واستقر في المملكة بعد وفاة أبيه وقبل استكمالها ثماني عشرة سنة وذلك في شعبان سنة ثمان وسبعين و صنف العسجد المسبوك والجوهر المحبوك في أخبار الخلفاء والملوك والعقود واللؤلؤية في أخبار الدولة الرسولية إلى غير ذلك في النحو والفلك وغيرهما وذلك أنه كان يضع وضعا ويحد حدا ثم يأمر من يتمه على ذلك الوضع ويعرض عليه فما ارتضاه أثبتته وما شذ عن مقصوده حذفه وما وجد ناقصا أنتمه وابتنى بتعز مدرسة في سنة ثمانمائة وله مآثر حميدة. ذكره الموفق الخزرجي مطولا وقال شيخنا في أنبائه أنه أقام في المملكة خمسا وعشرين سنة . مات في ربيع الأول سنة ثلاث بمدينة تعز ودفن بمدرسته التي أنشأها بها ولم يكمل الخمسين، زاد غيره واستقر بعده ابنه أحمد ولقب بالناصر . (انظر ترجمته في الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ٢٩٩/٢).

(٣) الديوان: ١٣٠.

(٤) النَّعْبُ جمع الثَّعبان وهو مسيل الماء في الوادي (معجم الرائد ٢٥٩)، الكديد البطن الواسع من الأرض كالأودية (معجم الرائد ٦٦٢).

جيران مسعود : معجم الرائد ، الطبعة السابعة دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٩٢م.

(٥) الديوان: ١٣٩.

فمن كرمه أن الدنيا لو ضاقت على إنسان ، فلم يجد ملكاً يجيره ، فعليه أن يقصد الملك الأشرف ، لأن سحب الجود ظهرت يوم مولده ، فيطلب الشاعر من عزٍّ معينه أن يغترف من تلك الكف ، فناديه يطرد الهموم ، لأنه دائماً يلهج بالسعادة ، فيقول^(١):

إِنْ يَجْهَلُ الْقَاصِدُ الْمَعْرُوفَ مِنْ مَلِكٍ سِوَاهُ فَالْغُرْفُ مِنْ نِعْمَاهُ مَعْهُودُ
مَخَائِلُ الْجُودِ لَاحَتْ يَوْمَ مَوْلَدِهِ فِي وَجْهِهِ قَبْلَ مَا تَقْضَى الْمَوَالِيدُ
اسْتَسْقَى يَمْنَاهُ يَا مَنْ قَلَّ نَاصِرُهُ فَأَنْتَ مِنْ جُودِ تِلْكَ الْكَفِّ مَنْجُودُ
وَاطْرُدْ هُمُومَكَ إِنْ يُحْلِلِكَ نَادِيَهُ بِالسَّعْدِ فَالْعَكْسُ فِي نَادِيهِ مَطْرُودُ

ووصف أخلاقه في حماية من دخل في حماه ، فيمنع عنه الأذى حيث من وقع في عداه فإن الأرض تتلون باللون الوردى من دمائه، فيقول^(٢):

وَالْمَانِعُ السَّرْحَ حَيْثُ الْأَرْضُ مِنْ دَمٍ مِنْ عَادَاهُ فِي خَدِّهَا الْمَغْبَرِ تَوْرِيدُ^(٣)
وَالنَّقْعُ ثَارَ دُخَانَا وَالظُّبَا شَرَّرَ وَمَا سِوَى حَطْبِ الْأَجْسَامِ مَوْقُودُ

ويصف حال أعدائه ، فيقوم الناعي لينادي فيهم بالهلاك والموت لمجرد ملاقاته هذا الملك ، فالرعب انتزع رؤوسهم ، رغم أن سيفه ما زال في غمده ، فيقول^(٤):

وَقَامَ نَاعِي الْعِدَا فِي الْحَالِ مُبْتَدِرًا يَقُولُ فِي الْفَقْرِ يَا أَعْدَاءَهُ بِيدُوا^(٥)
سَلَّتْ رُؤُوسَهُمْ بِالرَّعْبِ مِنْ أَمَدٍ وَطَرَفٌ مُرْهَفِهِ فِي الْجَفْنِ مَعْمُودُ^(١)

(١) الديوان ١٣٢ .

(٢) الديوان: ١٣١ .

(٣) يقال : تورّد خدّ الفتاة: احمرّ، صار بلون الورد. (معجم اللغة العربية المعاصرة مادة ورد : ٢٤٢٣/٣) د. أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: ١٤٢٤هـ) بمساعدة فريق عمل: معجم اللغة العربية المعاصرة، الطبعة الأولى، عالم الكتب، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.
السَّحْبُ: المألّ السائم، وسومُ المال (القاموس المحيط ٢٢٣/١) ، والسائمة كل إبل أو ماشية تُرسل للرعي ولا تُغلف. (معجم اللغة العربية المعاصرة مادة سوم : ١١٤٠/٢) .

(٤) الديوان: ١٣١ .

(٥) القفر: مفارقة لا ماء فيها ولا نبات. (الصاحح مادة قفر : ٧٩٧/٢)

أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ) الصاحح تاج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الطبعة الرابعة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

فأخلاقه التقوى والجود والحلم ، والصدق في الوعود ، والفصل في الحكم ، والعدل
فيقول^(٢):

عَلَى التَّقَى وَالنَّدَى وَالْحَلْمِ مَقْتَصِرٌ فَأَعْجَبَ لِمَقْصُورِ شَيْءٍ وَهُوَ مَمْدُودٌ
وَفَصَلَ حُكْمٍ وَصِدْقٍ فِي الْوَعُودِ فَهَلْ عَلِمْتُمْ أَنَّ إِسْمَاعِيلَ دَاوُدُ
بِغَظْمِ عَزَّتِهِ الدُّنْيَا تَعَزُّ فَيَا زَيْدٌ مِنْهُ هُنَاكَ الْعَدْلُ وَالْجُودُ^(٣)

وفي مدحته الثانية للملك الأشرف ، مدح نسبه الزكي ، فيقول^(٤):

بَنَدَى الْعَلِيِّ الْقَدْرِ وَالنَّسَبِ الزَّكِيِّ الْمَعْتَلِ بْنِ الْمَعْتَلِ بْنِ الْمَعْتَلِ
وَفِي نَسَبِهِ يَقُولُ^(٥):

نَسَبٌ عَلَيْهِ ضِيَاءٌ سَاعِدٍ حَاجِبٌ عَيْنَ الْحَوَاسِدِ بِالسَّنَاءِ الْمَسْبِلِ
وَيَقُولُ أَيْضاً^(٦):

يَا ابْنَ الْمُلُوكِ السَّالِفِينَ أُولِي النَّهْيِ وَالْجُودِ وَالْعَزَمَاتِ وَالْقَدْرِ الْعَلِيِّ
وَفِي وَصْفِ كَرَمِهِ ، أَحَادِيثِ الْعَطَاءِ تُرْوَى عَنْهُ ، مَزِينَةٌ بِجُودِهِ وَكَرَمِهِ ، فِيَقُولُ^(٧):

يُرْوَى أَحَادِيثُ النَّوَالِ صَاحِبَةً بِمَدْبَجٍ مِنْ جُودِهِ وَمَسْلَسِلِ
يُرْوَى عَنِ الْعَبَّاسِ إِسْمَاعِيلُ مَا يُرْوَى كَمَا الْعَبَّاسُ يُرْوَى عَنِ عَلِيِّ

(١) الْجَفْنُ: غمد السيف (الصحاح مادة جفن : ٢٠٩٢/٥) ، رَهْفٌ أَرْهَفْتُ سَيْفِي ، أَي رَفَّقْتُهُ ، فَهُوَ مَرْهَفٌ
(الصحاح مادة رَهْف : ١٣٦٧/٤) ، (سَلَّ) الشَّيْءُ مِنْ الشَّيْءِ سَلًّا أَنْتَزَعَهُ وَأَخْرَجَهُ بِرَفْقٍ (المعجم الوسيط
مادة سل : ٤٤٥/١).

(٢) الديوان: ١٣٢.

(٣) تعز وزبيد مدينتان في اليمن، وإن كان استخدمها بمعنى العزة ، فقد ذكر في سياقها مدينة زبيد ، فكانت
تورية. (انظر معجم البلدان : ٣٤/٢ ، ٢١٥/١).

ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ) : معجم البلدان ، الطبعة الثانية، دار صادر،
بيروت، ، ١٩٩٥م.

(٤) الديوان: ١٣٥.

(٥) الديوان: ١٣٥.

(٦) الديوان: ١٣٦.

(٧) الديوان: ١٣٥.

جامع الصفات الحسنة من الحماسة والكرم والجلم ، والشجاعة ، فيقول^(١):

تنظّم أفراد المعاني صفاته
وجمّع المعالي نظّم تلك الفرائد
حماسة قيس في سماحة حاتم
وجلم ابن قيس في شجاعة خالد
ويجمع الأضداد في وصفه ، فبأسه يلين له الجماد مخفوف بحلم تزول منه الجبال
الراسيات، فيقول^(٢):

بأسٌ يلين له الجماد يحفُّه
جلمٌ تنزل له رواسي الأجبِل
فهو صاحب الكرامات ، فجوده من كثرتة سال ، وأعماله خوارق للعادات ، فهو على كل
الأحوال يسمى الولي^(٣):

ولهُ الكراماتُ الشَّهيرة إن تشأ
من معجز أو إن تشأ من مفضل
جودٌ همى وخوارقٌ لعوائد
عظمت ففي الحالين يدعى بالولي
وقد مدح صفة الكرم بالملك الناصر أحمد بن إسماعيل كما مدحها في أبيه ، ومدح بعده
عن كل ما يدنس الشرف، فيقول^(٤):

أوعى الملوك هدى أوهى الملوك عدى
أوفى الملوك ندى في الحال بالحال
مطهر الجيب من عيب ومن دنس
حاشى معاليه من إخلال إجلال
وقد مدح نسبه ، وأجداده وشبههم بالكواكب النيرة، والأزهار السبعة، فقد علت منزلتهم ،
وجادوا بالأفضال ، وكان طريقهم الهداية والنبراس للناس في حياتهم ، فقال^(٥):

فأحمد ملك إسماعيل عنه روى
عن المؤيد داود الهزير غلاً
عن أفضل عن علي خير الآل
عن المظفر سلطان الورى الخالي
من ذا يساويك في إسنادك العالي
يرويه عن عمر المنصور متصلاً

(١) الديوان: ١٣٩.

(٢) الديوان: ١٣٥.

(٣) الديوان: ١٣٥.

(٤) الديوان: ١٤٦.

(٥) الديوان: ١٤٧، ١٤٨.

مِثْلُ الْكَوَاكِبِ أَنْتُمْ سَبْعَةُ زُهْرٍ هَذَا إِتْفَاقٌ لِإِجْلَالٍ وَإِجْمَالٍ
زَيْتُمْ عَلَوْتُمْ حَمِيَّتُمْ جَدْتُمْ كَرَمًا أَضَاءْتُمْ وَهَدَيْتُمْ سُبُلَ ضَلَالٍ

وفي مدح صفات الملك عبد العزيز صاحب المغرب، فقد جمع بين المهابة والجود، كالغيث فيه الرعب من صوت رعد، وسنا برقه، وفيه أيضاً الخير الكثير فهو رمز الكرم والجود، فيقول^(١):

أَضَافَ إِلَى الْبَشْرِ الْمَهَابَةَ وَالنَّدَى كَغَيْثِ تَوَالِي بَرْقِهِ وَرَعْوَدُهُ

وقد تفنن في مدح صفة الجود والكرم في الملك عبد العزيز ، فكان يجود على الشاكر والجاد ، فمن يشكر يزد له من جوده ، ومن يجحد فيغمره بجود حتى يزول جوده، فيقول^(٢):

وَمَدَّ يَدَ الْجَدْوَى لِمُتْنٍ وَجَاحِدٍ سِوَاءَ لَدَيْهِ شَاكِرٍ وَجِجْوَدُهُ
فَأَمَّا الَّذِي يُتْنِي فَيَزِدَادُ شُكْرُهُ وَبِالشُّكْرِ حَقًّا يَسْتَزِيدُ مَزِيدُهُ
وَأَمَّا الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ الْجَحْدُ فَهُوَ لَا يَزَالُ إِلَى أَنْ يَضْمَحَلَّ جِجْوَدُهُ

فمن لم يكن لديه من الملوك هذا النوع من الجود، فقد حكم على جوده بالفناء، فيقول^(٣):

كَذَا فَلْيَكُنْ جُودُ الْمُلُوكِ وَمَنْ يَكُنْ لَهُ غَيْرُ هَذَا مَسْكَ مَاتَ جُودُهُ

أما مدحه لكرم الأمير جمال الدين يوسف أحمد بن محمد البيري، جاء متأثراً بآيات القرآن، فلا أحد يماثله في جوده وعطائه، فهو كالبحر الواسع العطاء، وفي مجال مقارنة جوده بجود غيره جعل جوده بالماء العذب، أما جود غيره بالماء الأجاج^(٤)، فيقول^(٥):

مَنْ ذَا يُسَاوِي جُودَهُ بِالْبَحْرِ إِنْ أَمْسَى خِضْمًا
لَا يَسْتَحْرِجُونَ حَلِيَّةً تَبَسُّوْهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَاحِرَ كَسْتَنْعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَكَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿فاطر ١٢﴾

(١) الديوان: ١٥٢.

(٢) الديوان: ١٥٢.

(٣) الديوان: ١٥٢.

(٤) إشارة لقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمَنْ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا

وَسَتَحْرِجُونَ حَلِيَّةً تَبَسُّوْهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَاحِرَ كَسْتَنْعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَكَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿فاطر ١٢﴾

(٥) الديوان: ١٦٢.

وفي مجال المقارنة أيضاً فقد فاق حاتم الطائي المشهور بجوده وكرمه، فيقول^(١):

يَا سَيِّدًا قَدْ فَاقَ حَا تَمَّ فِي فُنُونِ الْجُودِ حَتْمَا

وفي مدح صفة الفصاحة والذكاء قال مادحاً الأمير يلبغا السالمي^(٢):

وَلَمْ أَرْ يَوْمًا فِي الْفَصَاحَةِ وَالذِّكَا نَعَمَ وَالِي طُرُقِ الْعُلَا مِنْهُ أَبْلَغَا

وقال في مدح وزير صاحب اليمين يصف تواضعه، فعندما ينشده مدائحه ينثني وبدا البشر على وجهه^(٣):

رَأَيْسٌ إِذَا أَنْشَدْتَهُ مَدَحَكَ إِنْتَنَى وَفِي وَجْهِهِ نَوْرٌ مِنَ الْبِشْرِ يَلْمَعُ

تَوَاضَعَ لَمَّا لَاحَ يَمْشِي عَلَى الثَّرَى وَفَوْقَ الثَّرِيَّا كَمَ لَهُ ثَمَّ مَطْلَعُ

وله قلم متنوع الاستخدامات، فيه يعظم الأحبة ويرفعهم ، وفيه يقمع الأعداء^(٤):

لَهُ قَلَمٌ فِي مَدَّةٍ مِنْ مِدَادِهِ يَعِظُّمَ أَحْيَانًا وَلِلضَّادِّ يَقْمَعُ

يَفُوحُ وَيُجْنِي يُطْرِبُ الصَّحْبَ يَطْعَنُ الـ عَدَى فَهُوَ عَوْدٌ فَضْلُهُ مُتَنَوِّعُ

ويمدح قلم مجد الدين ابن الوزير ابن مكناس ، فهذا القلم متعدد الاستخدام ، فيه طعن للأعداء ، وفيه طرب للأحباب^(٥):

إِنْ مَاسَ فِي أَرْضِ قَرْطَاسٍ لَهُ قَلَمٌ أَزْرَى بِغُصْنٍ مِنَ الرُّوْضَاتِ مِيَّاسِ

يِرَاعَةُ تَطْعَنُ الْأَعْدَا وَتَطْرِبُنَا وَتُجْتَنِي فَهِيَ عَوْدٌ ذَاتُ أَجْنَاسِ

(١) الديوان: ١٦٣.

(٢) الديوان: ١٦٧.

(٣) الديوان: ١٧٠.

(٤) الديوان: ١٧٠.

(٥) الديوان: ١٨٢.

المظاهر السياسية والاجتماعية والثقافية في عصر ابن حجر من قصائد مدحه:

فبالبلاد بحكامها تنعم بالأمن والاستقرار، وهذا حال البلاد العربية في العصر المملوكي فوصف الأمان واستقرار الحال الذي كانت تعيشه رعية الملك الأشرف إسماعيل بن العباس في بلاد اليمن، فالبرق على ما فيه من قوة وشدة إلا أنه يرتعب من الملك الأشرف، والنجم أرقه الخوف، فلم يأته النوم، لكن الرعية في الأمان منعمة، تنام مرتاحة النفس، مطمئنة البال، فيقول^(١):

نام الرعايا وَقَلْبُ الْبَرْقِ يَخْفِقُ مِنْ رَعْبِ بِهِ وَيَطْرَفُ النِّجْمُ تَسْهِدُ
وَأَمْنَتُهُمْ مِنَ الْآفَاتِ طَلْعَةٌ مِنْ أَضْحَى وَطَالَعَهُ بِالنَّصْرِ مَسْعُودُ
فقد تنعم الكون بالأمان وذهاب الخوف بفضله وفضل أبنائه، ومن قبل آبائه^(٢):

قَدْ أَمِنَ الْكَوْنُ مِنَ خَوْفِ وَنَوْرِهِ أَبْنَاؤُهُ الْغُرَّ أَوْ آبَاؤُهُ الصَّيْدُ
فهو قد فاق كل الملوك في المنزلة، فلا يقابله الملك الأمجد بهرام، ولا كسرى وإفريد، فيقول^(٣):

وَقَدْ تَعَلَّى عَلَى بَهْرَامٍ^(٤) مَنْزِلَةَ وَفَاقَ مَلِكاً فَمَا كَسْرَى^(٥) وَإِفْرِيدُ
وبين استقرار البلاد في حكم ابنه الناصر أحمد بن اسماعيل وتعمها بالأمن والسلام، فأمر البلاد قد صلحت، والوالي يسهر على خدمة الناس، فيقول^(١):

(١) الديوان: ١٣١.

(٢) الديوان: ١٣٢.

(٣) الديوان: ١٣٢.

(٤) الملك الأمجد (٦٢٨ هـ = ١٢٣١ م) بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب: شاعر. من ملوك الدولة الأيوبية. كان صاحب بعلبك، تملكها بعد والده تسعا وأربعين سنة وأخرجه منها الملك الأشرف (سنة ٦٢٧) فسكن دمشق وقتله مملوك له. (الأعلام: ٧٦/٢).

(٥) كسرى يزدجرد بن شهريار بن برويز آخر الأكاسرة مطلقا. واسمه: يزدجرد بن شهريار بن برويز المجوسي، الفارسي. انهزم من جيش عمر، فاستولوا على العراق، وانهزم هو إلى مرو، وولت أيامه، ثم ثار عليه أمراء دولته، وقتلوه سنة ثلاثين. (سير أعلام النبلاء: ١٠٩/٢).

الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ): سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، الطبعة الثالثة، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.

أَضَحَتْ بِعَزَّتِهِ الدُّنْيَا تَعَزُّ وَمَا
زَيْدٌ إِلَّا بِهَا غَايَاتُ آمَالِي
أُمُورِهَا بِصِلَاحِ الدِّينِ قَدْ صَلَّحَتْ
نَامَ الرِّعَايَا مَتَى مَا اسْتَيْقِظَ الْوَالِي

أما في قصيدته السابعة في مدح أمير المؤمنين المستعين العباس بن محمد العباسي ، لما ولي السلطنة في سنة خمس وعشرة وثمانمائة، بعد الملك الناصر فرج بن برقوق، حيث لقب بالملك العادل^(٢)، فلم يبدأها بمقدمة غزلية ، بل بدأها بمدح الملك معبراً عن سعادته بانتصار المستعين على المماليك واسترداده لسلطانه قبل أن يطاح به من جديد ، فقد أرخ لعودة الملك لآل عم المصطفى محمد -صلى الله عليه وسلم- ، فيقول^(٣):

المُلْكُ أَصْبَحَ ثَابِتَ الْآسَاسِ
بِالْمُسْتَعِينِ الْعَادِلِ الْعَبَّاسِ
رَجَعْتَ مَكَانَةَ آلِ عَمِّ الْمُصْطَفَى
لِمَحَلِّهَا مِنْ بَعْدِ طَوْلِ تَنَاسِي
ثَانِي رَيْعِ الْآخِرِ الْمَيْمُونِ فِي
يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ حُفَّ بِالْأَعْرَاسِ
بِقُدُومِ مَهْدِيِّ الْأَنَامِ أَمِينِهِمْ
مَأْمُونِ عَيْبِ طَاهِرِ الْأَنْفَاسِ

وقد مدح أصله ومنبته الحسن الطاهر ، فهو من أصل سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- ، فيقول^(٤):

فَرَعٌ نَمَا مِنْ هَاشِمٍ فِي رَوْضَةٍ
زَاكِي الْمَنَابِتِ طَيِّبِ الْأَعْرَاسِ
مَنْ أَسْرَةَ أَسْرُوا الْخَطُوبَ وَطَهَّرُوا
مِمَّا بَغِيَرَهُمْ مِنَ الْأَدْنَاسِ

(١) الديوان: ١٤٧.

(٢) المُسْتَعِينُ بِاللَّهِ (٨٣٣ هـ = ١٤٣٠ م) العباس بن محمد بن أبي بكر بن سليمان، أبو الفضل، المستعين بالله: من خلفاء الدولة العباسية الثانية بمصر. وهو ابن المتوكل على الله بن المعتضد. بويع بالخلافة في القاهرة، بعد وفاة أبيه سنة ٨٠٨ هـ بعهد منه. وتوجه مع السلطان الناصر (فرج بن برقوق) سنة ٨١٤ هـ، إلى البلاد الشامية لإخضاع الأتابكي (شيخ) المحمودي، فقتل الناصر، وتولى المستعين السلطنة بعد أن اتفق مع أمراء الجراكسة على أن يكون شيخ (أتابكا للعساكر بمصر ومدبرا للمملكة) وعاد المستعين مع شيخ إلى مصر، فلم يلبث شيخ أن خلعه من السلطنة، (الضوء اللامع ١٩/٤).

(٣) الديوان: ١٥٤، ١٥٣.

(٤) الديوان: ١٥٤.

وقد لقب بالملك العادل ، ففي حكمه زال الظلم وعمّ العدل ، فيقول^(١):

وأزال ظُلماً عمّ كلَّ مُعمِّمٍ من سائر الأنواع والأجناسِ

ومن مظاهر الحياة العلمية والاجتماعية التي مدحها الشاعر هي ظاهرة الاهتمام بالعلم والتعليم ، وبناء الأمراء المدارس التي تحوى الجواهر والدرر بين ثنايا مكتباتها وجنابات علمائها ، فيمدح الأمير جمال الدين يوسف أحمد بن محمد البيري ، ويذكر مدرسته التي أنشأها برحبة العيد^(٢):

أَنْتِ الَّذِي لَوْلَاهُ مَا مَلَأْتِ بِيُوتِ اللَّهِ عِلْمًا
لِلَّهِ مَدْرَسَةٌ سَمَّتْ وَرَقَمْتَ فِيهَا الْحُسْنَ رَقْمًا
تَسْتَوْقِفُ الْأَبْصَارَ رُؤً يَتُّهَا فَتَشْكُرُ مِنْكَ عَزْمًا
عَزَمَ امْرِيٌّ مَا عَدَّ فِع لَ الْأَجْرِ وَالْخَيْرَاتِ غُرْمًا

فقد شهد العالم أنه لا يساويها علماً ومنفعةً في بلاد العرب والعجم، فيقول^(٣):

شَهِدَ الْأَنْبَاءُ بِأَنَّه مَا مِثْلُهَا غُرْبًا وَعُجْمًا

لأنها حسب وصفه فريدة بما تحويه من كنوز المعرفة، فقد جمعت في خزائنها فنون العلم ، والتحقيق والتدقيق^(٤):

فَهِيَ الْفَرِيدَةُ فِي الْجَوَا هِرٍ لَا تَذُوقُ الدَّهْرَ يَتِمَّا
جَمَعَتْ فَنُونَ الْعِلْمِ وَالتَّ تحْقِيقِ وَالتَّ دَقِيقِ فَهَمَّا

(١) الديوان: ١٥٤ .

(٢) الديوان: ١٦٠ .

(٣) الديوان: ١٦٠ .

(٤) الديوان: ١٦١ .

ثالثاً / الغرض من المدح :

فقد تنوعت أغراض الشاعر من مدائحه الملوك والأمراء، فترى الطمع فيما عند الممدوح ظاهراً بارزاً، ولكن يتبين لك غير الذي تلفظ به، وأحياناً تجد ألفاظه ومعانيه لا تحمل إلا معنى واحد وهو التكسب، وأحياناً تستثيره أخلاق ممدوحه فيجد نفسه مقصراً إذا لم يثنِ على صفاته، وأحياناً تجد غرضه عتاب ممدوحه من البعد عنه وتجاهله.

أما المدح الذي ظاهره التكسب ، والطمع في جود وفي كرم الممدوح ، ففي مدح الملك الأشرف، يقول^(١):

يا من تطوّل جوداً ها بضائِعنا
إلى علاك قطعْتَ البحر في سفرٍ
عرضَ المدائح والتّقصير مَوجودُ
يُواصل القلب دأباً فيه تَنكِيدُ
وختم قصيدته طامعاً في جوده وإحسانه^(٢):

ولطفُ خيرك للعافي الغريب له
طوّق بحلي الندى غنقي يَكُن لك من
في الأرض سَيِّرٌ وفي الآفاق تَخليدُ
نظمي وسَجعي على الأوراقِ تغريدُ
وَدُم مَلِكاً على الجدّ ترتع في
ربيع عدلك شاةُ القوم والسَّيدُ
ولكن في مدحته الأولى يبين أن مدحه للملك الأشرف مدحاً صادقاً^(٣):

نظرت نحوي بعين العطف من كرم
فأسمع مديحاً له في الصدق توكيدُ
وفي مدحته الثانية يبين أن الغرض من مدحه للملك الأشرف؛ إنما ليكون بفضل مدحه وذكره ذا أهمية، فمن أراد أن يكون له شأن في الدنيا فعليه بمدح الملك الأشرف، وكذلك أن تكون مدائحه للملك الأشرف موقف يغيظ الأعداء ، فيقول^(٤):

وَنظمتُ في مَدحي لملكك معجماً
لأكونَ في دُنياي لست بِمُهمل

(١) الديوان: ١٣٣.

(٢) الديوان: ١٣٤.

(٣) الديوان: ١٣٣.

(٤) الديوان: ١٣٣.

وَرَجَائِي تَشْرِيْفِي بِمَرْسُومِ بِهِ غَضَبُ الْعَدُوِّ إِذَا بَدَا وَرَضَى الْوَلِي
وفي مدحته الثالثة للملك الأشرف فإن أرسل مدحه للملك يشكره فيها على جميله، وطيب أخلاقه^(١):

إِلَيْكَ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ بَعَثَهَا تَضَمَّنُ شُكْرِي مِنْ طَرِيفٍ وَتَالِدِ
فَكَمْ مِنْ أَيْادٍ مِنْكَ هُنَّ مَرِافِقِي عَلَى الدَّهْرِ إِنْ يَسْطُو وَهَنْ سَوَاعِدِي
أما المدح الذي غرضه الطمع والتكسب فيظهر من مدحه للناصر أحمد بن اسماعيل، معللاً بأن الدهر قد جار عليه، وأمواله قد نهبت في حروب التتار، فيقول^(٢):

مَوْلَايَ هَلْ أَشْتَكِي مَا قَدْ سَمِعْتَ بِهِ أَمْ أَكْتَفِي بِالَّذِي قَدْ لَاحَ مِنْ حَالِي
قَدْ ضَعُضَعَ الدَّهْرُ حَالِي عِنْدَمَا نُهِبَتْ بِالشَّامِ أَيَّامَ تَيْمُورَ لَنِكَ أَمْوَالِي
وَبَعْدَهَا بَلَغَتْ مِنِّي الْحَوَادِثُ مِنْ يَدِ ابْنِ عَجَلَانَ مَا لَاقَاهُ أَمْثَالِي
ويقول^(٣):

وَقَدْ قَصِدْتُ بِأَنْ أَحْيَا بِظَلْمِكُمْ فَكَانَ مَا كَانَ مِنْ خَوْفٍ وَأَهْوَالِ
ويقول أن أمواله قد فقدت بسبب النهب والغرق ، فيتطلع إلى الممدوح وكله أمل بجوده وكرمه وسخائه، فيقول^(٤):

مَالٌ تَمَزَّقَ فِي نَهْبٍ وَفِي غَرَقٍ إِنْ فَاتَ مَالِي سَأَلْتَنِي مِنْكَ آمَالِي
وفي مدحه الأمير جمال الدين يوسف أحمد بن محمد البيهقي الحريري ، كان غرضه منها الطمع فيما عند الأمير من الجوائز، فيقول^(٥):

يَا أَيُّهَا الْمَوْلَى الْعَزِيْزُ زُبُضَاعَتِي الْمَرْجَاءُ قَسَمَا
أَرْسُومَ بِأَنْ يُوْفَى لَهَا كَيْلُ الْجَوَائِزِ مِنْكَ رَسَمَا

(١) الديوان: ١٤٠.

(٢) الديوان: ١٤٩.

(٣) الديوان: ١٤٩.

(٤) الديوان: ١٤٩.

(٥) الديوان: ١٦٤.

فيطلب منه ألا يتجاهل مدحته ظناً بعيبيها ، فإن المهدي كان يجيز مروان^(١) عن كل بيت بألف، ويغريه بأنه أعلى منه منزلة، ومادحه أحلى من مروان نظماً، فيقول^(٢):

لَا تَرْمِهََا مَتَعْرِضََاً لَعِيُوبِهََا بِالظَّنِّ رَجْمَا
مَرَوَانُ كَانَ يَجِيْزُهُ الْـ مَهْدِيٌّ فِي بَغْدَادَ قَدَمَا
عَنْ كُلِّ بَيْتٍ جَيِّدٍ أَلْفَاً فَيَصْرِفُ عَنْهُ هَمَّا
وَلَأَنْتَ أَعْلَى مِنْهُ وَالـ مَمْلُوكٌ أَحْلَى مِنْهُ نَظْمَا

أما غرضه من مدح الملك عبد العزيز ، فكان مدحه له لِمَا تَغْنَتْ بِهِ الدُّنْيَا مِنْ سَجَايَاهُ ، ولما جمع من الصفات والفضائل الكريمة، فهو أراد أن يرسل من يبلغ تحياته للملك نيابة عنه، وقد أكد فيها أنه صادق في مدحه، وقد أرسلها إليه من مصر، فيقول^(٣):

إِلَيْكَ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ بَعَثْتُ مَا يَنْوِبُ مَنْابِي فِي النَّحَايَا وَرُودُهُ
قَصِيداً يَرُوقُ السَّمْعَ إِنْ يَصْنَعُ مُنْصِتٌ لَيْهَا يَقُولُ قَدْ قَالَ صِدْقاً قَصِيدُهُ
وَأَرْسَلْتُهَا مِنْ مِصْرَ مِنْ بَعْدِ أَنْ سَعَتْ وَطَافَتْ بِبَيْتٍ قَدْ تَعَاظَمَ عَيْدُهُ

وفي قصيدة مدحه للأمير يلبغا السالمي فيشكره على الهدية التي أهداها له، فهو يشعر أنه شخص قلَّ أمثاله لأنه فاق الناس في العشق وكذلك نبغ شعره، وحاز على هدية من الامير يلبغا، فيقول^(٤):

وَمِثْلِي قَلِيلٌ فِي الْأَنْبَامِ لِأَنَّيَ فَتَى فَقْتُ فِي عِشْقِي وَشِعْرِي نُبْغَا
ظَفَرْتُ بِأَكْيَاسٍ فَمِنْ بَيْنِ فَتِيَّةٍ صَحْبَتْ وَمِنْ مَالِ حَبَانِيهِ يَلْبُغَا

فيرسل إليه قصيدته يبغى بها القبول، فيقول^(١):

(١) هو مروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة، أبو الهيثام. وقيل: أبو السمط ، كان مروان بن سليمان شاعراً مجيداً، ومدح المهدي والرشيدي ومعن بن زائدة. وللمزيد عن قصته مع المهدي في إكرامه بكل بيت ألفاً انظر: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا ، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م ، ٦٩،٧٠/٩.

(٢) الديوان: ١٦٤.

(٣) الديوان: ١٥٣.

(٤) الديوان: ١٦٦.

أَمْوَلَايَ سَيْفَ الدِّينِ هَاكَ قَصِيدَةً لَهَا مِنْ قَبُولِ الْعُذْرِ أَشْرَفُ مُبْتَغَى
خَرِيدَةً خِدرٍ بِالْمَعَانِي تَزَيَّنْتُ فَرِيدَةً فِكْرٍ لَا تُحِبُّ تَمَلُّغَا

وفي مدحته لوزير صاحب اليمن ، أشهر له العتاب على تجاهله له واهتمامه بغيره^(٢):

وَفَضَّلُ فَلَانَ الدِّينِ عَمَّ وَوَجْهَهُ لِعَيْرِي يُبْدي الإِبْتِسَامَ وَيَسْطَعُ
أَحَاشِيهِ أَنْ يَرْضَى بِشَكْوَايَ عَامِداً وَأَنِّي بِمَا قَدْ دَلَّ أَوْ قَلَّ أَقْنَعُ
إِلَى ابْنِ عَلِيٍّ قَدْ رَفَعْتُ قَضِيَّتِي وَأَرْجُو بِهِذَا أَنْ قَدْرِي يُرْفَعُ

فقد تمنَّنت شكواه في ضيق الدنيا عليه مع سعتها^(٣):

أَيَا ابْنَ الْكِرَامِ إِسْمَعَ شَكَايَةَ مَفْرِدٍ غَرِيبٍ لَهُ فِي بَحْرِ جُودِكَ مَشْرَعُ
لَقَدْ ضَاقَتِ الدُّنْيَا عَلَيَّ بِرَحْبِهَا وَإِنْ ضَاقَتِ الدُّنْيَا فَعَفْوِكَ أَوْسَعُ
فيطلب منه الود^(٤):

وَلِي فِيكَ وَدٌّ مَا يُزْعِزُهُ الْجَفَا وَهَلْ زَعَزَعْتَ صُمَّ الرِّوَاسِي زَعْرَعُ
ويطلب عنه عدم السماع لقول الوشاة الذين يفسدون العلاقات بينهم^(٥):

لَسِنٍ كُنْتَ قَدْ بُلَّغْتَ عَنِّي مَقَالَةً لِمُبْلِغِكَ الْوَأَشِي أَغْشُ وَأَخْدَعُ
وما شجعهم على إفساد العلاقات ما رأوه يسرع إلى كل ما يسيء لابن حجر فيقول^(٦):

رَأُوكَ إِلى مَا سَاعَنِي مُتَسْرِعاً فَقَالُوا وَزَادُوا مَا أَرَادُوا وَأَسْرَعُوا
فيعاتبه على إهمال الود والمحبة، فو أراد الود ما سمع لمقاتلتهم^(٧):

وَلَوْ كُنْتَ تَرَعَى الْوُدَّ مَا مِلْتَ نَحْوَهُمْ بِسَمْعِ رَعَاكَ اللَّهُ دَهْرًا وَلَا رُعُوا

(١) الديوان: ١٦٧.

(٢) الديوان: ١٦٩.

(٣) الديوان: ١٧١.

(٤) الديوان: ١٧١.

(٥) الديوان: ١٧١.

(٦) الديوان: ١٧١.

(٧) الديوان: ١٧١.

ثم يبين له ما كان يكُنه من الحب ، فالعاقل لا يعاديه^(١):

وَكَيْفَ يُعَادِي آلَ بَيْتِكَ عَاقِلٌ وَآلٌ عَلَيَّ لِلْمُوَالَاةِ مَوْضِعُ

وفي نهاية مدحته يوضح ابن حجر أن مدحه له جاء بسبب صفاته التي شجعتة على ذلك^(٢):

وَمَا كُلُّ مَنْ قَالَ الْقَرِيضَ أَجَادَ فِي الدِّ مَقَالٍ وَلَا كُلُّ الْمَجِيدِينَ مُبْدِعُ

فَهَاكَ قَصِيداً شَجَّعْتَنِي صِفَاتُكُمْ عَلَيْهَا فَفَاقَتْ كُلَّ مَا قَالَ أَشْجَعُ

أما غرضه في إظهار حبه لممدوحه ، فتجده في مدح سعد الدين بن غراب ناظر الخواص الشريفة^(٣):

وَإِذَا أَحَبَّكَ مَنْ يَرَاكَ تَسْوَدُّهُ كَانَ الدُّعَا وَالْمَدْحُ غَايَةً جَهْدِهِ

ويكون غرضه من مدحه هو تهنئة الناس بزوال الجور والظلم ، عندما تولى ممدوحه - جلال الدين الشافعي - القضاء^(٤):

هِنَاءٌ فَعَقِلَ الْحُكْمَ زَالَ خِبَالُهُ وَنَعْمٌ مِنْ بَعْدِ الشَّقَاوَةِ بِأَلِهِ

وَوَلَى زَمَانَ الْجَوْرِ لَا عَادَ وَانْقَضَى وَقَدْ أَخْمَدَتْ نِيرَانُهُ وَاشْتَعَالُهُ

وَإِنَّ الْإِمَامَ الشَّافِعِيَّ جَاءَ مَالِكاً لِمَنْصِبِهِ الْعَالِي فَتَمَّ جَمَالُهُ

أما غرضه من مدح مجد الدين ابن الوزير ابن مكناس فهو اظهار فضل مصنفاته ، فقد طالعها ابن حجر وبان له فيها المحاسن ، فعبق المسك يفوح من طيات كتبه ، ويدعو له بأن يكون رأساً للأدباء^(٥):

طَالَعْتُ مَجْمُوعَكَ الْمُبْدِي فَضَائِلُهُ كَأَنَّهُ فِي الْمَعَالِي ضَوْءٌ مَقْبَا

فِي طَيْهِ نَشْرُ طَيْبٍ لَمْ يَزَلْ عَبْقاً مِنْ مِسْكِ نَقْسٍ وَمِنْ كَافُورٍ أَطْرَاسِ

(١) الديوان: ١٧١.

(٢) الديوان: ١٧١.

(٣) الديوان: ١٧٦.

(٤) الديوان: ١٧٦.

(٥) الديوان: ١٨٤، ١٨٣.

لَا زِلْتَ لِلأَدْبَا رَأْسًا وَأَصْلُكَ قَدْ رَسَا فَأَكْرِمِ عَلَيِ الْحَالِيْنَ بِالرَّاسِ
أما غرضه من مدح ابن الدماميني^(١) فهو تقييد علوم الممدوح، فهو الذي ملأ الدنيا بعلمه،
يقول^(٢):

وَعُلُومُهُ كَالشَّمْسِ لِي —————
وَكَلَامُهُ جِلْوٌ فَيَا
وَكِتَابَتُهُ وَبِرَاعَةٌ
مَلَأَ الْمَسَامِعَ وَالْمَجَا
مَنْ قَدْ تَنَزَّهَ عَنِ زَوَالِ
لِلَّهِ مِنْ سِحْرِ حَالِ
تَسْمُو وَتَعْلُو عَنِ مِثَالِ
مِعَ فِي جَدِي أَوْ فِي جِدَالِ

رابعاً / خاتمة قصيدة المدح:

غلب على ابن حجر في ختم قصائد مدح بالدعاء للممدوح بعلو شأنه ، وسمو قدره ،
وتكمين ملكه ، وفي بعض الاحيان كان يختتمها بعد دعائه لممدوحه بالصلاة على الحبيب
المصطفى - صلى الله عليه وسلم - .

فخاتمة قصائد مدحه في الملك الأشرف اسماعيل بن عباس ، استخدم أسلوب الدعاء له في
تكمين ملكه، ففي مدحته الاولى يقول^(٣):

وَدَمٌ مَلِكاً عَلَيِ الْجَدِّ تَرْتَعُ فِي رِيْبِ عَدْلِكَ شَاةُ الْقَوْمِ وَالسَّيْدِ
وفي مدحته الثانية يدعو للملك الأشرف أن يسمو في أخلاقه وصفاته بأعلى المراتب،
فيقول^(٤):

وَتَرَقَّ أَعْظَمُ غَايَةً لَا تَنْتَهِي وَتَنَاولَ الزُّهْرَ الْعَلِيَّةَ مِنْ عَلِي

(١) هو أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عمر بن أبي بكر بن محمد بن سليمان بن جعفر بن يحيى بن حسين
بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يوسف الشهاب بن البدر المخزومي السكندري المالكي ويعرف بابن
الدماميني. ولد في سنة تسعين وسبعمئة بالاسكندرية ونشأ بها. (الضوء اللامع، ١٠٥/٢).

(٢) الديوان: ١٨٦.

(٣) الديوان: ١٣٤.

(٤) الديوان: ١٣٧.

ويقول في مدحته الثالثة^(١):

فَدَمَ مَلِكًا لِلدِّينِ خَيْرَ مَمَّهَدٍ بِحِلْمٍ لِمَوْلَى أَوْ سَطًا لِمَعَانِدِ

وفي مدحته الرابعة يدعو له بأن يجعل الله أيامه طيبة وجميلة؛ لأن البسمة والفرح سمة لهذه الأيام ، ويختمها بالصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - ويقول^(٢):

سَقَى اللّٰهَ أَيَّامَ ابْنِ عَبَّاسٍ إِنَّهَا بَوَاسِمٌ بِالأَفْرَاحِ يَاوِي الغنى لها
وَيَا رَبَّ جَدِّدْ جَدَّهَا وَسَعُودَهَا وَصِلْ مَعَ أسبابِ المَعَالِي حبالها
وَصَلِّ عَلَى خَيْرِ الأَنَامِ مُحَمَّدَ صَلَاةَ مَدَى الدُّنْيَا تَدِيمَ اتِّصَالِهَا

وخاتمة مدحته للملك الناصر الدعاء له بدوام العز والتقدم والسعادة ، بعد أن طلب منه أن ينصره بجاهه على الأعداء بالأقوال والأفعال، يقول^(٣):

فَعَدَّ بِجَاهِكَ تَحْمِينِي وَتَنْصِرَنِي عَلَى عِدَائِي بِأَقْوَالٍ وَأَفْعَالِ
وَدُمَّ كَمَا شِئْتَ فِيمَا شِئْتَ مُقْتَبِلًا فِي عِزَّةٍ وَسَعَادَاتٍ وَإِقْبَالِ

أما خاتمة مدحته في الملك عبد العزيز ، فقد ختمها بالدعاء للملك بالنصر في كل واقعة، ودعا له بدوام ملكه وعزه، يقول^(٤):

دَعَوْتُ لَكُمْ بِالنَّصْرِ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ كَمَ مَشْعَرٍ قَدْ طَابَ فِيكُمْ شَهُودُهُ
فَعِزِّكَ لَا نَزْلٌ يُلَاقِيهِ دَائِمًا وَمَلِكِكَ فِي الدُّنْيَا يَدُومُ خُلُودُهُ

وقد تكون خاتمة قصيدته دعاء للممدوح بأن يبقى على عطائه ، أن يبقى سيفه سوطاً مسلطاً على رقاب أعدائه ، وفي المقابل يبقى للأحبة معطاءً كريماً، فيقول في مدح الأمير يلبيغا السالمي^(٥):

وَدُمَّ هَادِيًا إِذَا لِحَابِكَ أَنْعَمًا وَإِنَّمَا إِلَى مَعْنَى النِّوَالِ مُبَلِّغَا

(١) الديوان: ١٣٧.

(٢) الديوان: ١٤٤.

(٣) الديوان: ١٥٠.

(٤) الديوان: ١٥٣.

(٥) الديوان: ١٦٧.

وَلَا زِلْتَ فِي الْأَعْدَاءِ سَيْفًا مُجْرَدًا وَلَا زِلْتَ ظِلًّا لِلْأَحِبَّةِ مَسْبُغًا

وخاتمة مدحته لسعد الدين ناظر الخواص الشريفة ، فيها رجاء من الله أن يبقيه سالماً ،
ويدعو على من يكرهه بأن يبقى في تعاسته ، أما من يحبه فيعيش في السعادة والهناء^(١):

فَانْعَمِ وَدُمْ وَإِعْنَمِ وَعِشْ فِي رَاحَةٍ وَدَعْ الْحَسُودَ لِهَمِّهِ وَلِكُدِّهِ

فَرَجَايَ أَنْ يُبْقِيَكَ رَبُّكَ سَالِمًا وَاللَّهُ أَقْرَبُ مُرْتَجَى مِنْ عَبْدِهِ

فَلِمَنْ عَدَا يَشْنَاكَ غَايَةَ تَعْسِهِ وَلِمَنْ عَدَا يَهْوَاكَ غَايَةَ سَعْدِهِ

أما خاتمة في مدح القاضي جلال الدين الشافعي بعد دعائه له ، فكانت بالصلاة على
النبي - صلى الله عليه وسلم - ، فيقول^(٢):

وَأَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ خُلْدَ بَقَاءِهِ لِنُرْعَمِ أَعْدَاءَهُ وَيَنْعَمَ بِأَلِهِ

وَعَمَّرَ سِرَاجَ الدِّينِ بِالنُّورِ وَالْهُدَى إِمَامَ الْأَنْبِيَاءِ الْفَرْدِ تَرْسُو جِبَالِهِ

وَصَلِّ عَلَى الْهَادِي وَآلِ وَصَحْبِهِ فَأَصْحَابِهِ خَيْرُ الصَّحَابِ وَأَلِهِ

(١) الديوان: ١٧٦.

(٢) الديوان: ١٧٨.

الغزل

كان الغزل في العصر الجاهلي موزعاً بين ذكريات الشاعر لشبابه ووصفه للمرأة، فيكون الديار القديمة التي رحلوا عنها وتركوا فيها ذكريات شبابهم الأولى ، وهو بكاء يفيض بالحنين الرائع ، ويقفون عند المرأة فيصفون جسدها ، ولا يكادون يتركون شيئاً فيها دون وصف له ، فيصفون خدها وجبينها وعنقها وصدرها وعينها وفمها وريقها ومعصمها وساقها وثديها وشعرها، كما يتعرضون لثيابها وزينتها وحليها وطيبها وحيائها وعفتها^(١).

كما أن الغزل في العصر الجاهلي كان يأتي في مقدمة القصائد، وقلماً أفرد الجاهليون الغزل بقصائد مستقلة.

أما في العصر الأموي فقد تهيأت أسباب كثيرة ليستقل الغزل بقصائد خاصة ليكون فناً قائماً بنفسه، فكان في هذا العصر نوعان من الغزل : الأول التقليدي وهو الذي تبدأ به قصائد المدح والهجاء ، ونوع مستقل.

أما في العصر العباسي اهتم الشعراء بهذا الغرض اهتماماً كثيراً ، فقد تداوله أفذاذ الشعراء ، وصاغوه بعقلياتهم الخصبية الحديثة ، وأمدوه بأخيلة جديدة .

ومما يدل على أن تطور الحياة والأفكار أدى إلى الغلو في الغزل في العصر العباسي ؛ أن الغزل الصريح كان أكثر حدة ؛ بسبب انتشار دور النخاسة وما كانت تموج به من إماء وقيان روميات وخراسانيات ، وغير خراسانيات وروميات ، إماء وقيان من كل جنس ، وقد أخذن يتسلطن على الحياة العباسية ، ويُشعن فيها كثيراً من صور التحلل الخلقي ، فعامل الترف وعوامل أخرى مثل الزندقة والشعبوية ، أدى إلى فساد الأخلاق.

ومن صور الغلو في الفساد استحدث الكثير من الشعراء ضرباً جديداً من الغزل الصريح ، وهو غزل الغلمان ، واستمر الغزل العفيف بجانب الغزل الصريح ولكن بصورة أقل مقارنة بنقيضه^(٢).

(١) انظر: شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي)، ٢١٢

(٢) انظر: شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول) ، الطبعة السادسة عشر، دار المعارف، ٣٧٠، ٣٧١.

أما الغزل في العصر المملوكي _ وهو عصر الشاعر _ فلم يختلف عن غيره من فنون الشعر، ولم تختلف طرائق شعراء العصر المملوكي عن سابقهم، فمنهم من زين به صدر قصيدته، ومنهم من أفرد له القصائد الطوال.

وقد جمع ابن حجر العسقلاني بين طرائق الغزل ، فتراه في صدر قصائد المدح تارة ، وتارة تراه قصائد مفردة .

وتمحور الغزل عند ابن حجر العسقلاني على الشوق والحنين ولوعة الفراق؛ وذلك لكثرة ترحاله وبعده عن أوطانه ، وغريته عن أحبائه ، فقال قصيدة يتشوق فيها لأهله مقدمتها^(١):

سَلَامٌ عَلَيَّ مِنْ لَا يَرُدُّ جَوَابِي	سَلَامٌ عَلَيَّ مِنْ لَا يَرُدُّ جَوَابِي
سَلَامٌ كَأَنْفَاسِ النَّسِيمِ بِسُحْرَةِ	سَلَامٌ كَأَنْفَاسِ النَّسِيمِ بِسُحْرَةِ
سَلَامٌ مُقِيمٌ مِنْ مُعْنَى مَسَافِرِ	سَلَامٌ مُقِيمٌ مِنْ مُعْنَى مَسَافِرِ
سَلَامٌ عَلَيَّ أَهْلِي وَدَارِي وَجِيرَتِي	سَلَامٌ عَلَيَّ أَهْلِي وَدَارِي وَجِيرَتِي
وَمَنْزَلِ أَحِبَابِي وَظِلِّ صَحَابَتِي	وَمَنْزَلِ أَحِبَابِي وَظِلِّ صَحَابَتِي

وضمنها شوقه لماء النيل الحلو البارد ، واعتبر كل ماء بعده سراب ، يقول^(٢):

تَرَكْتُ شَرَابَ النَّيْلِ حُلُوءًا وَبَارِدًا	فَكَمْ خُدَعَةٌ لِي بَعْدَهُ بِسَرَابِ
--	--

وهذا الفراق لا يطيق الشاعر احتماله ، فالسلوان لم يطيب خاطره ، يقول^(٣):

وَفَارَقْتُ مَا لَا طَاقَةَ بِفِرَاقِهِ	مَا طَرَقَ السُّلْوَانُ سَاحَةَ بَابِي
---	--

وحاول أصدقائه تقديم النصيحة في تخفيف نار البعد بالبكاء ، فدعا على نفسه بفقد عينه إن لم تكن كريمة كالبئر الصغيرة في ذرف الدموع^(٤):

وَقَالَ خَلِيلِي إِنَّ فِي الدَّمْعِ رَاحَةَ	وَكَفَّ دَمُوعَ الْعَيْنِ غَيْرُ صَوَابِ
--	--

(١) الديوان: ١٩٢ .

(٢) الديوان: ١٩٢ .

(٣) الديوان: ١٩٢ .

(٤) الديوان: ١٩٢ .

فقلت فقدت العين إن لم أجد بها جفان جفون للدموع جوابي
وقد جمع الشاعر بين الأرق والبكاء وعينه ، واعتبر ذلك نذير بالخراب ، حيث أصابه هذا
البعد ببعض التغيرات فالشيب قد عشش في مفرق رأسه^(١):

وَصَالِحَتْ بَيْنَ السَّهْدِ وَالطَّرْفِ وَالْبُكَاءِ وَذَاكَ بِنَاءً مَوْذِنٌ بِخَرَابِ
وَعَشَّشَ نَسْرًا لِمَشْيِبٍ بِمَفْرِقِي وَطَارَ بَيْنِي وَالشَّبَابِ غَرَابِي
أما تذكُّر الأُحبة يجعل العين تسيل من الدمع مثل السحاب^(٢):

وَأَشْهَدُ بِالتَّذْكَارِ رَوْضَةَ أَرْضِهِمْ فَتَهْمِي عَلَيْهَا مُقَلَّتِي كَسَحَابِ
أما الليل فيمثل بالنسبة له الأمل، فيبيت يحادث ويسامر الأنجم لعلها تتوب مكانه في السلام
لأحبيته^(٣):

أَبَيْتُ سَمِيرَ الأَنْجَمِ الزَّهْرَ عُلَّهَا تَتُوبُ عَلَيْكُمْ فِي السَّلَامِ مَنْابِي
ويتظاهر لأعدائه الصبر والتجلد، ويبطن في داخله المرض والسقام^(٤):

وَأُظْهِرُ لِلْأَعْدَاءِ فَرَطَ تَجَلُّدٍ وَأُبْطِنُ أَنِّي بِالسَّقَامِ لِمَا بِي
ومن قصائد أشواقه فقد قال قصيدة مطولة يتشوق فيها إلى بلده مصر، قالها وهو يتوجه إلى
الحجاز عبر البحر، أولها^(٥):

مَتَى يَتَجَلَّى أَفْقَ مِصْرَ بِأَقْمَارِي وَأُرَوِي عَنِ اللِّقْيَا أَحَادِيثَ بَشَّارِ
وَأَقْرَأُ آيَ الوَصْلِ مِنْ صُحُفِ أَوْجِهِ مَوَاضِعُ خْتَمِ اللِّثْمِ فِيهَا كَأَعْشَارِ
وأظهر شوقه لمصر^(٦):

إِلَى مِصْرَ وَاشْوَاقًا لِمِصْرَ وَأَهْلِهَا تَشْوُوقَ صَبٍّ لِلنَّوَى غَيْرِ مَخْتَارِ

(١) الديوان : ١٩٢ ، ١٩٣ .

(٢) الديوان : ١٩٣ .

(٣) الديوان : ١٩٣ .

(٤) الديوان : ١٩٣ .

(٥) الديوان : ١٩٧ .

(٦) الديوان : ١٩٨ .

وقد مدح مصر بما مدحها الله عز وجل فهي بلد الأمان لداخلها لقوله تعالى: {... وَقَالَ ادْخُلُوا

مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ} (١) ، يقول (٢):

وَيَا وَحْشَتِي يَا مِصْرُ مِنْكَ لِبَلَدَةٍ لِدَاخِلِهَا بِالْأَمْنِ بَشْرِي مِنَ الْبَارِي

ويستخدم أسلوب تأكيد المدح بما يشبه الذم في إبراز أخلاق أهلها، ففيها كل شيء يدعو إلى الحسد ، وليس فيها عيب تعاب به ، إلا أن الفضل من أهل مصر ظاهر (٣):

مَحْسَدَةٌ لَا قَدْحَ فِيهَا لِعَائِبٍ عَلَيَّ أَنْ زِنْدَ الْفَضْلِ مِنْ أَهْلِهَا وَارِي

وبين مكانة نهر النيل الذي هو مفخرة لمصر الذي يكسر هيبة كل مفاخر ، يقول (٤):

إِذَا فَاخَرُوهَا قَامَ صَارِمٌ نَيْلِهَا بِمِقْيَاسِ صِدْقٍ كَاسِرًا كُلَّ فَخَّارٍ

وبين ما تمثل له مصر فهي حياة شبابه ، وأول أوطانه ومنزل الأحبة، يقول (٥):

مَرَاتِعُ لَدَاتِي وَمَلْهَى شَبِيبَتِي وَمَبْدَأُ أَوْطَانِي وَغَايَةُ أَوْطَارِي

وَمَنْزِلُ أَحِبَابِي وَمَنْزَرُهُ مَقَلَّتِي وَمَطْلَعُ أَقْمَارِي وَمَغْرِبُ أَفْكَارِي

فقد اكتوى بنار البعد ، ورماه النوى حتى ركب أحاديثها مطيةً ، وبعدها يصف السفينة التي تنقله من مصر للحجاز ، فهي إن أتت السهل أبطأت ، وفي الأمواج تكون سريعة ، وهي جارية أي سائرة ولكنها تستعبد كل من في بطنها من عبيد وأحرار، يقول (٦):

أَحِبَابِنَا أَصْلَيْتُ فِي الْبَحْرِ بَعْدَكُمْ بِنَارِي وَأَنْتُمْ فِي رِيَاضٍ وَأَنْهَارٍ

رَمَتِي النَّوَى حَتَّى رَكِبْتُ مَطِيَّةً أَحَادِيثُهَا فِيهَا غَرَائِبُ أَسْمَارٍ

إِذَا السَّهْلُ أَوْفَى أَبْطَأَتْ فِي مَسِيرِهَا وَتَسْرَعُ فِي الْأَمْوَاجِ سَيْرًا بِأَوْعَارٍ

وَجَارِيَةٌ لَكِنَّهَا تَسْتَرْقُ مِنْ تَبْطَنُ فِيهَا مِنْ عَبِيدٍ وَأَحْرَارٍ

(١) سورة يوسف: آية ٩٩.

(٢) الديوان : ١٩٨ .

(٣) الديوان : ١٩٨ .

(٤) الديوان : ١٩٨ .

(٥) الديوان : ١٩٨ .

(٦) الديوان : ١٩٩ .

فهي لا خير فيها إلا أن نزيلها رفيق للقرآن، دائم الأذكار، يقول^(١):

وَلَا خَيْرَ فِيهَا غَيْرَ أَنْ نَزِيلَهَا نَدِيمٌ لِقُرْآنٍ مَدِيمٍ لِأَذْكَارِ

ففي سفره لم يجد من يؤانسه إلا الكتب ، فهي جلاء الهموم في سفره، يقول^(٢):

وَفِي سَفْرِي لَمْ أَلْقَ لِي مِنْ مَوَانِسِ سِوَى الْكُتُبِ أَجْلُو الْهَمِّ مِنْهَا بِأَسْفَارِ

وتتضمن كل قصائد الحنينية - الغزليات - على معاني العذاب لصدود المحبوب ، وظهور الألم النفسي والجسدي على الشاعر لبعده عن أحبابه ، فتارة تراه سقيماً وتارة تراه نحيلاً وغيرها.

فتراه يؤكد أنه ينكر على نفسه قول القصائد ولا يشتكي من الصد والهجران، يقول^(٣):

عَفَا اللَّهُ عَنِّي هَلْ أَقُولُ قَصِيدَةَ وَلَا أَشْتَكِي فِيهَا مِنَ الصَّدِّ وَالْهَجْرِ

فقد بدأ قصيدة أظهر فيها العذاب لصد المحبوب، يقول^(٤):

إِنَّ الَّذِي بَجَحِيمِ الصَّدِّ عَذَّبَنِي مَذَّبَانِ عَنِّي لَمْ أَظْهَرِ وَلَمْ أُبَيِّنِ

أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ بَدْرًا حِينَ وَدَّعَنِي وَسَارَ لِلسَّقْمِ وَالتَّبْرِيحِ أَوْدَعَنِي

وفي مقدمة لقصيدة أخرى ، اتهم فراق الأحبة بإصابة قلبه بالسقم ، والأوجاع ، وزاد ألمه وسقمه العذول ، يقول^(٥):

فِرَاقٌ رَمَى قَلْبِي بِسُقْمٍ وَأَوْصَابِ وَيَا لَيْتَهُ لِلْقُرْبِ مِنْ بَعْدِ أَوْصَى بِي

سَقِمْتُ وَزَادَتْ صَبَوْتِي ثُمَّ مَا إِشْتَقِي سَقَامِي بِشَهْدِ مِنْ عَذُولٍ وَلَا صَابِ

وفي مقدمة أخرى فإنه يتلطف مع محبوبه ، ويطلب له العفو من الله لما أصابه من بعدهم وفراقهم، ويلوم أحبابه أنهم تخلقوا بأخلاق أهل الكسر للقلب ، ويهنتهم على قتل المودة بينهم فهم على كل الأحوال أحبابه ، يقول^(٦):

(١) الديوان : ١٩٩ .

(٢) الديوان : ١٩٩ .

(٣) الديوان : ١٩٧ .

(٤) الديوان : ١٨٧ .

(٥) الديوان : ١٩٠ .

(٦) الديوان : ١٩٦ .

عَفَا اللَّهُ عَنْ أَحْبَابِ قَلْبِي فَأَيْنِي لِبَعْدِهِمْ قَدْ عَفَتْ مَا ذُقْتُ مِنْ صَبْرِ
أَنَا الْمَفْرُودُ الْمَهْجُورُ لَمَا تَخَلَّقُوا خَلَائِقَ أَهْلِ الْكَسْرِ لِلْقَلْبِ لَا الْجَبْرِ
هَتِيئاً لَهُمْ قَتْلِي وَصَفُوْا مَوَدَّتِي فَأَيْنَهُمُ الْأَحْبَابُ فِي الْعَسْرِ وَالْيَسْرِ

وتراه أفرد مفهوماً خاصاً للغيرة، فالغريب عند الشاعر هو الذي يبتعد الاحباب عن عينيه ،
لا الذين يبتعد عن سكنه، لذلك لا أحد يعاتب الشاعر في كرهه لوطنه ، يقول^(١):

مِنْ سِرِّهِ وَطَنٌ يَوْمًا أَقَامَ بِهِ فَأَيْنِي سَاعِنِي مِنْ بَعْدِهِ وَطَنِي
إِنَّ الْغَرِيبَ الَّذِي تَنَأَى أَحْبَبْتُهُ عَنْ طَرَفِهِ لَا الَّذِي يَنَأَى عَنِ السَّكَنِ

فهو باقٍ على عهده في حبه على رغم اللوم والعتاب والعدل ، مع أن الشاعر يعتقد أن من
يلومه يحسده على حبه ، يقول^(٢):

حَبِيبُ قَلْبِي عَلَى رَغْمِ الْعَذُولِ وَلَا أَشُكُّ أَنْ عَذُولِي فِيهِ يَحْسُدُنِي

وفي بيان حالة الحزن والعشق، فإن البكاء أفضل وسيلة لذلك، يقول^(٣):

وَأَرِوْا الْمَسْلَسَلِ مِنْ دَمْعِي وَعَارِضِيهِ بِالْأَوْلِيَّةِ عَنِ عَشْقِي وَعَنْ حَزْنِي

فالدموع مكنن أسرار العذاب والاشتياق لدى الشاعر؛ لكن الدموع دائماً تكشف هذا السر،
يقول^(٤):

وَمَدْمَعاً كَلَّمَا اسْتَكْتَمْتُهُ خَبْرِي لَمْ يَكْتُمِ السَّرَّ مِنْ عَشْقِي وَلَمْ يَصُنْ

ويلوم أحبابه بإحلالهم الأسي ، وتحريمهم على عيونه النوم، يقول^(٥):

أَحْبَابِ قَلْبِي كَيْفَ حَلَلْتُمُ الْأَسَى وَأَحْرَمْتُمُ نَوْمِي يَلِمُّ بِأَهْدَابِي

(١) الديوان: ١٨٧.

(٢) الديوان: ١٨٧.

(٣) الديوان: ١٨٧.

(٤) الديوان: ١٨٨.

(٥) الديوان: ١٩١.

وأما في ذكر صفات المحبوب، فهو البدر، في الحسن والإشراق والإبداع، فتراه يستخدم أسلوب تأكيد المدح بما يشبه الذم، يقول^(١):

كَالْبَدْرِ لَكِنْ بِلَا نَقْصٍ وَلَا كَأَفٍ فِي الْحَسَنِ وَالسَّنِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالسَّنَنِ
فهي كالعود اللين الذي يهتز، ونظراتها في حداثها مثل سيف بن ذي يزن - ملك حمير - ،
يقول^(٢):

تَهْتَزُ كَالْيَزْنِيِّ اللَّدَنِ قَامْتُهُ تَهْتَزُ كَالْيَزْنِيِّ اللَّدَنِ قَامْتُهُ
وفي إبراز حسن محبوبه و إظهار حزنه وفقدان صبره، استخدم طريقة طريفة حيث استعمل
أسماء بحور الشعر ومصطلحات العروض، يقول^(٣):

يَا كَامِلَ الْحُسْنِ حَزْنِي وَأَفِرُّ وَأَرَى وَجَدِي مَدِيداً وَصَبْرِي عَنْكَ مَقْتَضِبَا
ولم يخلو غزله من المحسوس العفيف ، فهو قليل لكن لا بد من إظهاره ، فيصف رشاقة
محبوبه ، وإشراقه خديه ، وما تغني إطلالة وجهه عن الرياض والألوان ، فخديه كالتفاحة،
والعينان من حسنهما شبيههما بالنبتة جميلة المنظر والرائحة، وريقة كالخمر، يقول^(٤):

وَأَعْيِدْ مِنْ إِشْرَاقِ خَدَيْهِ قَدْ بَدَا دَلِيلٌ بِأَنَّ الْخَدَّ يَرُوي عَنِ الزَّهْرِي
وَمَنْ لَاحَ فِي الْخَدِّ إِخْضِرَارُ عَذَارِهِ تَوَاتَرَ عِنْدِي مَا رَوَاهُ عَنِ الْخَضِرِ
وَيَا طَالَ مَا أَغْنَى مَحْيَاهُ عَنْ شَذَا رِيَاضِ وَأَلْوَانِ مِنَ الرَّاحِ وَالزَّهْرِ
فَخَدَاهُ تَفَاحِي وَعَيْنَاهُ نَرْجَسِي وَعَارِضُهُ مَسْكِ وَرَيْقَتُهُ خَمْرِي
أما في إظهار الخوف والغيرة على المحبوب من الناس ونظراتهم، وذلك عند ظهوره والشمس
معاً في وقت واحد، يقول^(٥):

أَخْشَى عَلَيْهِ عَيُونَ النَّاسِ تَنْهَبُهُ إِذَا بَدَا طَالِعاً وَالشَّمْسُ فِي قَرَنِ

(١) الديوان: ١٨٧.

(٢) الديوان: ١٨٧.

(٣) الديوان: ١٩٤.

(٤) الديوان: ١٩٦ ، ١٩٧.

(٥) الديوان: ١٨٧.

أما فيما تركه الصدود من آثار عليه، فمن كثرة التفكير في المحبوب اشتد عليه المرض، فأصبح فقط يعرف بمرضه، مما أفقده طيب النوم وراحته، يقول^(١):

لَقَدْ ضَنَنْتُ بِهِ حَتَّى ضَنَيْتُ فَإِنْ سَاءَلْتُ مُكْتَفِيًا عَنِّي يُقَالُ ضَنِي
فَقَدْتُ طَيْبَ الْكُرَى مِنْهُ وَمَنْ عَجِبَ فَقَدِي بِنَيْرِ وَجْهِ فِي الدُّجَى وَسَنِي
فجسمه أصبح خفيفاً كالريح العليلية، مع أن جسمه ثقيل بالأمراض، يقول^(٢):

جَسْمِي أَخْفُ مِنَ الرِّيحِ الْعَلِيلَةِ مَعَ أَنِّي ثَقُلْتُ بَضْعَفٍ كَادَ يَقْتَلْنِي
وَأَصْلُ سَقْمِي مِنْ لَاحٍ يَرَى غَلَطًا أَنِّي أَرَى حَسَنًا مَا لَيْسَ بِالْحَسَنِ
ويقول عن فقدان النوم بسبب الهجران، فالمحبيب لم يراعه في سهره؛ لكن طيفه لازمه، يقول^(٣):

سَلَبْتَ نَوْمِي فَإِنْ لَمْ تَرَ لِي سَهْرِي فَرَاعَ طَيْفَ خَيْالٍ مِنْكَ يَطْرُقْنِي
ورتب الأحوال التي تصيب الإنسان من أثر الحب والهجران، والفراق، فتبدأ بالحزن، فالحم، فالدموع، فالعين المسهدة، فتعب الجسم كاملاً، يقول^(٤):

الْحَزْنَ فَالْهَمَّ فَالْدمْعَ الْمَوْرَدَ فَالْط طَرْفَ الْمَسَهَّدَ فَالْأَوْصَابَ فَالْتَعْبَا
وَإَبْيَضَ طَرْفِي وَإِحْمَرَّتْ مَدَامِعُهُ وَأَسْوَدَ طَرْفُ إِصْطِبَارِي بَعْدَكُمْ وَكَبَا
أما في شتم العذول الذي بسببه كان الصدود والبعد، فكان ما به من الصبر والانتظار بسببه، يقول^(٥):

وَمَنْ عَذُولٍ دَنِيءٍ لَا خَلَاقَ لَهُ أَدْنَى إِلَى اللُّومِ مِنْ طَرْفٍ إِلَى وَسَنِ
أَضْحَى يَشْرِدُنِي عَمَّنْ كَلَفْتُ بِهِ ظُلْمًا فَكَانَ عَلَى الْحَالِينِ شَرْدُنِي
كَلَّ إِصْطِبَارِي لَمَّا كُفِّتُ مِنْهُ وَقَدْ عَدِمْتُ صَبْرِي وَعَزَمِي حِينَ كَلَفْنِي

(١) الديوان: ١٨٨.

(٢) الديوان: ١٨٩.

(٣) الديوان: ١٨٨.

(٤) الديوان: ١٩٤، ١٩٥.

(٥) الديوان: ١٨٩.

ويقول في قصيدة أخرى موبخاً العذول ، واتهامهم بالجهل^(١):

سَقِمْتُ لِقَرَبِ الْعَاذِلِينَ وَجَهْلِهِمْ فَلَا طَرْفَ إِبْلَالٍ وَلَا قَلْبُ الْبَابِ

فقرب الأعداء - وهم العذال - وبعد أحبابه يزيد ويعمق عليه الحزن والمعاناة ، يقول^(٢):

تَطَابِقُ عِنْدِي الْحُزْنَ لَمَّا هَجَرْتُمْ بِقَرَبِ لِأَعْدَاءٍ وَيَعْدُ لِأَحْبَابِ

وقد قال قصيدة كاملة في العذال ، بدأها^(٣):

إِذَا صَحَّ لِي مِنْكَ الرِّضَى ضَعْفَ الْعَذْلِ وَمَا مَرَّ مِنْ قَوْلِ الْعَوَائِلِ لَا يَحْلُو

ويبين في تلك القصيدة أصعب ما يقوله أولئك العذال ، وهو تخويف المحبوب من الهوي

والحب وقولهم: أن الهوي ليس سهل، يقول^(٤):

وَأَصْعَبُ مِنْ لَوْمِ الْعَوَائِلِ قَوْلُهُمْ هُوَ الْحُبُّ فِاسِلِمٌ بِالْحَشَا مَا الْهَوَى سَهْلٌ

وفي نهاية قصيدته يدعو لأحبابه بالقرب ، وطيب الأخلاق^(٥):

لَا أَبْعُدُ إِلَهَ أَحْبَابِي الَّذِينَ شَرَوْا رَقَّ الْمَحَبِّ بِمَا إِخْتَارُوا مِنْ الثَّمَنِ

وَلَا عَدِمْتُ لِيَالِي وَصَلَهُمْ فِيهَا مَرِحَتْ وَهِيَ شَبِيهُ الرُّوضِ كَالْغَضَنِ

طَابَتْ خَلَاتِقُهُمْ مِنْ صَفْوَاهَا فَعَدْتُ تُعْزَى إِلَى عَدْنٍ دَعَّ تُعْزَى إِلَى عَدْنٍ

وفي الخاتمة يظهر ما يمدده ظل المحبوب من القوة والقدرة على المرض ، والعيش بأمان ،

يقول^(٦):

كَمْ قَدْ تَغَطَّيْتُ مِنْ دَهْرِي بِظَلْمِهِمْ فَعَدْتُ لَوْ رَامَ مَنِّي السُّوءَ لَمْ يَرْنِي

وَعَدْتُ لَا أَخْتَشِي فِي الدَّهْرِ مِنْ سَقَمٍ إِذْ لَيْسَ يَدْرِكُ جِسْمِي نَاطِرُ الزَّمَنِ

سَكَنْتُ لَيْلَ أَمَانٍ فِي ظِلَالِ رِضَى فَلَمْ تَذُقْ كَأْسَ طَرْفِي خَمْرَةَ الْوَسَنِ

(١) الديوان : ١٩١ .

(٢) الديوان : ١٩١ .

(٣) الديوان : ١٩٥ .

(٤) الديوان : ١٩٥ .

(٥) الديوان : ١٨٩ .

(٦) الديوان : ١٨٩ .

وفي قصيدة أخرى يدعو على من يتمنى ويهوى فراق أحببته بأن يكون فداء للذي يحب اجتماعه بأحبابه ، يقول^(١):

فَلَيْتَ الَّذِي يَهْوَى فِرَاقَ أَحَبَّتِي فِدَىِّ لِلَّذِي يَهْوَى إِجْتِمَاعِي بِأَحْبَابِي
وفي قصيدة أخرى يبين أن حبه وغزله هو عذري ، فليس للمحبوب عذر في جفاء المتيم،
ويتمنى لقاء الحبيب ساعة، أو بعض ساعة، يقول^(٢):

فَمَا لَكَ عَذْرٌ فِي جَفَاءِ مَتِيْمٍ أَقَامَ عَلَيَّ مَا سَنَّ شَرَعَ الْهَوَى الْعَذْرِي
فَسَاعَةٌ وَصَلَّ مِنْكَ بَلْ بَعْضُ سَاعَةٍ أَوْدُ شِرَاهَا لَوْ تَيْسَّرَ بِالْعَمْرِ

أما الموشحات فكان غرضها غالباً الغزل ، فقد نظم ابن حجر سبع موشحات، يصف فيها حاله بسبب صدود المحبوب ، ويظهر ما يصنع به الهوى، فيقول^(٣):

سَقِمْتُ مِنْ بُعْدِكُمْ فَعُودُوا مَا عَلَيَّ مُحْسِنٍ جُنَاحِ
عَشِقْتُ بَدْرًا بِإِلَاسِرَارٍ أَفْلَحْتُ فِي حُبِّهِ فَلَاحِ

بَدْرٌ أَنَا فِي الْهَوَى شَهِيدُهُ * مَا بِسَيْفِ الْجُفُونِ صَالِ
فَطَرْفُهُ وَالْجَفَا وَجِيدُهُ * مَاضٍ وَمَسْتَقْبَلٌ وَحَالِ
لَوْ صَدَقْتَ بِاللِقَا وَعُودُهُ * مَا عَلَّلَ الْقَلْبَ بِالْمُحَالِ

ويقول في موشحته الثانية^(٤):

فَالْوَصْفُ لَنْ يَمَثَلَكَ لَكُلِّ صِيبٍ يَشْعُرُ
بِالطَّيْفِ قَدْ وَعَدْتَنِي * كَيْفَ وَطَرَفِي مَا هَجَعُ

(١) الديوان : ١٩١ .

(٢) الديوان : ١٩٧ .

(٣) الديوان : ٢٢٧ .

(٤) الديوان : ٢٢٩، ٢٣٠ .

وسار منذ فارقتي * وراك قلبي فانقطع
فارحمه فهو قد فني * وانظر له فيما صنع
فإنه فيك هلك * ومسه منك الضرر
جنت من يوم النوى * فارحم سلمت مصرعي
وبان مكتوم الهوى * مذ بل جفني مدمعي
وليس لي عيش سوى * إن مر محبوبي معي

وقد يختم موشحته ملغزاً اسم محبوبته، فيقول^(١):

من لي بسمر كبد التمام * في الابتسام
صفت فألغزت اسمها في ختام * هذا النظام
وقلت يا قلبي يا مستهام * من الغرام

بادر إلى الذات في ذا الأوان فالوصل دان قد صفا الوقت وراق الزمان
وقد نظم موشحته السادسة متشوقاً لأهله وبلده مصر، ويبين حاله في العيد إذ مرَّ عليه
حزناً كثيراً بسبب بعده عن الأحباب، وفيها يفتخر ببلده مصر، ويرد النقص الموجه إليها بدنو
المكانة فهي الأدنى إلى قلبه، متمثلاً في هذا المضمون معاني القرآن الكريم في قوله تعالى:
﴿... قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبُطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ...﴾^(٢)، فيقول^(٣):

أعـن مؤمناً صـباً * عسى تنفع الذكري
فقيد الصبر مفقود * من الأهلين والأصحاب
ساقيم عادته عيـد * أسى مذ فارق الأحباب
لـه في القرب تبـعيد * فما الظنُّ به إذ غاب

(١) الديوان: ٢٣٢.

(٢) سورة البقرة: آية ٦١.

(٣) الديوان: ٢٣٥.

جَفَّتْ وَدَّهَ الْفُرْبِيَّيَ وَلَمْ يَسْأَلِ الْأَجْرَا
 دِمَشْقُ الْغَادَةَ الْحَسَنَا * لَوْصَفَ النَّهْرَ بِالصَّبِّ
 عَلَى مِصْرَ زَهَتْ حُسْنَا * وَلَكِنْ مَوْطَنِي حَسْبِي
 وَقَالُوا إِنَّهَا أَدْنَى * نَعَمْ أَدْنَى إِلَيَّ قَلْبِي
 وَقَدْ سَأَلُوا الرَّبَّيَا فَقَالَ إِهْبِطُوا مِصْرَا

وفيها مدح شيخه وقاضي القضاة صدر الدين علي بن الأدمي^(١)، فذكر مناقبه وأشاد بها ومدح علو مكانه ، وسمو منزلته، يقول^(٢):

عَلِي الْقَدْرَ وَالْمَعْنَى * فَكَمَ عَنِ نَازِلِ أَعْضَى
 سَمَا فَضْلًا هَمِي مِزْنَا * وَلَمَّا أَنْ سَمَا أَرْضَا
 فَيَا نَعْمَاهُ مَا أَهْنَا * وَسَيْفَ الْعِزْمِ مَا أَمْضَى

هَدَى وَحِبَا صَحْبَا فَكَمَ مِنْ طَالِبٍ يَقْرَا
 وقد بدأ موشحته السابعة بمقدمة غزلية وانتقل بعدها إلى مدح فضل الله ابن مكانس، فتراه يقول^(٣):

قَلْبِي لَلَّاحَ مَا ارْعَوَى * وَلَا أَطَاعَ النَّاهِي
 وَلَا مَعِينِي فِي الْهَوَى * إِلَّا الْخَلِيْعَ اللَّاهِي
 وَلَا يَسْأَلُنِي سَوَى * مَدِيحَ فَضْلِ اللَّهِ
 مَعْتَقَ رَقِي مِنْ جَوَى * فِيهِ الْحَدِيثَ وَاهِي

لَوْلَا الْوَلَا حِينَ أَعْتَقَ وَالْمَدْحَ فِيهِ شِعَارِي

(١) ابن الأدمي (٧٦٨ - ٨١٦ هـ = ١٣٦٦ - ١٤١٣ م) علي بن محمد بن محمد، أبو الحسن، صدر الدين ابن الأدمي: قاض، من الشعراء الكتاب المترسلين. مولده ووفاته في دمشق. باشر كتابة السر في دمشق ثم قضاءها. وجمع له في دولة المؤيد بين القضاء والحسبة. (الأعلام : ٧/٥)
 (٢) الديوان : ٢٣٦.
 (٣) الديوان : ٢٣٧، ٢٣٨.

ألف خرائض ألف حرك

أولاً / الرثاء:

يعد فقد الأحبة من الأمور التي تعمل على تدفق الاحساس الفطري الصادق ، فالإحساس بالحزن والأسى والتفجع لما ألمَّ بالإنسان من مصيبة فقدان الأحبة على قلبه ، هو أصدق إحساس .

فقد رثى أخته ست الركب، وأظهر فيها الألم والتوجع، فيطلب من رفاقه أن يتأملوا حاله الذي عجز عن الوصف، ويطلب منهم أن يشاركوه البكاء، مع علمه بأنها لا تشفي بل تزيد من الأحران، ويظهر التسليم بقضاء الله وقدره متمثلاً قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابْتُهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(١)، يقول في مطلعها^(٢):

قفا تريا حالاً تجلّ عن الوصف
وجودا معي فضلاً بفيض مدامع
ولا تعجبا أنني أموت تلهفاً
إلى الله إنا راجعون وحسبنا
وقوما انظرا شمس الضحى وهي في
وإن كان دمع العين يشجي ولا يشفي
بلى إن أعش من غير لهف فيا لهفي
ونعم الوكيل الله ذو المن والطف
وبيين علام يتفجع ويبكي ، ويذكر صفات شقيقته^(٣):

بكيث على تلك الشمائل غالها
بكيث على حلم وعلم وعفة
بكيث على الغصن الذي اجثت أصله
بكيث على دينار وجه مكنه
كثيف الثرى بعد التنعم والطف
تقارن مع عز الهدى هزة الطرف
ولم أجن من أزهاره ثمر القطف
فعاجلني فيه التفرق بالصرف
فما يبكيه هو شمائل ومناقب أخته التي اتصفت بها من حلم وعلم وعفة.

(١) سورة البقرة: آية ١٥٦ .

(٢) الديوان : ٢٢٣ .

(٣) الديوان : ٢٢٤ .

ويؤكد على إيمانه بقضاء الله ، واستسلامه له متمثلاً معاني القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(١) يقول^(٢):

أَتَى أَمْرُ رَبِّي مَرْحَباً بِقَضَائِهِ فَسُبْحَانَ مَوْئِيهَا مِنَ الْخَلْدِ فِي كَهْفِ

ويدعو لها بالرحمة وعفو من الله - عز وجل-^(٣):

سَلَامٌ وَرِضْوَانٌ وَرُوحٌ وَرَحْمَةٌ عَلَيْكَ مِنَ الرَّحْمَنِ ذِي الْجُودِ وَالْعَطْفِ

وقال قصيدة مطولة يرثي فيها شيخ الاسلام سراج الدين البلقيني^(٤)، قال في أولها^(٥):

يَا عَيْنُ جُودِي لِفَقْدِ الْبَحْرِ بِالْمَطْرِ أَذْرِي الدُّمُوعَ وَلَا تُبْقِي وَلَا تَذْرِي

لَوْ رَدَّ تَرْدِي دَمْعٍ ذَاهِباً سَبَقَتْ شَهْبٌ وَجَمْرٌ بَعَيْنِي جَرِيَةَ النَّهْرِ

تَسْقِي الثَّرَى فَمَتَى لَامَ الْعَذُولُ أَقْلُ دَعَهَا سَمَائِيَّةً تَجْرِي عَلَى قَدْرِ

فهو يطلب من عيناه أن تذرفا وتجوذا بالمطر ليبين أثر المصاب الجلل في فقدان شيخ

الإسلام البلقيني.

ويدعو له بالرحمة، ويذكر فضائله ومناقبه فهو بحر العلوم الذي لا تكدر صفوه المسائل،

وهو الحبر-العالم- الذي كتب ببرايعته الكثير من الكتب، يقول^(٦):

فَرَحَمَةُ اللَّهِ وَالرِّضْوَانُ يَشْمَلُهُ سَلَامُهُ مَا بَكَى بَاكٍ عَلَى عَمْرِ

بِحَرِّ الْعُلُومِ الَّذِي مَا كَدَّرْتَهُ دِلًّا مِنْ الْمَسَائِلِ إِنْ تَشَكَّلَ وَإِنْ تَدُرَّ

(١) سورة النحل: آية ١.

(٢) الديوان : ٢٢٤.

(٣) الديوان : ٢٢٥.

(٤) البلقيني (٧٢٤-٨٠٥هـ=١٣٢٤-١٤٠٣م) عمر بن رسلان بن نصير بن صالح الكناني، العسقلاني

الأصل، ثم البلقيني المصري الشافعي، أبو حفص، سراج الدين: مجتهد حافظ للحديث، من العلماء بالدين.

ولد في بلقينة (من غربية مصر) وتعلم بالقاهرة. وولي قضاء الشام سنة ٧٦٩ هـ وتوفي بالقاهرة. (انظر

ترجمته في جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ): طبقات الحفاظ، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية ،

بيروت، ١٤٠٣ ص ٥٤٢، الأعلام ٤٦/٥)

(٥) الديوان: ٢١٥، ٢١٤.

(٦) الديوان: ٢١٥.

وَالْحَبْرُ كَمِ حَبْرَتِ طِرْسَاءٍ يَرَاعَتْهُ (١) حَتَّى يُجَانِسَ بَيْنَ الْحَبْرِ وَالْحَبْرِ (١)

ويقارن بينه وبين عمر بن الخطاب، فكلاهما كان سبباً في إحياء الدين، وقد اجتمعا في الاسم والعلم والتقوى، ولكن افترقا في العصر والعمر (٢):

فِي الْقَرْنِ الْأَوَّلِ وَالْقَرْنِ الْأَخِيرِ لَقَدْ
أَحْيَا لَنَا الْعِمْرَانَ الدِّينَ عَنْ قَدْرِ
فِي الْإِسْمِ وَالْعِلْمِ وَالتَّقْوَى قَدْ اجْتَمَعَا
وَأِنَّمَا اِفْتَرَقَا فِي الْعَصْرِ وَالْعَمْرِ
وقد ضَمَّنَ قصيدته رثاء شيخه زين الدين العراقي (٣)، يقول (٤):

نَعْمَ وَيَا طَوْلَ حُزْنِي مَا حَيَّيْتَ عَلِيَّ
عَبْدَ الرَّحِيمِ فَحُزْنِي غَيْرَ مُقْتَصِرٍ
لَهْفِي عَلَيَّ حَافِظَ الْعَصْرِ الَّذِي اِشْتَهَرَتْ
أَعْلَامُهُ كَاشْتِهَارَ الشَّمْسِ فِي الظُّهْرِ
عِلْمُ الْحَدِيثِ اِنْقَضَى لَمَّا قَضَى وَمَضَى
وَالدَّهْرُ يَفْجَعُ بَعْدَ الْعَيْنِ بِالْأَثْرِ
ويبين مكانة شيوخه في نفسه، فهم أعز لديه من سمعه وبصره (٥):

لَهْفِي عَلَيَّ فَقَدْ شِخِيَّ الَّذِينَ هُمَا
أَعَزُّ عِنْدِي مِنْ سَمْعِي وَمِنْ بَصْرِي
ومن أغراضه إجابته عن لغز (السيف) الذي أرسله إياه مجد الدين بن مكناس، يقول فيها (٦):

أَمْوَلَايَ مَجْدَ الدِّينِ وَالْبَارِعِ الَّذِي
لَهُ الْفَضْلُ إِنْ صَاغَ الْقَرِيضَ قَرِينُ
فُنِتَتْ بِلُغْزٍ مِنْكَ تَصْحِيفٌ عَكْسِهِ
فَتَى بَثَّ شَكْوَى وَالْحَدِيثُ شُجُونُ
وَشَنَّفَ سَمْعِي حِينَ أَعْجَمْتُ أَوْلَا
لَهُ وَلَأَنَّ الْعَيْنَ عِنْدِي نَوْنُ

(١) بين (الحبر) و(الحبر) جناس، الأولى بمعنى المداد، والثانية بمعنى الجمال وحسن الهيئة.

(٢) الديوان: ٢١٥.

(٣) الحافظ العراقي (٧٢٥ - ٨٠٦ هـ = ١٣٢٥ - ١٤٠٤ م) عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن، أبو الفضل، زين الدين، المعروف بالحافظ العراقي، من كبار حفاظ الحديث. (انظر ترجمته في الأعلام ٣/ ٣٤٤).

(٤) الديوان: ٢٢٠.

(٥) الديوان: ٢٢٠.

(٦) الديوان: ٢٠٥.

ويبين في إجابته أوصاف السيف^(١):

إِذَا قَلَّبُوهُ لِلشَّرَى قَيْسَ طَوُّهُ
يَمَانٍ وَفِي قَيْسٍ لَهُ مَدخَلٌ وَكَم
وَسَوْفَ تَرَاهُ بَعْدَ تَغْيِيرِ قَلْبِهِ
وَأَحْرَفُهُ أَضَحَّتْ تُعَدُّ ثَلَاثَةً
وَفِي عَكْسِ ثَلَاثِيهِ دَلِيلٌ عَلَى الَّذِي
ومن شعره أيضاً كتب يقرع خائناً اتتمنه ، فخانه أشد خيانة ، ثم عاد ليطلب وده ويستسمحه ،
يقول^(٢):

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لَا دِينَ وَلَا حَسَبَ
خَانَ الْأَمَانَةَ وَإِسْتَنَّ الْخِيَانَةَ وَإِس
أُصِيبُ فِي عَقْلِهِ بِالْعَيْنِ إِذْ لَمَعَتْ
وَعَاجٍ يَطْلُبُ عَوْدَ الْوَدِّ مُعْتَذِراً
ويقول غير مرحباً بعودته وطلب وده ، لأنه خدع إنساناً قلبه سليم ، فهو لم يربح إلا الخزي ،
وينكر عليه مدى إصراره في ارتكاب ذنبه القبيح، يقول^(٣):

لَا مَرْحَباً بِكَ يَا غَرَارَةَ خَدَعْتَ
وَبَاعْتَ الدِّينَ بِالدُّنْيَا فَمَا اِكْتَسَبْتَ
وَمَا اِكْتَفَتْ بِقَبِيحِ الذَّنْبِ تَصْنَعُهُ
وفي إجلاله لأخلاق الترك فقد أقصى ذلك الخائن منهم، يقول^(٤):

وَصَرْتُ فِي دَيْلِمٍ مَلْقَى لِأَجْلِ فَتَى
مَا كَانَ لِلتُّرِكِ يَوْماً قَطُّ يَنْتَسِبُ

(١) الديوان: ٢٠٦.

(٢) الديوان: ٢٠٧.

(٣) الديوان: ٢٠٧.

(٤) الديوان: ٢٠٨.

وينكر أن تكون الخيانة من أخلاق الأتراك^(١):

أَلَيْسَ يَكْفِيكَ مَنِّي التَّرْكَ قَل لِي هَلْ هَذَا صَنِيعُ امْرِئٍ لِلتُّرْكِ يَنْتَسِبُ
ويتساءل ما هو العذر لمن يجحد النعمة ويخون صاحبها ، فإن قال بأن قدر الله ، فأيضاً
الضرب والسجن عليه مكتوب، ولكن الأطماع هي سبب غدره، يقول^(٢):

يا ليت شعري ما عذرُ امرئٍ جحدَ الند نُعْمَى وَقَابَلَهَا مِنْ ضِدِّ مَا يَجِبُ
أَيَزَعَمُ الْقَدْرَ الْمَكْتُوبَ أَوْعَعَهُ فَالضَّرْبَ وَالْحَبْسَ أَيْضاً فِيهِ مُكْتَتَبُ
وَاللَّهِ لَا عُذْرَ إِلَّا الْغَدْرُ صَحْفَهُ قَلْبٌ عَنِ الْحَقِّ لِلأَطْمَاعِ مُنْقَلِبُ
ومن قصائده ما شكاه بها من بعض أصدقائه، قال قصيدة مطلعها^(٣):

إلى الله أشكو ما لقيتُ مِنَ الدُّجَى وَمِنْ سَوْءِ حَظِّي فِي الظَّلَامِ إِذَا سَجَا
يَمُدُّ رَوَاقاً وَالنُّجُومَ كَأَنَّهَا مَسَامِيرُ فِي سَقْفٍ لَهُ قَدْ تَبَهَّرَجَا
ويبين سبب شكواه وهو خلف وعدهم^(٤):

وَأَضْرَمَ نَاراً فِي الْحَشَا خُلْفَ وَعَدِهِمْ فَمِنْ ذِي وَذَا لَمْ أَلْقَ أَوْهَى وَأَوْهَجَا
ويقول في هجائه^(٥):

ويا صاحبي لم ألقَ إِلَّا بهائِماً فَلَا تَلْحَنِي إِنْ رَحْتُ أَنْحَرُهُمْ هِجَا
وَلَا تَنهَ نَظْمِي فِي انْتِهَاجِ هِجَائِهِمْ فَمَا زَالَ قَوْلُ الْحَقِّ أَنهَى وَأَنْهَجَا
وَأَلْجَمَ لِسَاناً قَدْ سَرَى مَدْحَهُ لَهُمْ وَإِنْ كَانَ ذَاكَ الْمَدْحُ أُسْرَى وَأَسْرَجَا
ويقول مؤكداً ذمهم بما يشبه المدح^(٦):

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ إِفْرَاطِ شَحْمِهِمْ فَلَيْسُوا يُهَنُّونَ الْمَكَارِمَ مَحْجُوجَا

(١) الديوان: ٢٠٨.

(٢) الديوان: ٢٠٨.

(٣) الديوان: ٢١١.

(٤) الديوان: ٢١١.

(٥) الديوان: ٢١٢.

(٦) الديوان: ٢١٢.

ويقول متوعداً إياهم^(١):

سَأَجْمَعُ فِي ذَمِّ الزَّمَانِ وَذَمِّهِمْ كَجَمْعِ أَبِي جَادِ الحُرُوفِ مِنَ الهِجَا
وَحَقَّقِي لَوْ أَنَّ الزَّمَانَ مُسَاعِدٌ بِأَنِّي عَنْهُمْ أَلْتَقِي سَبِيلَ النَّجَا
ومن قصائده ما سأله به قاضي القضاة جلال الدين أن يساعده في تحصيل الإجازة له
بالفتوى والتدريس من شيخ الاسلام، فيقول في أولها^(٢):

مَعَالٍ جَاذَتْ الجَوَازَا جَوَازَا وَحَسَنٌ قَدْ حَوَى الحَسَنَى وَجَازَا
وَكَعْبَةُ مَكْرَمَاتٍ قَدْ تَجَلَّتْ فَلَمْ يَرَ دُونَهَا الرَّاجِي حِجَازَا
وَمَا قَاضِي القَضَاةِ سِوَى فَتَى لَا تَرَى عِنْدَ الفَخَارِ بِهِ إِعْتِيَازَا
جَلَالُ الدِّينِ وَالدُّنْيَا الَّذِي قَدْ سَمَا الأَقْرَانَ عِلْمًا وَإِعْتِيَازَا
وبعد مدحه يطلب منه الاجازة بقوله^(٣):

وَجَانِزَتِي الإِجَازَةَ مِنْ إِمَامٍ سَمَا لِلأَفْقِ فَضلاً وَإِمْتِيَازَا
وَقَدْ فَاقَ الوَرَى بِالحَقِّ فَضلاً وَمِنْ سَتِينَ عَاماً لَا يُوَازِي
فَقَدْ أَسَأَفْتُ شُكْرِي وَإِمْتِدَاحِي وَحَقَّقِي أَنَّ أَثَابَ وَأَنَّ أُجَازَا

(١) الديوان: ٢١٢.

(٢) الديوان: ٢١٣.

(٣) الديوان: ٢١٤.

القطع الشعرية:

أما القطع الشعرية فقد تنوعت أغراضها بتنوع المواقف التي استدعتها ، وتنوع خواطر الشاعر ، وتنوع الحالة النفسية التي مرَّ بها.

- فكان من أغراضه في القطع: الغزل فقد كانت كثير من قطعه في الغزل ، فمثلاً يقول
يصف حاله في وصال الاحبة وكذلك حال الحسود الذي تفتت قلبه عند وفائها^(١):

محبــــــــــــــــوبي واصلــــــــــــــــتني
وذاب قلبــــــــــــــــب حســــــــــــــــودي
فألهــــــــــــــــم عنــــــــــــــــي تشــــــــــــــــتت
لما وفتــــــــــــــــت وفتــــــــــــــــت
ويذكر قناعته من الأحبة باليسير فيقول^(٢):

وقالوا قد هجرتم بدور تم
فقلت قناعه مني لأنني
لأهيف ليس بالقمر المنير
رضيت من الأحبة باليسير
• وفي شكوى من صاحب خداع، أخطأ في تقدير حبه له، فقد كان يعدّه سيفاً على الزمان، فحدث ما كان لکن عليه، فيقول^(٣):

لي صاحب أخطأت في ودّه
أعددت منه في العدا صارما
وليس يخلو بشر من غلط
فكان لکن لودادي فقط
• ويقول واصفاً ما أصابه من سقم هدّ ضلوعه وأركانه، فيقول^(٤):

أشكو إلى الله ما بي
قد طابق السقم جسمي
وما حوته ضلوعي
بنزلةٍ وظلوع
ويقول أيضاً^(٥):

(١) الديوان : ٢٣٩.

(٢) الديوان : ٢٤٣.

(٣) الديوان : ٢٤٠.

(٤) الديوان : ٢٤١.

(٥) الديوان : ٢٦٠.

أشكو إلى الله من هذا الزمان ومن
مما أقاسيه رقّ الكون لي ورثي
• أما في الألغاز ، فتراه ينظم مقطوعة ملغزاً فيها (اسماعيل)^(١):

لي عام ساء قلبي
أضمر القلب اسمه عن
وقال ملغزاً في (قاسم)^(٢):

سلب العقل بدرّ تمّ جميل
قلبه نعته إذا رخمّوه
• وفي حسن التعليل^(٣) ، يقول^(٤):

قامة ذا الشيخ ما حناها
كأنه فمّر المغنّى
فيرى أن سبب انحناء ظهر الشيخ الكبير هو أن تعب وهمّ كبير ألمّ به ، فكأن هذا التعب الشديد قد أغضبه سوء أفعال هذا الشيخ ، فأطرق ظهره فانحنى.

وتجد في الزهد قوله^(٥):

خليلي ولّى العمر ولم نتب
فحتّى متى نبني بيوتاً مشيدةً
وننوي فعل الصالحات ولكنّا
وأعمارنا منا تُهدّ وما تبنا

(١) الديوان : ٢٤٢.

(٢) الديوان : ٢٦٢.

(٣) وهو أن يدعي المتكلم علة للشيء غير علته الحقيقية على جهة الاستطراف لتحقيقه وتقريره، وذلك لأن الشيء إذا كان معللاً كان أكد في النفس وأرسخ من إثباته عن التعليل. (من بلاغة القرآن، محمد علوان، الطبعة الثالثة ، ٢٠٠٥م ، ص ٢٧٥).

(٤) الديوان : ٢٤٢.

(٥) الديوان : ٢٥٦.

ففي هذه المقطوعة يوجه نصيحة بأن العمر ماضٍ وفانٍ ، ويخاطب نفسه بأن الأيام تمرُّ ولم نلحق بركب التائبين، ويستغرب حال الإنسان في اهتمامه في بناء البيوت القصور في الدنيا ولكن عمره في نقصان ولم يتب.

وفي الحث على الإسراع في التوبة يقول^(١):

أخي لا تسوف في المتاب فقد أتى
وإن فتى من عمره أربعون قد
نذير لا يفارقه الهيم
مضت مع ثلاثة عدّها عمر جم
وفي هذه إشارة إلى أنه قد أمضى من عمره ثلاث وأربعون عاماً.

ويقول أيضاً^(٢):

لقد آن أن نتقي خالقاً
فنحن يصرف الردى ماننا
إليه المآب ومنه النشور
جميعاً من الموت واقٍ نصير
ومواضيع مقطوعاته كثيرة بعدد قطعه حيث بلغ عددها مائة وستون مقطوعة.

(١) الديوان: ٢٥٧.

(٢) الديوان: ٢٥٧.

الفصل الثالث

المصر أمة الفنون

- بناء القصيدة.
- الأسلوب واللغة.
- الصورة الشعرية.
- الموسيقى الشعرية.

بناء القصة

البناء هو هيكل القصيدة الذي يعد الأسلوب الذي يختاره الشاعر لعرض الموضوع، وهو أهم عناصر القصيدة، إذ هو العمود الذي ترتكز إليه العناصر الأخرى^(١).

ويرى بعض النقاد أن المراحل التي قطعها الشعر العربي حتى استوى صورته الجاهلية غامضة، كما يرى الدكتور شوقي ضيف: "فليس بين أيدينا أشعار تصور أطواره الأولى؛ إنما بين أيدينا هذه الصورة التامة لقصائده بتقاليدها الفنية المعقدة في الوزن والقافية وفي المعاني والموضوعات وفي الأساليب والصيغات المحكمة، وهي تقاليد تلقى ستاراً صفيحاً بيننا وبين طفولة هذا الشعر ونشأته الأولى؛ فلا نكاد نعرف من ذلك شيئاً"^(٢).

ويرى بعض النقاد أن أول ما كان عليه الشعر العربي كان مقطوعات وأبيات يقولها الشاعر في مناسبة أو حاجة له، ومن هؤلاء ابن سلام في كتابه طبقات فحول الشعراء: "ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حاجته وأثماً قصدت القصائد وطول الشعر على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف"^(٣).

ومن ذلك قول ابن قتيبة: "لم يكن لأوائل الشعراء إلا الأبيات القليلة يقولها الرجل عند حدوث الحاجة"^(٤).

ثم أصبح للشعر الجاهلي نظاماً وبناءً يسير عليه الشعراء، ولعل أول من فتح الباب في هذا المجال من النقاد هو ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء الذي حدد بناء القصيدة العربية، فهي تبدأ بمقدمة طلبية، يذكر فيها الديار والدمن والآثار، ثم يصل ذلك بالنسيب فيشكو من شدة

(١) انظر: نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، الطبعة الثالثة، منشورات مكتبة النهضة، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٢٠٢، ٢٠٣.

(٢) شوقي ضيف (المتوفى: ١٤٢٦هـ) تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، طبعة دار المعارف، د.ت، ص ١٨٣.

(٣) محمد بن سلام الجمحي (المتوفى: ٢٣٢هـ): طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود محمد شاكر، طبعة دار المدني، جدة، د.ت، ٢٦/١.

وفي ترجمة ابن قتيبة لمهل بن ربيعة هو عدي بن ربيعة. وسمي مهلهلاً لأنه هلل الشعر أي: أرقه ويُقال: إنّه أول من قصد القصائد (الشعر والشعراء: ٢٩٧/١)

(٤) ابن قتيبة (المتوفى: ٢٧٦هـ): الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ١٠٤/١.

الوجد وألم الفراق ، والشوق ، والغرض من ذلك ليميل نحوه القلوب ، ثم إذا استوثق من الإصغاء إليه ، ثم ينتقل إلى الشكوى من النصب والسهر ، والسفر في الليل وحر الهجير ، ثم ينتقل إلى الغرض الرئيس وهو المديح ، فنورد ما قاله ابن قتيبة: "سمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مُقَصِّد القصيد إنما ابتداءً فيه بذكر الديار والدُّمن والآثار؛ فبكى وشكا وخاطب الربع، واستوقف الرفيق؛ ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الطاعنين عنها، إذ كان نازلة العمدة في الحلول والظعن، على خلاف ما عليه نازلة المدر؛ لانتقالهم عن ماء إلى ماء، وانتجاعهم الكلاً، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان. ثم واصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد، وألم الفراق، وفرط الصبابة والشوق؛ ليميل نحوه القلوب، ويصرفَ إليه الوجوه، وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه؛ لأن التشبيب قريبٌ من النفوس لائتباط بالقلوب، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل، وإلف النساء؛ فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسبب، وضارياً فيه بسهم حلال أو حرام. فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له، عقب بإيجاب الحقوق؛ فرحل إلى شعره وشكا النصب والسهر، وسهر الليل، وحر الهجير وإمضاء الراحلة والبعير. فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء، ودمامة التأمين، وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير، بدأ في المديح فبعثه على المكافأة، وهزه إلى السماح وفضله على الأشباه، وصغر في قدره الجزيل"^(١).

ثم أوجب ابن قتيبة على الشعراء أن يلتزموا هذا النظام ، كما حرم على المتأخرين التحلل منه ، فيقول : " فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب وعدل بين هذه الأقسام؛ فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر، ولم يُطل فيمل السامعين، ولم يقطع بالنفوس ظمأً إلى المزيد. وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج على مذهب المتقدمين في هذه الأقسام، فيقفَ على منزل عامر، أو يبكي على مشيد البنيان؛ لأنَّ المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر والرسم العافي، أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما؛ لأنَّ المُتقدمين رحلوا على الناقة والبعير، أو يرد على المياه العذاب الجوارى؛ لأنَّ المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامي أو يقطع إلى الممدوح منابت من النرجس والآس والورد؛ لأنَّ المتقدمين جروا على قطع منابت الشيخ والحنوة والعرارة"^(٢).

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١/٧٥،٧٤.

(٢) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ١/٧٥-٧٧.

وبناء على ذلك كانت القصيدة العربية تتضمن في جنباتها أغراض وموضوعات عدة، ما جعلها متهمة بخلوها من الوحدة الموضوعية، ولكن هذا الاتهام سفهه وحطّ من شأنه بعض النقاد مستنديين إلى النظام الذي وضعه ابن قتيبة في بناء القصيدة العربية، حيث أن الشاعر كان يتصور عمله وحدة متصلة الأجزاء ، يسلم الواحد منها إلى صاحبه ، ويتقدم بعضه بعضاً ؛ لأن ذلك هو الترتيب الطبيعي ، فلم يكن يعتقد أن قصيدته أخلاطاً متفرقة لا توافق بينها ولا انسجام.

وقد بين طه حسين أن إنكار الوحدة المعنوية للقصيدة العربية القديمة منشؤها الافتتان بالأدب الأوروبي الحديث، والقصور عن تذوق الأدب العربي القديم ، وعدم دراسته كما ينبغي وتصديق كل ما يقال لهم من الكلام من غير تحقيق ولا استقصاء ، كذلك قبولهم ما يقوله الرواة في غير تحفظ.

وخلاصة ما وصل إليه طه حسين: أن القصيدة العربية القديمة جاءت ملتئمة الأجزاء قد نسقت أحسن تنسيق وأجمله، لا يأتيه الاضطراب والاختلاف^(١).

وقد انتشر النقاش حول وحدة البيت ، فلم تعرف وحدة القصيدة إلا في الندرة ، وقد عدوا اتصال بيت بما قبله أو بما بعده ، عيباً يزرى بالشعر وصاحبه ، وسمّوه التضمين، وربما الشيء الوحيد الذي عنوا به حسن التخلص من موضوع إلى موضوع^(٢).

(١) أحمد بدوي : أسس النقد الأدبي عند العرب، طبعة نهضة مصر للطباعة، ١٩٩٦، ص ٣١٩ - ٣٢٢.

(٢) شوقي ضيف : في النقد الادبي ، دار المعارف، الطبعة التاسعة، القاهرة ، د.ت ، ص ١٥٥.

بناء القصيدة عند ابن حجر

في قصائد المدح النبوي فترى في مدائحه السبعة للمصطفى - صلى الله عليه وسلم - أنه سار على نهج المادحين القدماء ، من أمثال كعب بن زهير في برده ، والبوصيري ، فبدأ بالتغزل ، ولوم العواذل ، وشدة الشوق ، ولوعة الوجد ، لكن المقدمة الغزلية لم يكن لغرضه ومعناه ، وإنما لإبراز وتأکید مدى شوقه وحبه للمصطفى - صلى الله عليه وسلم - كما بينته في موضعه .

وكان انتقال ابن حجر من النسب إلى غرضه الأساسي في مدح الحبيب انتقالاً سلساً فتكاد لا تشعر بالفجاءة في الانتقال .

أما أساس القصيدة في المدح النبوي ، فكما بينت في موضع سابق الموضوعات التي طرقها ابن حجر من ذكر ارهاصات مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، ومعجزاته ، ومآثره ، ونسبه ، والثناء على من نصره من أصحابه ، وغيرها .

أما غرضه من مدح النبي - صلى الله عليه وسلم - إنما رجاءً فيما خصَّ الله نبيه من الشفاعة ، فتراه يتوسل لطلب شفاعته يوم القيامة .

وأغلب ما تختم به قصيدة المدح النبوي عند ابن حجر الصلاة على الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - ، من أمثال ذلك ما ورد في مدحته الأولى^(١) :

تُثَمَّ الصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ فَإِنَّهُ يُبَدَأُ بِهِ الذِّكْرُ الْجَمِيلُ وَيَخْتَمُّ
يَا أَيُّهَا الرَّاجُونَ خَيْرَ شَفَاعَةٍ مِنْ أَحْمَدٍ صَلَّوْا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا

(١) الديوان: ١٠٤ .

أما في المدائح (الملوكيات والأميريات) سار ابن حجر على طريقته في المدائح النبوية في المقدمات الغزلية التي تتدفق عذوبة، وسهولة، فيذكر ألم الفراق، وذكر الطيف، ورعيه النجوم، ويذكر سهاده، وأرقه، والدعوة بالسقيا على عادة القدماء، مثل قوله^(١):

سَقِيًّا لِعَهْدِكَ مِنْ دَمَوْعِ شُبَّهَتْ
لَوْلَا مَلُوْحَتْهَا بِغَيْثِ مَنْزِلٍ
وقوله^(٢):

سَقَى اللّٰهَ أَيَّامَ ابْنِ عَبَّاسٍ إِنَّهَا
بَوَاسِمُ بِالْأَفْرَاحِ يَاوِي الْغَنَى لَهَا
وقد يكون هذا الغزل حسي لكنه عفيف كما في القصيدة الخامسة والسادسة في الملوكيات، وقد يبدأ قصيدته بالمدح مباشرة دون مقدمة غزلية كما في قصيدته السابعة في الملوكيات

ثم ينتقل بكل سلاسة لمدح صفات وأخلاق ومدوحه ويظهر ذلك بحسن التخلص الذي لا يظهر لنا في الانتقال الفجائي ومن أمثال ذلك ذكر بلدة المحبوب أرض الميقات بالنسبة لأهل اليمن^(٣):

وَلَمَّا أَلَمَّوْا فِي السُّرَى بِيَلْمٍ
لَأَجْسَادِهِمْ إِحْرَامُهَا قَدْ حَلَّ لَهَا
ومن حسن التخلص جعل الإشادة بصفات ومدوحه تبدل ملوحة دموعه، وتجذ ذلك في قول ابن حجر^(٤):

سَقِيًّا لِعَهْدِكَ مِنْ دَمَوْعِ شُبَّهَتْ
صِلْنِي تُبَدَّلَ مِنْ أَجَاجِ مَدَامِعِي
لَوْلَا مَلُوْحَتْهَا بِغَيْثِ مَنْزِلٍ
بِنَدَى الْمَلِيكِ الْأَشْرَفِ بْنِ الْأَفْضَلِ
ومن حسن التخلص استخدام أسلوب القصر في تخصيص صفة الكرم ومساعدة الناس والتفضل عليهم ومن ذلك قوله^(٥):

مُجَاهِدٌ نَفْسِي لَا أَرَى مُتَفَضَّلًا
سِوَى الْأَشْرَفِ بْنِ الْأَفْضَلِ بْنِ الْمَجَاهِدِ

(١) الديوان: ١٣٥ .

(٢) الديوان: ١٤٤ .

(٣) الديوان: ١٤٢ .

(٤) الديوان: ١٣٥ .

(٥) الديوان: ١٣٩ .

وتراه يستخدم أسلوب القسم والقصر لتأكيد مراده في أنه لم يشغل فكره عن ذكر محبوبه إلا بذكر صفات ممدوحه، فيقول^(١):

وَاللَّهِ مَا إِشْتَغَلْتُ عَنْ ذِكْرِكَ فِكْرِي
إِلَّا بِمَدْحِ الْمَقَامِ النَّاصِرِ الْعَالِي
ومن حسن التخلص الدعاء للممدوح فتراه يقول^(٢):

إِلَهِي مِثْلَ الشَّمْسِ لَاحَتْ ذُنُوبِنَا
فَيَسِّرْ عَلَيْنَا بِالْمَتَابِ زَوَالَهَا
أَحْنَا عَلَى الْعَفْوِ الْعَمِيمِ فَإِنَّا
سَيِّمْنَا عَلَى التَّسْوِيفِ دَهْرًا مَحَالَهَا
وَحَلَّدَ بَقَاءَ الْأَشْرَفِ الْمَلِكِ الَّذِي
بِدَوْلَتِهِ الدُّنْيَا تَدِيمَ إِحْتِيَالَهَا

ومن حسن التخلص أيضاً استخدام أسلوب الشرط، في تقديم النصيحة لمن أحس بالذل أن يلجأ إلى عزيز مصر، فقد استخدم الطبايق ليدلل حاجة الإنسان له، والإشادة بكرم وأخلاق ممدوحه، فيقول^(٣):

وَصَبْرَتْ عَمَّنْ لَا يُطَا
وَعُ مَا تَشَاءُ نُهَى وَحَلَمَا
إِنْ كُنْتِ فِي ذُلٍّ فَأَلْد
بِعَزِيزِ مَصْرٍ تَعَزُّ حَتَمَا
مَلِكٌ لَّهُ شَرَفٌ عَلَى الْإِل
عَلِيَا فَحَدَّثَ عَنْهُ قَدَمَا

ثم ينتقل إلى تعديد مناقب ممدوحه والإشادة بها كالجود والذكاء، والشجاعة، والعدل، والتواضع، ورفعة العلم في عهده، وغيرها.

أما غرضه فقد تنوع في مدائحه فمن أغراضه، هو إبراز الحالة السياسية، وكذلك إظهار صدقه في المدح، وأخيراً التكسب، أما خاتمة قصائده مدحه فقد غلب عليها الدعاء لممدوحه.

أما قصائد الغزل فقد ضمن فيها معاني الحزن والوجد بسبب الصدِّ والهجران، وما أصابه من السقم والمرض والهزال بسبب فراقهم، وكذلك كرر الحديث عن العذال الذين يفسدون ودَّ التواصل بمحبوبه، بل من الغريب حبه للوم ، لأنه دليل على صدق حبه ، ولأن فيه ذكر الأحبة ، ومن ضمن غزلياته تحدث عن أشواقه لمصر وأهلها ، وإلى أهل بيته.

(١) الديوان: ١٤٦.

(٢) الديوان: ١٤٣.

(٣) الديوان: ١٥٩.

بناء الموشحات

الموشحات غالباً ما تتألف في الأكثر من ستة أفعال وخمسة أبيات ويقال له التام، وفي الأقل من خمسة أفعال وخمسة أبيات ويقال له الأقرع ، فالتام ما ابتدئ فيه بالأفعال ، والأقرع ما ابتدئ فيه بالأبيات^(١).

أما بناء موشحات ابن حجر فكلها على التام الذي يبدأ بالقفل في أول الموشحة ، فقد جاءت ست قصائد من ستة أفعال وخمسة أبيات ، إلا موشحة واحدة تألفت من خمسة أفعال وأربعة أبيات.

أما الأفعال فمنها ما يكون مركب من جزئين ، أو ثلاثة أجزاء، أو أربعة فأما ما هو على جزئين، كقوله^(٢):

صِلْ قاصِداً قَدْ أَمَلْتُكَ إِذْ لَمْ تَجِدْ فَتَى حُرِّ
وكذلك قوله^(٣):

رَعَاكَ اللَّهُ يَا بَدْرِي وَإِنْ بِالْغَتِ فِي هَجْرِي
وكذلك قوله^(٤):

لَا تَسْمَعِ قَوْلِ وَاش قَدْ جَاءَ شَيْئاً فَرِيحاً
وكذلك قوله^(٥):

أَعِنِ مُؤْمِناً صَباً عَسَى تَنْفَعِ الذِّكْرَى
أما ما كان على ثلاثة أجزاء، مثل قوله^(٦):

(١) ابن سناء الملك : دار الطراز في عمل الموشحات، تحقيق جودة الركابي، طبعة دمشق، ١٩٤٩، ص ٢٥.

(٢) الديوان : ٢٢٩.

(٣) الديوان : ٢٣٢.

(٤) الديوان : ٢٣٣.

(٥) الديوان : ٢٣٥.

(٦) الديوان : ٢٣١.

إِنْ لَاحَ مَنْ فَارَقَ طَرْفِي وَبَانَ نَلْتُ الْأَمَانَ وَقُلْتُ يَا بُشْرَايَ بِالْوَصْلِ دَانَ

أما ما كان مركب من أربعة أجزاء، قوله^(١):

سَقِمْتُ مِنْ بُعْدِكُمْ فَعُودُوا فَمَا عَلَيَّ مُحْسِنٍ جُنَاحِ
عَشِيقْتُ بَدْرًا بِإِلَّا سِرَارِ أَفْلَحْتُ فِي حُبِّهِ فَلَاحِ

أما الأبيات فمنها المفرد والمركب، فأما ما جاء أجزاءه مفردة على ثلاث أجزاء، مثل^(٢):

تَمَادَى مِنْكَ هُجْرَانِي * وَمَا السَّلْوَانُ مِنْ شَانِي * وَأَنْسَانِي إِنْسَانِي
وما كان مفرداً وتركب من ستة أجزاء، مثل قوله^(٣):

فَأَنْتَ عِقْدٌ مُثْمَنٌ * لَمْ تَفْتَقِرْ لَوَاسِطَةَ
وَأَنْتَ شَكْلٌ حَسَنٌ * وَالْجُودُ فِيكَ ضَابِطَةَ
فَلَا تَقُلْ يَا مُحْسِنُ * هَذَا التَّنَا مِغَالِطَةَ

أما ما كان مركباً من الأبيات من فقرتين وثلاثة أجزاء، مثل قوله^(٤):

مَا ضَرَّ مَنْ أَشْغَلَ فِكْرِي وَسَارَ * لَوْ كَانَ زَارَ
أَضْرَمَ فِي الْأَحْشَاءِ مِنْي سِرَارَ * مَذْكَانَ جَارَ
لَبَسْتُ فِيهِ بَعْدَ خَلْعِ الْعِذَارِ * ثَوْبَ اشْتَهَارَ

(١) الديوان : ٢٢٧.

(٢) الديوان : ٢٣٢.

(٣) الديوان : ٢٢٩.

(٤) الديوان : ٢٣٠.

القطع الشعرية

من خصائص القطع الشعرية أن يعبر الشاعر بما يخطر بباله في موقف استوقفه، أو منظر شدّه، أو صورة أراد رسمها وتجسيدها، وهذا ما تشهده لدى ابن حجر.

نظم ابن حجر مقاطعه على بيتين غير أن نزرأ قليلاً من مقاطعه تجاوز البيتين، وتمتاز مقاطعه بخلوها من الألفاظ الصعبة، وسهولة معانيها، وتمتاز أيضاً بالإيجاز والتكثيف، وكمال المعنى، فتجد بيتين يصوران حالة الشاعر بشكل كامل.

وقد نظم ابن حجر على الدوبيت الذي هو قالب رباعي يتكون من بيتين، فكلمة الدوبيت كلمة فارسية معناها البيتان من الشعر، و الدوبيت عند العرب معناه الرباعي لأنه مؤلف من أربعة مصاريع الواحدة منها رباعية ويكون المصراع الأول والثاني والرابع بقافية واحدة، ووزن الدوبيت .

فعلن متفاعِلن فعولن فعلن فعلن متفاعِلن فعولن فعلن

والدوبيت ثلاثة أنواع: ١ - كل الأشطُر تنفق في القافية، ٢ - ثلاثة أشطُر تنفق في القافية الأول والثاني والرابع ولذلك يسمى أعرج.

٣ - كل الأشطُر تنفق في القافية غير أن القافية يجب أن تكون مردوفة، أي أن ألفاً أو واواً أو ياءً يجب أن تسبق الحرف الأخير من القافية.

والدوبيت المستزاد يتألف من ثمانية أشطُر يتفق الشطر الأول والثالث والسابع بقافية كما يتفق الثاني والرابع والسادس والثامن بقافية^(١)

(١) انظر تعريف الدوبيت في (تكملة المعاجم العربية، رينهارت بيتر أن نُوزي (المتوفى: ١٣٠٠هـ) نقله إلى العربية وعلق عليه: (ج ١ - ٨: محمد سليم النعمي) (ج ٩، ١٠: جمال الخياط) الطبعة: الأولى، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، من ١٩٧٩ - ٢٠٠٠م. ٤/٤٢٨.

وقد نظم ابن حجر مقطوعتين من الدوبيت على الدوبيت الأعرج حيث تتفق مصاريع الأول والثاني والرابع في القافية ، فيقول^(١):

يا عينُ عَنَّا مَنْ لَامَ يَا بِلَوَائِي أَلْغَزْتُكَ فِي الْحُرُوفِ وَالْأَسْمَاءِ
مَنْ حَاجَبَكَ النُّونَ وَمَنْ صُدِّغَكَ لِي وَأَوْ سَلَبْتَ بِالْحَسَنِ عَقْلَ الرَّائِي

ففي هذا الدوبيت يظهر براعته في النظم ، وتمكنه من أفنان الكلام ، فتراه يضمن كلامه لغزاً خوفاً من العذال وهو في البيت الثاني يفرق حروف (النون، والواو ، والراء) ، وكأنه قصد اسم محبوبه نور، أم يظهر الجمال والحسن الذي يعنيه اسم نور.

وكذلك قوله^(٢):

يا مَنْ عَذَلَ الْمَحَبَّ فِي عَشَقِ قَمَرِ ظُلْمًا وَنَهَى عَنِ التَّلَاقِي وَأَمَرَ
اللَّيْلَةَ فِي الصُّدُودِ لَا أَحْمَلُهَا وَالسَّاعَةَ فِي الْبِعَادِ أَدْهَى وَأَمَرَ
وكذلك قوله^(٣):

رَفَقًا بَفَتَى فُتَّتْ حِشَاهُ فَتًّا يَا عَاذِلَ فَاللَّهُ عَنْهُ أَيْضًا أَنْتَا
قَدْ صَيَّفَ فِي مَسَاءَةٍ إِذْ رَحَلُوا سَنَةً وَهَمَّ فِي هَمُومِ شَتَى

أما المواليا فهي ترتبط في الأصل بما يسمى بالموال حتى تطور حتى صار على الصورة التي عليها الآن ، فقد كان وزن المواليا البحر البسيط ، والموال حديثاً عرف على هذا الوزن ، لكن الصفة التي تميز المواليا من غيرها ترجع إلى التحلل من إعراب بعض الألفاظ ، وذلك بإسكان أواخرها كما هو الحال في اللغة العامية، ثم التنويع في القافية وروبيها، ويعد هذا تطور في القافية وتنويعها من ناحية ، وقواعد الإعراب من ناحية أخرى^(٤).

(١) الديوان: ٢٧١.

(٢) الديوان: ٢٧١.

(٣) الديوان: ٢٦٠.

(٤) انظر : موسيقى الشعر ص ٢٠٩.

وتجد المواليا لدى ابن حجر في قوله^(١):

يوسف ملك وقميص الحُس ملبوسو
لَمَّا عشقتو عليّ أنعم بتكبيسو
قام العذول بتفنيـدو وتعبيسو
واحسرتو حين أزور الحِبّ وابوسو

(١) الديوان: ٢٧٢.

اللغة وائل سلوب

الأسلوب لغة كما ورد في لسان العرب يحمل معاني عدة: يُقَالُ لِلسَّطْرِ مِنَ النَّخِيلِ: أُسْلُوبٌ. وكلُّ طريقٍ ممتدٍّ، فهو أُسْلُوبٌ. قَالَ: والأسلوبُ الطَّرِيقُ، والوجهُ، والمذهبُ؛ يُقَالُ: أنتم في أسلوبٍ سوءٍ، ويُجمَعُ أساليبَ. والأسلوبُ: الطريقُ تأخذ فيه. والأسلوب، بالضم: الفنُّ؛ يُقَالُ: أخذ فلانٌ في أساليبٍ من القول أي أفانينَ منه^(١).

فالجامع في المعاني السابقة هي أن الأسلوب تعني الطريقة والفن.

أما الأسلوب في الاصطلاح: فقد عرفه ابن خلدون عند أهل صناعة الشعر أنه المنوال الذي ينسج فيه التراكيب أو القالب الذي يفرغ فيه^(٢).

أما العناصر الأساسية للأسلوب هي أولاً الكلمة فهي المادة الخامة للتعبير، فالأديب والناظم يتحرى في اختيار كلماته بعناية فائقة؛ فهي رأس ماله، ثم انسجام العبارات، وترتيب الجمل، وما لها من موسيقى خاصة^(٣).

وبناء على ذلك فلكل إنسان أسلوبه، يمتاز به عن غيره، فالأسلوب في أوسع معانيه صفة من صفات الشخصية^(٤).

وهناك قواعد للعناصر التي يجب توافرها لتكوين أسلوب جيد منها العناصر الفكرية وهي الصحة الناتجة عن الاستعمال الصحيح للكلمات، وهناك العناصر العاطفية وهي القوة والجدّة والإيحاء، مثيراً في نفس قارئه عواطف وانفعالات مماثلة لعواطفه وانفعالاته، وهناك العناصر الجمالية من موسيقى وروعة وسحر تجعل الأسلوب لذيذاً في حدّ ذاته بصرف النظر عن الفكرة^(٥).

(١) ابن منظور: لسان العرب، مادة سلب ١/ ٤٧٣.

(٢) ابن خلدون (المتوفى: ٨٠٨هـ): ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، الطبعة الثانية، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، ص ٧٨٦.

(٣) انظر: أحمد أمين، في النقد الأدبي، ص ١٣٠.

(٤) السابق: ص ١٣٠.

(٥) السابق: ص ١٣١.

ويعد الأسلوب أحد العناصر الأربعة للأدب كما وضعها علماء الغرب ، وطبقها على العرب أحمد أمين، فقال: "هذه هي العناصر الأربعة للأدب : العاطفة والمعاني والخيال والأسلوب، كما عبّر عنها الإفرنج ، وأظن أنها تنطبق على كل أدب سواء في ذلك العربي أو الغربي"^(١).

أما اللغة فهي وسيلة التعبير عن الأفكار والمعاني لا العواطف كما يبين أحمد أمين بقوله: "أما العواطف فليست اللغة قادرة على نقلها نقلاً تاماً صحيحاً كما هو الشأن في المعاني"^(٢).

فاللغة في الشعر لها شخصية كاملة تتأثر وتؤثر ، وهي تنقل الأثر من المبدع إلى المتلقي نقلاً أميناً ، لذلك كانت لغة الشعر ممتلئة بالمحتوى الذي تنقله نقلاً أميناً ، وهذه اللغة لغة فردية وهذه الفردية هي السبب في أن ألفاظ الشعر أكثر حيوية من التحديدات التي يضمها المعجم.

والكلمة الشعرية يجب أن تكون أحسن كلمة تتوافر فيها عناصر ثلاثة: المحتوى العقلي، والإيحاء عن طريق الأخيلا ، والصوت الخالص ، ويجب أن يكون اتصالها بالكلمات الأخرى اتصالاً إيقاعياً بحيث يؤدي هذا التلوين الإيقاعي إلى الغاية المطلوبة^(٣).

وللغة الشعرية خصائص تميزها عن لغة النثر، يقول الشنطي: "اللغة الشعرية ذات خصائص متميزة، فهي تقوم على مبدأ المغايرة للنمط المعتاد في الكتابة النثرية، وكلما استطاع الشاعر الخروج على المألوف والمعتاد واستثمار خصائص اللغة بوصفها مادة التشكيل حقق التأثير المطلوب، فالجانب اللفظي هو لب العملية الإبداعية في الشعر"^(٤).

فقد تنبه إلى قضية اللغة في الشعر النقاد القدماء، فجعل ابن طباطبا التوسع في اللغة من أولى أدوات الشعر^(٥)، واشترط في الكلمة الشعرية: "وعذوبة ألفاظها، وجزالة معانيها، وحسن

(١) أحمد أمين: في النقد الأدبي ، الطبعة الرابعة ، دار الكتاب العربي ، بيروت-لبنان ، ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م ص٧٦،٧٧.

(٢) السابق ص ٧٤.

(٣) انظر: عز الدين اسماعيل : الأسس الجمالية في النقد العربي عرض وتفسير ومقارنة ، الطبعة الثالثة، دار الفكر العربي، ١٩٧٤، ٣٥٠ .

(٤) محمد صالح الشنطي : فن التحرير العربي ضوابطه وأنماطه ، الطبعة الخامسة، دار الأندلس للنشر والتوزيع، السعودية، حائل، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م، ص ٢٤٠.

(٥) ابن طباطبا، (المتوفى: ٣٢٢هـ) : عيار الشعر ، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المانع ، طبعة مكتبة الخانجي، القاهرة ، د.ت، ص ٦.

مباديها، وحلاوة مقاطعها، وإيفاء كل معنى حظه من العبارة، وإلباسه ما يشاكله من الألفاظ حتى يبرز في أحسن زي وأبهى صورة، واجتناب ما يشينه من سفساف الكلام وسخيف اللفظ، والمعاني المستيردة، والتشبيهات الكاذبة والإشارات المجهولة، والأوصاف البعيدة، والعبارات الغثة، حتى لا يكون ملفقاً مرقوعاً، بل يكون كالسبيكة المفرغة، والوشي المنمنم، والعقد المنظم، والرياض الزاهرة، فتسابق معانيه ألفاظه فيلنذ الفهم بحسن معانيه كالتذاد السمع بمونق لفظه، وتكون قوافيه كالقوالب لمعانيه، وتكون قواعد للبناء يتركب عليها ويعلو فوقها، ويكون ما قبلها مسبوقةً إليها ولا تكون مسبوقةً إليه فتقلق في مواضعها، ولا توافق ما يتصل بها، وتكون الألفاظ منقادة لما تراد له، غير مستكرهة ولا متعبة، مختصرة الطرق، لطيفة الموالج، سهلة المخارج^(١).

وسبيل ذلك أن لكل غرض من أغراض الشعر لغته الخاصة يحشد فيها الشاعر الألفاظ التي تناسب ذلك الغرض فمثلاً في المدح ما يقوله ابن رشيق: " وسبيل الشاعر إذا مدح ملكاً أن يسلك طريقة الإيضاح والإشادة بذكره للممدوح، وأن يجعل معانيه جزلة، وألفاظه نقية، غير مبتذلة سوقية، ويجتنب مع ذلك التقصير والتجاوز والتطويل؛ فإن للملك سامة وضجراً، ربما عاب من أجلها ما لا يعاب، وحرّم من لا يريد حرمانه"^(٢).

وأقدم من تنبهه لتناسب الألفاظ مع الغرض التي قيلت فيه القاضي الجرجاني حين قال: " نعم، ولا أمرّك بإجراء أنواع الشعر كلّهُ مُجرى واحداً، ولا أن تذهب بجميعه مذهب بعضه؛ بل أرى لك أن تقسم الألفاظ على رتب المعاني، فلا يكون غزلك كافتخارك، ولا مديحك كوعيدك، ولا هجاؤك كاستبطائك؛ ولا هزلك بمنزلة جدك، ولا تعريضك مثل تصريحك؛ بل ترتب كلاً مرتبته وتوفيه حقه، فتلطف إذا تغزلت، وتفقّم إذا افتخرت، وتتصرّف للمديح تصرّف مواقعه؛ فإن المدح بالشجاعة والبأس يتميّز عن المدح باللباقة والظرف، ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمُدام؛ فلكل واحد من الأمرين نهج هو أمّلك به، وطريق لا يشاركه الآخر فيه"^(٣).

(١) عيار الشعر: ص ٧.

(٢) ابن رشيق القيرواني الأزدي (المتوفى: ٤٦٣ هـ): العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الخامسة، دار الجيل، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م، ١٢٨/٢.

(٣) علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني (المتوفى: ٣٩٢ هـ): الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، طبعة مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، د.ت، ص ٢٤.

أما لغة الشاعر في قصائده تراها لغة سهلة بسيطة قريبة للذهن ، بعيدة عن التعقيد والإيغال، والألفاظ الصعبة ، فتراه يعلن ذلك صراحة بقوله^(١):

أَتَجَنَّبُ التَّعْقِيدَ وَالْإِيغَالَ وَالْفُظَّ الْمَعْتَمِي
فَيَقُولُ مِنْ أَصْغَى لَهْ صَدَقَ الْمُحَدَّثُ وَإِسْتَتَمَا

وقد تنوعت لغة ابن حجر حسب غرض القصيدة فمثلاً تجد الجزالة والقوة في قصائد المدح ، يحشد فيها الألفاظ الدالة على الصفات والاخلاق الكريمة من قوة وشجاعة واستتباب الأمن في زمنه والكرم والجود ، فمثلاً في وصف الكرم^(٢):

مَلِكُ الْمَلُوكِ حَقِيقَةٌ قَدْ كَمَلَتْ
يُرْوِي أَحَادِيثَ النُّوَالِ صَاحِيحَةً
أَوْصَافُهُ وَسِوَاهُ لَيْسَ بِأَكْمَلِ
بِمَدْبَجٍ مِنْ جُودِهِ وَمَسْلَسَلِ
وفي البأس والقوة والمنعة^(٣):

بِأَسِّ يَلِينُ لَهُ الْجَمَادُ يَحْفُهُ
وَفِي اسْتِتَابِ الْأَمْنِ فِي زَمَنِ حَكْمِهِ يَقُولُ^(٤):

وَالنَّاسُ أَجْمَعُ مِنْ رَعَايَاكَ إِرْتَوُوا
مِنْ فَيْضِ فَضْلِكَ بِالْغَمَامِ الْمَسْبِلِ
أما في قصائد الغزل فتجد الألفاظ التي تدلُّ على الرقة والسهولة واللطافة ، وذلك ما يناسب هذا الغرض، فتشيع ألفاظ الهوى والتميم ، والشوق ، والعدول ، والصبر ، مثل^(٥):

عَادَ الْمُتَمِيمِ شَوْقٌ كَانَ قَدْ دَهَبَا
وَزَادَ فِي قَلْبِهِ طَوْلُ النَّوَى لَهْبَا
وترى ألفاظ الحبيب ، والوصل ، والحياة ، والغرام في قوله^(٦):

حَبِيبِي لَا تَحْتَفِلْ بِالْعَدُولِ
وَصِلْ مَغْرَمًا بِالْفَنَاءِ قَدْ وَصَلْ

(١) الديوان : ١٦٤ .

(٢) الديوان : ١٣٥ .

(٣) الديوان : ١٣٥ .

(٤) الديوان : ١٣٦ .

(٥) الديوان : ١٩٣ .

(٦) الديوان : ٢٥٤ .

وَحَقُّكَ إِنِ الْعَذُولِ الْأَقْلَى وَأَنْتَ الْحَيَاةَ وَأَنْتَ الْأَمْلَى

وترى ألفاظ الحزن والألم والبكاء والدموع ، في قصائد الرثاء، مثل قوله^(١):

يَا عَيْنُ جُودِي لِفَقْدِ الْبَحْرِ بِالْمَطْرِ أَذْرِي الدُّمُوعَ وَلَا تُبْقِي وَلَا تَذْرِي

أما معجمه اللغوي فقد كان لشخصيته الدينية باعتباره فقيهاً محدثاً قاضياً، جامعاً لعلوم النحو والادب أثرٌ واضحٌ في تنوع معجم ألفاظه.

فقد استعمل ألفاظ من موضوعات علم الصرف، فتجده يقول^(٢):

عَلَى التَّقْيِ وَالنَّدَى وَالْحَلْمِ مَقْتَصِرٌ فَأَعْجَبَ لِمَقْصُورِ شَيْءٍ وَهُوَ مَمْدُودٌ

فذكر موضوعات الاسم المقصور والاسم الممدود.

واستعمل ألفاظاً من موضوعات علم العروض، فيقول^(٣):

يَا كَامِلَ الْحُسْنِ حَزْنِي وَأَفْرَ وَأَرَى وَجُدِي مَدِيداً وَصَبْرِي عَنْكَ مَقْتَضِبَا

فقد ذكر بحور الشعر الكامل والوافر والمديد والمقتضب.

وقد استعمل ألفاظاً من مصطلحات علم الحديث في قوله^(٤):

تَسْلَسَلَتِ الرَّوَايَةُ عَنِ جُفُونِي عَلَى ضَعْفِ بِهَا مِنْ فَرَطِ دَائِي

فقد استخدم مصطلح المسلسل^(٥) في علم الحديث، ليرسم صورة سيلان الدموع من العين.

وقوله^(٦):

(١) الديوان: ٢١٤.

(٢) الديوان: ١٣٢.

(٣) الديوان: ١٩٤.

(٤) الديوان: ١٢١.

(٥) والمسلسل من الأحاديث ما تتابع فيه الرواة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على حال واحدة، أو ما

تتابع رجال إسناده عند روايته على صفة أو حالة إما في الراوي أو في الرواية. (انظر المعجم الوسيط

٤٤٣/١).

(٦) الديوان: ٩٨.

وَحَدِيثُ وَجَدِي فِي هَوَاكَ مُسَلَّسٌ بِالْأَوْلِيَّةِ مِنْ دُمُوعِ تَسْجُمٍ

وقد استعمل ألفاظاً من مصطلحات فقهية في قوله^(١):

قَضَيْتَ هَوَىٰ بِهَجْرِكَ يَا حَبِيبِي وَعَامَلْتَ الْمَحَبَّةَ بِالْأَدَاءِ

فالقضاء والأداء من المصطلحات الفقهية.

واستخدم ألفاظاً من علم الجغرافيا ، فتراه يقول^(٢):

وَحَطَّتْ مِنْ مَنَاسِمِهَا سُطُورًا وَسَارُوا فَهِيَ خَطُّ الْإِسْتَوَاءِ

فخط الاستواء من مصطلحات علم الجغرافيا.

(١) الديوان: ١٢١.

(٢) الديوان: ١٢٢.

أما أسلوب ابن حجر في قصائده فتجد التنوع والجمال والقوة في إيصال المعاني والأفكار، ففي قصائده ترى التنوع بين الأساليب الخبرية والإنشائية، فتراه يكثر من الأساليب الإنشائية مثل الاستفهام الذي تنوع غرضه منها النفي في مثل قوله^(١):

كَيْفَ السَّبِيلُ لِكَيْتِمِ أَسْرَارِ الْهَوَى وَلِسَانُ دَمْعِي بِالْغَرَامِ يُتْرَجَمُ

كأنه يقول لا توجد طريقة يخفي الواحد ما يسرّه من الحب والهوى.

وفي الاستفهام الذي غرضه التعجب، تراه يقول^(٢):

مَاذَا يَقُولُ الْمَادِحُونَ وَمَدْحُكُمْ فَضلاً بِهِ نَطَقَ الْكِتَابُ الْمُحَكَّمُ

وفي ذلك يتعجب من الكلام الذي يقال في مدح المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وقد مدحه رب العزة في كتابه.

ويقول أيضاً^(٣):

مَاذَا عَسَاهُمْ أَنْ يَقُولُوا بَعْدَمَا قَدْ أَبْصَرُوا شَجْنِي وَفَرَطَ نَحْيِي

وفي الاستفهام الذي غرضه الإنكار^(٤):

وَكَيْفَ سَلَاها الْقَلْبُ وَهَوَ محلَّها سَلَا هَلْ سَلَا إِجْمَالها أَوْ جَمَالها

ويستخدم أسلوب الاستفهام ليدلل ما على مدى شوقه لابنتيه فرحة وزين خاتون^(٥):

تُرَى هَلْ أَلْقَى زَيْنَ خَاتونَ بَعْدَمَا تَنَاءَتِ بِنَا السُّكْنَى وَعَادَ المودِعُ

وَهَلْ أَلْتَقَى تِلْكَ الطُّفِيْلَةَ فَرِحَةَ قَرِيْباً كَمَا فَارَقْتُها وَهِيَ تَرْضَعُ

أما أسلوب النداء فقد أكثر منه ابن حجر في المدائح النبوية لأغراض أهمها التوبيخ ، فتراه يوبخ العذال في لومه لهواه ، فيقول^(١):

(١) الديوان : ٩٧ .

(٢) الديوان : ١٠١ .

(٣) الديوان : ١٠٥ .

(٤) الديوان : ١٤١ .

(٥) الديوان : ١٦٩ .

يا عاذلي إني جُننتُ بحبِّهم وإلى سوى أوطانهم لا أعزُّمُ
ولغرض التقرب للمحبوب يحذف أداة النداء ويلهج بنداء أحبابه^(٢):

أحبابنا كم لي عليكم وقفةً وَعَلَيَّ وَصَلُّكُمْ الْحَلالُ مُحَرَّمُ
ولغرض التعظيم، تراه يقول :

يا سيِّدَ الرُّسُلِ الَّذِي آيَاتُهُ لا تَنقُضِي أَبداً ولا تَنصَرِّمُ
ومنه أيضاً قوله^(٣):

يا سيِّدَ الرُّسُلِ الَّذِي فَاقَ الوَرى بأسأ سَما كُلَّ الوجودِ وجودا
ومنه أيضاً^(٤):

أيا خَيْرَ خَلقِ اللَّهِ دَعوَةَ مُذنبِ تَخوِّفِ مِنَ نارِ الجَحيمِ توقِّدا
ومنه أيضاً^(٥):

يا مالِكاً مُلْكُهُ العالِي بِسوُدده موطأً وَلَهُ بِالعَدلِ تَمهيدُ
يا من تَطوَّلَ جوداً ها بِضائِعنا عَرَضَ المَدائحِ وَالتَّقْصيرِ مَوجودُ
أما النداء الذي غرضه التشويق، فتراه يقول^(٦):

يا أَيُّها الرَّاجونَ خَيْرَ شَفاعةٍ مِن أَحْمَدٍ صَلَّوا عَلَيهِ وَسَلِّموا
أما النداء الذي غرضه الإغراء، فتراه يقول^(٧):

بِبابِ جودِكَ عَبدٌ مُذنبٌ كَلِفُ يا أَحسَنَ الناسِ وَجهاً مُشرقاً وَقفا
ويقول أيضاً^(١):

(١) الديوان: ٩٨.

(٢) الديوان: ٩٩.

(٣) الديوان: ١١٧.

(٤) الديوان: ١٢٧.

(٥) الديوان: ١٢٧.

(٦) الديوان: ١٠٤.

(٧) الديوان: ١١٣.

يا أيُّها المولى الَّذي فاقَ المُلوكَ نَدَى وَجِلْمَا
ويقول^(١):

يا سَيِّدًا قَد فاقَ حَا تِمَّ فِي فُنُونِ الجودِ حَتْمَا
أما النداء للتعجب فتراه يقول^(٢):

فَقَدْتُمْ وَالوَجْدُ أَصْبَحَ لَازِمِي فَيَا عَجَبًا مِّنْ وَاجِدٍ غَيْرِ وَاجِدٍ
أما النداء الذي غرضه الاستعطف ، فتراه يستعطف عدَّاله، ليعاملوه برأفة^(٤):

أَعَاذِلْتِي هَلْ تَقْبَلِينَ بِرَأْفَةٍ مَعَاذِرَ صَبِّ فِي زَمَانِ مَعَانِدِ
ويقول^(٥):

فَيَا عَاذِلِي رِفْقًا بِقَلْبِي فَإِنَّهُ عَلَى دُونِ مَنْ فَارَقْتُ يُبْكِي وَيُجْرَعُ
وقال مخاطباً محبوبه^(٦):

فَيَا نَاهِبًا مِّنْ مُقْلَتِي سِنَةَ الكرى فِدَى لَكَ مَنهوبُ الرِقَادِ شَرِيدُهُ
وَيَا وَعَدَ مَنْ أَهْوَاهُ مَا لَكَ مُخْلَفًا وَأَنْتَ مِنِّي قَلْبَ المَشُوقِ وَعَيْدُهُ
وقد استخدم النداء في التوجع والألم فقد قال في مقدمة قصيدة مطولة في رثاء شيخ الاسلام
سراج الدين البلقيني^(٧):

يا عَيْنُ جودي لِفَقْدِ البجرِ بالمطرِ أَذري الدُموعَ وَلَا تُبْقِي وَلَا تَذْري
ويقول^(٨):

(١) الديوان: ١٥٩.

(٢) الديوان: ١٦٢.

(٣) الديوان: ١٣٨.

(٤) الديوان: ١٣٨.

(٥) الديوان: ١٦٩.

(٦) الديوان: ١٥١.

(٧) الديوان: ٢١٤.

(٨) الديوان: ٢١٥.

يا سائلي جهره عما أكابده
وكثر استخدامه لأسلوب الأمر الذي يحمل في طياته الإلزام والاستعلاء، ولكن تجد الشاعر
قد استخدمه لأغراض أهمها التحذير، يقول^(١):

فليحذر المرء المخالف أمره
والأمر الذي غرضه الاستعطاف^(٢):

فأشفع لمادحك الذي بك يتقي
أما الأمر الذي غرضه الدعاء، قوله^(٣):

فيا رب عاملنا بلطفك إننا
أعدنا من الأهواء والفتن التي
وقوله^(٤):

إلهي مثل الشمس لاحت ذنوبنا
أحلنا على العفو العميم فأننا
أسلوب النهي، الذي غرضه التحذير^(٥):

قل للمخالف لا تعاند إننه
وفي ذلك تحذير لعدم التفريق والتمييز في فضل البخاري ومسلم.

وفي غرض التعظيم، يقول^(٦):

لا تسألن القوافي عن ما آثرهم
إن شئت فاستنطق القرآن والصحفا
ويقول ناهياً أحبابه عن الصدود والهجران، وأخذ الظن بالإحسان^(١):

(١) الديوان: ١٠٠٠.

(٢) الديوان: ١٠٧.

(٣) الديوان: ١٢٠.

(٤) الديوان: ١٤٣.

(٥) الديوان: ١٠٣.

(٦) الديوان: ١١٣.

لَا تَقْطَعُوا بِاتِّصَالِ الْهَجْرِ أَوْصَالِي وَوَأَفْقُونِي فَقَدْ خَالَفْتُ عَذَالِي
وَلَا تَنْظَنُوا سَكُونِي فِي الْغَرَامِ بِكُمْ يَقْضِي بِأَنَّ فُؤَادِي مِنْكُمْ خَالِي
ويقول طالباً من الأمير ألا يرم بضاعته متحججاً بعيبيها^(٢):

لَا تَرْمَهَا مَتَعَرِّضاً لِعَيُوبِهَا بِالظَّنِّ رَجْمَا
أما التمني فقد ورد بصيغة (ألا ليت شعري) فتراه يقول^(٣):

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبَيْتَنَ لَيْلَةً بِمَكَّةَ أَشْفِي ذَا الْفُؤَادِ الْمَفْنَدَا
واستخدم التمني لإبراز الحالة النفسية في رجاء لقيا الأحبة، يقول^(٤):

إِنْ لَمْ يَجِدْ رَوْضَ ذَاكَ الْوَجْهَ لِي بَجَنِي فَلَيْتَ لِي أَنَّ مَاءَ الثَّغْرِ مَرُودُ
أَوْ كَانَ صَبْرِي عَنِ قَلْبِي لِيُعِدُّكُمْ مَخْرَجاً لَيْتَ أَنَّ النُّومَ مَرْدُودُ
ويقول أيضاً^(٥):

وَمَا بَقِيَ لَمْ تَصْلُنِي مِنْهُ وَاصِلَةً فَلَيْتَهُ كَانَ وَصَّى لِي بِوَصَالِ
واستخدم التمني في بيان معاني الألم والتوجع لفقد العلماء فقد قال في رثاء شيخ الاسلام
سراج الدين البلقيني^(٦):

لَيْتَ اللَّيَالِي أَبَقَّتْ وَاجِدًا جُمِعَتْ فِيهِ هِدَايَةُ أَهْلِ النِّفْعِ وَالضَّرْرِ
وَلَيْتَهَا إِذْ فَدَّتْ عَمْرًا فَدَّتْ عَمْرًا بَطَالِبِيهِ وَأَوْلَاهُمْ بِذَا عَمْرِي

(١) الديوان: ١٤٤.

(٢) الديوان: ١٤٤.

(٣) الديوان: ١٢٧.

(٤) الديوان: ١٣٠.

(٥) الديوان: ١٤٩.

(٦) الديوان: ٢١٩.

ومن أكثر الأساليب انتشاراً في قصائد ابن حجر أساليب الشرط الجازم وغير الجازم، وأكثر ما ورد في قصائد المدح والمدح النبوي، والمقدمات الغزلية، وذلك لغرض توضيح الصورة، وإبراز مكارم الممدوح، فمن أمثال أساليب الشرط الجازم، قوله^(١):

فَإِذَا سَخُوا كَانُوا الْبِحَارِ وَإِنْ سَطُوا
كَانُوا الْأَسْوَدَ أَوْ السُّرَاةَ الصَّيْدَا
وقوله^(٢):

وَإِذْ نَفَرُوا فَازُوا فَهُمْ نَفَرُ التَّقَى
سَقَتَهُمْ سَحَابُ الْعَفْوِ صَفَوْا زَلَالَهَا
وقوله^(٣):

وَحِينَ تَجَلَّى وَجْهَهَا خَضَعُوا لَهُ
فَلِلَّهِ رَبِّي مَا أَعَزَّ جَلَالُهَا
وقوله^(٤):

إِنْ أَبْرَمُونِي بِالْمَلَامِ فَإِنَّ لِي
صَبْرًا سَيَنْقُضُ كُلَّ مَا قَدْ أَبْرَمُوا
وقوله^(٥):

وَلَمَّا دَرَا أَنِّي عَشِيقْتُ فَإِنَّهُ
لَهْوَى الْقُلُوبِ سَرِيرَةٌ لَا تُعْلَمُ
وفي أساليب الشرط غير الجازمة (لو - لولا ، لما) ، فتراه يبدأ قصيدته الاولى في المدح النبوي بقوله^(٦):

لَوْ أَنَّ عُدَّالِي لَوَجَّهَكَ أَسْلَمُوا
لَرَجَوْتُ أَنِّي فِي الْمَحَبَّةِ أَسْلَمُ
وقوله^(٧):

وَلَوْ كُنْتُ تَرَعَى الْوُدَّ مَا مِلْتُ نَحْوَهُمْ
بِسْمِعِ رَعَاكَ اللَّهُ دَهْرًا وَلَا رُعُوا

(١) الديوان: ١١٧.

(٢) الديوان: ١٤٢.

(٣) الديوان: ١٤٢.

(٤) الديوان: ٩٧.

(٥) الديوان: ٩٧.

(٦) الديوان: ٩٧.

(٧) الديوان: ١٧١.

وقوله^(١):

وَلَوْلَا إِشْتِغَالِي فِي مَدَائِحِ أَحْمَدٍ وَأَثَارِهِ مَا كَانَ لِي عَنْهُ شَاغِلٌ
يقول^(٢):

وَلَمَّا أَلَمَّوْا فِي السُّرَى بِيَلْمٍ لِأَجْسَادِهِمْ إِحْرَامُهَا قَدْ حَلَّهَا
وقوله^(٣):

لَمَّا رَأَى الْأَلْحَاطَ تَرْتُشِقُ خَدَّهُ جَاءَ الْعِذَارَ مَقْدَرًا فِي سَرْدِهِ
أما الأسلوب الخبري الطلبي الذي يؤكد بمؤكد واحد فتراه يؤكد حاجته لشفاعة النبي -صلى الله عليه وسلم - بتأكيد مرضه بداء الذنوب ، فيقول^(٤):

قَدْ صَحَّ أَنْ ضَنَاهُ زَادَ وَذَنْبُهُ أَصْلُ السَّقَامِ وَأَنْتَ خَيْرُ طَبِيبٍ
ومنه أيضاً تأكيد المنزلة التي حباها الله لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، في حادثة الإسراء والمعراج^(٥):

قَدْ خُصَّ بِالتَّقْرِيبِ بِالإِسْرَاءِ إِذٍ عَادَ الَّذِي عَادَى الْحَبِيبَ بَعِيدَا
ولتأكيد منزلة ممدوحه تراه يقارنه بالملوك ، فتراه يقول^(٦):

وَقَدْ تَعَلَّى عَلَى بِهِرَامٍ مَنْزِلَةً وَفَاقَ مَلَكاً فَمَا كَسَرَى وَإِفْرِيدُ
ويبين ما حلَّ به بعد حروب التتار من الفاقة مستخدماً أداة التوكيد (قد)^(٧):

قَدْ ضَعُضَعَ الدَّهْرَ حَالِي عِنْدَمَا نُهِبَتْ بِالشَّامِ أَيَّامَ تَيْمُرْلَنِكَ أَمْوَالِي

(١) الديوان: ١١٩.

(٢) الديوان: ١٤٢.

(٣) الديوان: ١٧٣.

(٤) الديوان: ١٠٧.

(٥) الديوان: ١١٥.

(٦) الديوان: ١٤٩.

(٧) الديوان: ١٣٢.

الخبري الإنكاري ، الذي يحتوي على مؤكّد ، فقد ورد في قصائد مدحه للنبي -صلى الله عليه وسلم- ، فتراه يستخدم التوكيد باللام وقد ، في قوله^(١):

وَلَقَدْ كَتَمْتُ هَوَاكَ لَكِن مَقَاتِي شَوْقاً إِلَى مَغْنَاكَ لَيْسَتْ تَكْتُمُ
وقوله^(٢):

فَلَقَدْ قَصْرْتِ عَلَيَّ عِلَاكَ مَدَائِحِي لَمَّا تَلَقَّيْتِي بِبِاعِ أَطْوَلِ
ويبين ما أصاب جسده من الضعف بالتوكيد باللام وقد ، فتراه يقول^(٣):

لَقَدْ ضَعُفْتُ بِالْبَيْنِ حَالِي فَمَا لَكُمْ قَطَعْتُمْ صَلَاتِي مِنْكُمْ وَعَوَائِدِي
ويقول أيضاً^(٤):

لَقَدْ ضَلَّ عَقْلِي فِي هَوَاكَ وَلَمْ يَفِدْ وَحَقَّكَ مِنْ هَذَا النَّسِيبِ نَشِيدُهُ
واستخدم أداة التوكيد إنَّ المكسورة الهمزة في إبراز كرم ممدوحه، فيقول^(٥):

إِنِّي قَصِدْتُ حَمَاكَ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَلَقَيْتُ عِزّاً زَالَ مَعَهُ تَذَلُّي
ويستخدم لفظة (كلّ) لتأكيد وقوعه في الخطأ كمالاً إن لم يسأل كرم ممدوحه، فيقول^(٦):

لَا لَوْمَ إِنِ اسْأَلَ نَدَاكَ عَلَيَّ بَلْ كَلَّ الْمَلَامَ عَلَيَّ إِنِ لَمْ أَسْأَلِ
وكذلك قوله^(٧):

كَلَّ الْمُلُوكَ مُلُوكَ الْأَرْضِ دُونَكُمْ فِي الْجُودِ وَالنَّسَبِ الْعَالِيِ الزَّكِيِّ
وقوله:

(١) الديوان : ٩٨ .

(٢) الديوان : ١٣٦ .

(٣) الديوان : ١٣٨ .

(٤) الديوان : ١٥١ .

(٥) الديوان : ١٣٦ .

(٦) الديوان :

(٧) الديوان : ١٤٨ .

وَمَا كُلُّ مَنْ قَالَ الْقَرِيضَ أَجَادَ فِي الـ مقالٍ وَلَا كُلُّ الْمَجِيدِينَ مُبَدِعُ
أما التوكيد بأسلوب القصر فقد شاع في قصائده بقوله^(١):

لَمْ يُنْسِ أَفْكَارِي قَدِيمَ عُهُودِكُمْ إِلَّا حَدِيثُ الْمُصْطَفَى الْمَسْتَعْنَمِ
وبذلك تأكيد على أن الانشغال بالحديث عن المصطفى -صلى الله عليه وسلم- يغني عن
أي ذكر لمحبيب.
ومنه أيضاً^(٢):

وَلَمْ يَرَ رَبَّهُ جَهْرًا سِوَاهُ لَسَرَ فِيهِ جَلٌّ عَنِ امْتِرَاءِ
وقد استخدم القصر لتأكيد الذم بما يشبه المدح ، وذلك في قوله^(٣)

لَا عَيْبَ فِيهِ غَيْرَ أَنْ رَقِيْبَهُ لَا يَأْتِي فِي لَوْمَةٍ إِنْ يَأْتِ لِي
ومنه أيضاً^(٤):

وَلَا عَيْبَ فِي إِحْسَانِهِ غَيْرَ أَنَّهُ يَسْلَسِلُ أَعْنَاقَ الْوَرَى بِالْقَلَائِدِ
ويقول عن مصر^(٥):

وَلَا خَيْرَ فِيهَا غَيْرَ أَنْ نَزِيلُهَا نَدِيمٌ لِقُرْآنٍ مَدِيمٍ لِأَنْكَارِ
ويستخدم القصر ليعبر عن فضل ممدوحه، فتراه يقول^(٦):

مُجَاهِدٌ نَفْسِي لَا أَرَى مَتَفَضَّلًا سِوَى الْأَشْرَفِ بْنِ الْأَفْضَلِ بْنِ الْمَجَاهِدِ
ويوظف أسلوب القصر لإبراز حالته النفسية في زيارة خيال وطيف المحبوبة ، فمثل زيارة
خيالها بلمحة البصر ، فيقول^(١):

(١) الديوان : ٩٩ .

(٢) الديوان : ١٢٣ .

(٣) الديوان : ١٣٤ .

(٤) الديوان : ١٣٩ .

(٥) الديوان : ١٩٩ .

(٦) الديوان : ١٣٩ .

وَمَا زَلَنِي إِلَّا كَلِمَةً بَارِقِ
وقوله^(٢):

وَمَا يَسْتَوِي فِي الْقَدْرِ بَاعٌ وَاصْبَعٌ
أما التوكيد باستخدام القسم، والقصر بالنفي والاستثناء، من أمثال ما يقوله^(٣):

وَاللَّهِ مَا لِي مِنْ هَوَاكَ تَخْلُصٌ
وكذلك قوله^(٤):

وَاللَّهِ مَا اشْتَغَلْتَ عَنْ ذِكْرِكُمْ فِكْرِي
وكذلك قوله^(٥):

وَأَقْسِمُ أَيْمَاناً بِحَقِّ مُحَمَّدٍ
وقد أقسم على أن موعد هداة عن صباه قد آن ، بقوله^(٦):

لِعَمْرِي لَقَدْ آنَ النَّزْوَعُ عَنِ الصَّبَا
ويقول^(٧):

أَقْسَمْتُ مِنْهُ بِطُفِّ فِي شَمَائِلِهِ
ويقول^(٨):

قَسِماً بِسَقَمِ الطَّرْفِ قَدْ
أَهْدَى لِحِجْمِي مِنْهُ قِسِماً

(١) الديوان : ١٥٠ .

(٢) الديوان : ١٧١ .

(٣) الديوان : ١٠٦ .

(٤) الديوان : ١٤٦ .

(٥) الديوان : ١١٩ .

(٦) الديوان : ١٢٦ .

(٧) الديوان : ١٤٦ .

(٨) الديوان : ١٥٩ .

ويعبر عن ألمه لفراق أهله بالقسم أنه لم يبتعد عنهم كرهاً وإنما كان ذلك لضيق العيش،
فيقول (١):

فَوَاللَّهِ مَا فَارَقْتُهُمْ عَن مَّلَالَةٍ وَهَلْ مَلَ ظَامٍ مَّوْرِدًا فِيهِ يَشْرَعُ

أسلوب الدعاء ، فقد أكثر من استخدام الدعاء ، من أمثال ذلك دعائه للبخاري ومسلم لما
قدماه لهذا الدين، فيقول (٢):

فَجَزَاهُمَا اللَّهُ الْكَرِيمُ بِفَضْلِهِ أَجْرًا بِنَاءٍ عَالَهُ لَا يَتَهَدَّمُ
وفي دعائه للبيهقي (٣):

فَيَا رَبِّ بِالْإِحْسَانِ فِي الْخُلْدِ جَاذِهِ فَإِنَّكَ بِالْإِحْسَانِ كَافٍ وَكَافِلُ
وفي دعائه لمحبيه ، يقول (٤):

لَا أَبْعُدُ اللَّهَ أَحْبَابِي الَّذِينَ شَرَوْا رَقَّ الْمَحَبِّ بِمَا اخْتَارُوا مِنَ الثَّمَنِ
أما الرجاء ، فكان غرضه من قصائد المدح النبوي أن ينال شفاعته من النبي -صلى الله
عليه وسلم- ، فتراه يقول (٥):

مَدَحْتُكَ الْيَوْمَ أَرْجُو الْفَضْلَ مِنْكَ غَدًا مِنْ الشَّفَاعَةِ فَالْحَظَنِي بِهَا طَرْفًا
وقد يكون رجاؤه أن يأجره الله على مديحه للنبي -صلى الله عليه وسلم- بكل بيت غرفة في
الجنة، فيقول (٦):

وَالْمَدْحُ فِيهِ قُصُورٌ عِنْدَكُمْ وَعَسَى فِي الْخُلْدِ يُبْدَلُ مِنْ أَبِيَاتِهِ غُرْفًا

(١) الديوان: ١٦٩.

(٢) الديوان: ١٠٤.

(٣) الديوان: ١٢٠.

(٤) الديوان: ١٨٩.

(٥) الديوان: ١١٣.

(٦) الديوان: ١١٣.

ويستخدم أسلوب الرجاء بـ (عسى) راجياً أن تكون أيادي الملك عبد العزيز وجوده ينسيه ما كان عليه من الهوى ، وتتعلم باله^(١):

عَسَى قَلْبُ مَنْ يَهْوَى تَنْعَمُ بِالْهُ
أَيَادِي الرُّضَى عَبْدِ الْعَزِيزِ وَجُودُهُ
وقد استخدم أسلوب النفي ، فقال في وصف النبي صلى الله عليه وسلم ^(٢):

وَعَيْنُ الْمَالِ جَادٌ بِهَا سَخَاءٌ
فَلَيْسَ يَخَافُ فَقْرًا مِنْ عَطَاءِ
ويقول في مدح الأمير بليغا السالمي^(٣):

وَلَمْ أَرْ يَوْمًا فِي الْفَصَاحَةِ وَالذِّكَا
نَعَمَ وَالِي طُرُقِ الْعُلَامِنَةِ أَبْلَغَا
ويقول في المدح^(٤):

فَلَا قَاطِعَ حَبْلًا لِمَنْ هُوَ وَاصِلٌ
وَلَا وَاصِلٌ حَبْلًا لِمَنْ هُوَ يَقْطَعُ

(١) الديوان: ١٥١.

(٢) الديوان :

(٣) الديوان: ١٦٧.

(٤) الديوان: ١٧٠.

كما شاع في شعره أسلوب الاقتباس، وهو تضمين الكلام آية أو معناها ، أو حديث أو معناه ، مع عدم الإشارة إلى ذلك ، لتأخذ صفة الفجاءة ، فقد كان يقتبس معاني شعره من القرآن الكريم ، مما يمنحه التأثير القوي ، لما تحمله معاني القرآن وألفاظه من البلاغة والاعجاز البياني.

أما الاقتباس من القرآن الكريم فكان واضحاً كثيراً في قصائده متأثراً بمعانيه، وألفاظه، مثلاً في قوله^(١):

اللَّهُ أَيَّدَهُ فَلَيْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فِي أَمْرِهِ أَوْ نَهْيِهِ يَتَكَلَّمُ

مقتبس من قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾^(٢)

وقوله^(٣):

فَلْيَحْذَرِ الْمَرءُ الْمُخَالَفَ أَمْرَهُ مِنْ فِتْنَةٍ أَوْ مِنْ عَذَابٍ يَوْمُهُ

مقتبس من قوله تعالى : ﴿ ... فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾^(٤)

وقوله^(٥):

وَلِقَابٍ قَوْسَيْنِ إِعْتَلَى لَمَّا دَنَا أَوْ كَانَ أَدْنَى وَالْمَهَيْمِنُ أَعْلَمُ

مقتبس من قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾^(٦)

وقوله^(٧):

تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ قَبْلُ وَقَدِ آوَوْا وَفَّوْا نَصَرُوا فَازَوْا شَرَفًا

(١) الديوان : ١٠٠ .

(٢) النجم: آية ٣ .

(٣) الديوان : ١٠٠ .

(٤) سورة النور: آية ٦٣ .

(٥) الديوان : ١٠١ .

(٦) سورة النجم : الآيتان ٨ ، ٩ .

(٧) الديوان : ١١٢ .

مقتبس من قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّامِرَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُجْزَوْنَ مِنْ هَاجِرٍ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١).

وقوله (٢):

لَا يَسْتَوِي مَنْفِقٌ مِنْ قَبْلِ فَتْحِهِمْ بِمَنْفِقٍ بَعْدُ بِالْإِنْفَاقِ قَدْ خَلَفَا
﴿... لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (٣).

أما الاقتباس من الحديث النبوي الشريف فتجده مثل قوله عن العشرة المبشرين بالجنة (٤):

وَبِالرُّضَىٰ خُصَّ مِنْهُمْ عَشْرَةٌ زَهْرٌ يَا وَيْحَ مَنْ فِي مَوَالِدِهِ لَهُمْ وَقَفَا
سَعْدٌ سَعِيدٌ زَبِيرٌ طَلْحَةٌ وَأَبُو عُبَيْدَةَ وَابْنُ عَوْفٍ قَبْلَهُ الْخُفَا

مقتبس من قول النبي صلى الله عليه وسلم: أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد في الجنة، وسعيد في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة (٥).

الناظر إلى اقتباسات ابن حجر يظن أنها فقدت في قصائد المدح النبوي لما لها من ارتباط وثيق بشخص النبي الكريم - صلى الله عليه وسلم - وسيرته ، ولكن لم تقتصر على هذا الغرض فقد تجد في كل غرض من قصائد ابن حجر اقتباساً من القرآن الكريم أو من الأحاديث النبوية.

(١) سورة الحشر : آية ٩ .

(٢) الديوان : ١١٢ .

(٣) سورة الحديد : آية ١٠ .

(٤) الديوان : ١١٢ .

(٥) (سنن الترمذي حديث رقم ٣٧٤٧ : ١٠١/٦).

ففي قصائد المدح، تراه يمدح الملك الأشرف اسماعيل بن العباس، يقول^(١):

وَيَرْفَعُ لِلْعَالِيَا قَوَاعِدَ بَيْتِهِ وَمِنْ شَأْنِ إِسْمَاعِيلَ رَفَعُ الْقَوَاعِدِ

مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٢).

وقال في قصيدة مدح أخرى^(٣):

لَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ ذَا عَذْبٌ وَذَاكَ الْمَلْحُ طَعْمَا

مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ...﴾^(٤)

وفي الغزل تجد اقتباسه من القرآن في مثل قوله^(٥):

لَهُمْ دِينُهُمْ وَهُوَ الْمَلَامُ عَلَيْهِمْ وَلِي دِينٌ حَبًّا لَدَى فِيهِ لِي الْقَتْلُ

متأثر بقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾^(٦).

وكذلك في قوله:

لئن مَالِ إِنْسَانِي لِرؤْيَا غَيْرِهِمْ فوالعصر إني بَعْدَ ذَا الصَّبْرِ فِي خَسْرِ

مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾^(٧).

وفي الرثاء تجد اقتباسه من القرآن الكريم في قوله^(٨):

(١) الديوان: ١٣٩.

(٢) سورة البقرة: ١٢٧.

(٣) الديوان: ١٦٢.

(٤) سورة فاطر: آية ١٢.

(٥) الديوان: ١٩٥.

(٦) سورة الكافرون: آية ٦.

(٧) سورة العصر: آية ٢، ١.

(٨) الديوان: ٢١٦.

اللَّهُ أَكْبَرُ مَا هَذَا سِوَى مَلِكٍ وَحَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا مِنَ الْبَشَرِ
مقتبس من قوله تعالى: ﴿... وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (١).
وقوله (٢):

طَوَيْتَ عَنَّا بِسَاطِ الْعِلْمِ مَعْتَلِيًّا فَاهِنَا بِمَقْعَدِ صَدَقٍ عِنْدَ مَقْتَدِرٍ
مقتبس من قوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صَدَقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (٣).
وفي موشحاته كتب قائلاً (٤):

وَقَدْ سَأَلُوا الرَّيَّا فَقَالَ اهْبِطُوا مَصْرًا
مقتبس من قوله تعالى: ﴿... اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ...﴾ (٥).
وقال في مقطوعاته (٦):

يَا مَعْشَرَ التُّجَّارِ أَمْوَالِكُمْ أَدُوا زَكَاتَهَا وَلَا تَكْأَبِرُوا
مَنْ قَبْلَ أَنْ تَصِيبَكُمْ قَارِعَةٌ لِأَنَّكُمْ أَهْلَاكُمْ التَّكَاتُرَ
مقتبس من قوله تعالى: ﴿الْهَآكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ (٧).
وقال أيضاً في مقطوعاته (٨):

خَاضَ الْعَوَانِلَ فِي حَدِيثِ مَدَامِعِي لَمَّا جَرَتْ كَالْبَحْرِ سُرْعَةَ سِيرِهِ
فَعَتَمْتَهُ لِأَصْوَانِ سِرِّ هَوَاكُم حَتَّى يَخْوِضُوا فِي حَدِيثِ غَيْرِهِ

(١) سورة يوسف: آية ٣١

(٢) الديوان: ٢١٨.

(٣) سورة القمر: آية ٥٥.

(٤) الديوان: ٢٣٦.

(٥) سورة البقرة: آية ٦١.

(٦) الديوان: ٢٤٣.

(٧) سورة التكاثر: آية ١.

(٨) الديوان: ٢٤٧.

مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرَأَتُ الَّذِينَ يُخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ

غَيْرِهِ﴾^(١).

وقال في الزهد^(٢):

أقل من أجل القيام العشا	ولا تنم قبل صلاة العشا
واقض مهماتك من قبلها	ولا تسامر بعدها من عشا
ونم لحظ العين شيئاً	في الليل سل ربّ العلاما تشا
فإنه أكرم من يرتجى	وإنه أعظم من يخشى
وإنه قال ادعني أستجب	وما على صبح عطاه عشا

مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي

سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾^(٣).

التضمين:

وهو أن يضمن الشعر شيئاً من شعر الغير، مع التنبيه عليه إن لم يكن مشهوراً عند البلغاء^(٤)، ومن أمثلة التضمين وهو تداخل أو تقاطع بين النصوص في الألفاظ، أو المقاطع، أو السياق، وهو قد يدل على تأثر الشاعر بمعاني شعراء سابقين طرقتوا نفس المعاني بأسلوبهم، وتجد ذلك عند ابن حجر في ديوانه، مثل قوله^(٥):

وَدَمَّتْ تَعْرَى عَنِ الْأَسْوَا تَصَوْمُ عَنِ الـ فحشا علأ وَسِوَاكَ الطَاعِمُ الكاسي

(١) سورة الأنعام: آية ٦٨.

(٢) الديوان: ٢٧٢.

(٣) سورة غافر: آية ٦٠.

(٤) بغية الايضاح: ص ٦٩٣.

(٥) الديوان: ١٨٤.

مقتبس من قول الحطيئة^(١):

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرْحَلْ لِبَغِيَّتِهَا
واقعدُ فإنك أنت الطاعم الكاسي
وقوله^(٢):

يَا ظَبِيَّةَ مَا رَعَتَ عَهْدِي وَقَدْ نَفَرْتِ
ليهنك اليوم أن القلب مرعاك
مقتبس من الشريف الرضي في قوله^(٣):

يَا ظَبِيَّةَ الْبَانَ تَرَعَى فِي خَمَائِلِهِ
ليهنك اليوم أن القلب مرعاك
وقوله^(٤):

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبَيْتَنَ لَيْلَةَ
بمغّة أشفي ذا الفؤاد المفندا
مقتبس من قول الشاعر جميل بثينة ، في قوله^(٥):

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي، هَلْ أَبَيْتَنَ لَيْلَةَ
بوادي القري ؟ إني إذن لسعيد!

(١) ديوان الحطيئة: برواية وشرح ابن السكيت ، دراسة وتبويب د. مفيد محمد قميحة، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص ١١٩.

(٢) الديوان : ١٧٨.

(٣) ديوان الشريف الرضي : اعتنى به وشرح ألفاظه محمد بن سليم اللبابيدي ، طبعة المكتبة الأدبية في بيروت، ١٢٠٩، ٣٨/٢.

(٤) الديوان : ١٢٧.

(٥) ديوان جميل بثينة : طبعة دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨٠م ، ص ١٦.

الصورة الشعرية

كان لقضية اللفظ والمعنى في التراث النقدي أهمية لإبراز الصورة الشعرية فالخلاف الحاصل بين أنصار اللفظ وأنصار المعنى وغلبة أنصار المعنى على اللفظ وشيوع مصطلح المعنى واهتمامهم به أدى إلى ندرة استعمال مصطلح الصورة^(١).

حتى جاء عبد القاهر الجرجاني وخرج على هذه الفكرة، ولم ينظر إلى الشعر على أنه معنى أضيف إليه مبنى، وإنما نظر إليه معنى ومبنى، لا سبق لأحدهما على الآخر وهما ينتظمان في الصورة: واعلم أن قولنا "الصورة"، إنما هو تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا^(٢).

وللصورة الشعرية أهمية أدبية كبيرة فهي تعد من القيم الهامة والأساسية في الأعمال الأدبية، وفي فن الشعر خاصة؛ لأنها هي الوسيلة الجيدة الدقيقة في إظهار التجارب الشعرية بما تحوي من أفكار وخواطر، ومشاعر وأحاسيس، وبدونها لا نعرف شيئاً بدقة عن تجارب الغير، فكما لا يستطيع الغير أن يعرف عن تجاربنا شيئاً^(٣).

وقد حاول بعض النقاد وضع مفهوم للصورة الأدبية فقالوا بأنها التركيب القائم على الإصابة في التنسيق الفني الحي لوسائل التعبير التي ينتقيها وجود الشاعر -يعني خواطره ومشاعره وعواطفه- المطلق من عالم المحسّات ليكشف عن حقيقة المشهد أو المعنى، في إطار قوي نام محسن مؤثر، على نحو يوقظ الخواطر والمشاعر في الآخرين^(٤).

فالصورة هي المادة التي تتركب من اللغة بدلالاتها اللغوية والموسيقية، ومن الخيال الذي يجمع بين عناصر التشبيه والاستعارة والكناية والطباق وحسن التعليل^(٥).

(١) بشرى موسى صالح: الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٤، ص ٣٢.

(٢) عبد القاهر الجرجاني (المتوفى: ٤٧١هـ): دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق محمود محمد شاكر أبو فهر، الطبعة الثالثة، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م. ص ٥٠٨.

(٣) انظر: علي علي صبح: الصورة الأدبية تاريخ ونقد، طبعة دار إحياء الكتب العربية، د.ت، ص ١٠٩.

(٤) انظر: الصورة الأدبية تاريخ ونقد: ص ١٤٩

(٥) أحمد الشايب: أصول النقد الأدبي، الطبعة العاشرة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٩٤م، ص ٢٤٩.

أما مقياس الصورة الأدبية، هو قدرتها على نقل الفكرة والعاطفة بأمانة ودقة والصورة هي العبارة الخارجية للحالة الداخلية، وهذا ومقياسها الأصيل، وكل ما نصفها به من جمال إنما مرجعه إلى التناسب بينها، وبين ما تصور من عقل الكاتب ومزاجه تصويرًا دقيقًا، خاليًا من الجفوة والتعقيد فيه روح الأديب وقلبه، كأنا نحادثه، ونسمعه كأنا نعامله^(١).

والخيال دور بارز في الصورة الشعرية فهي الملكة التي يستطيع بها الادباء أن يؤلفوا صورهم ، إنما يؤلفونها من إحساسات سابقة لا حصر لها ، تختزنها عقولهم وتظل كامنة في مخيلتهم ، حتى يحين الوقت ، فيؤلفوا منها الصورة التي يريدونها^(٢)

وقد جعل النقاد القدرة البيانية المتمثلة في الصورة الأدبية من عناصر الأدب القوي الخالد يقول أحمد الشايب: " إن الأدب القوي الخالد يقوم على ثلاثة عناصر:

١. صدق الشعور وصحة التفكير
٢. الرغبة الصادقة في نقلهما إلى القراء كما هي.
٣. القدرة البيانية المتجلية في الصورة الأدبية"^(٣).

(١) أحمد الشايب: أصول النقد الأدبي، ص ٢٥٠.

(٢) شوقي ضيف: في النقد الادبي، الطبعة التاسعة، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص ١٦٧.

(٣) أحمد الشايب: أصول النقد الأدبي، ص ٢٥١.

الصورة الشعرية في قصائد ابن حجر:

الناظر والمتأمل في تصويرات ابن حجر في قصائده التي حاول بها تقريب ما أراده إلى ذهن المتلقي، يجد أن لديه خيالاً واسعاً، وخبرة عميقة، وقدرة على تطويع الألفاظ والمعاني لخدمة ما يصبو إليه، فمن خلال استقراء قصائد ابن حجر وما ضمنها من تشبيهات واستعارات وصور بيانية جميلة، رأيت أن أقسمها إلى أقسام أهمها:

أولاً/ التشبيه:

التشبيه لغة : التمثيل ، وهو مصدر مشتق من مادة شبه ، أما اصطلاحاً : الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى بأداة من أدوات التشبيه الظاهرة أو المقدره^(١).

ويعد التشبيه عنصر مهم من عناصر التصوير، لا تتأتى الإجابة فيه إلا لمن توافرت له أدواته من لفظ ومعنى وصياغة وسمو خيال ورهافة حس.

وتجد ديوان ابن حجر حافل بالصور التشبيهية التي يعد التراث، والطبيعة، ومشاهد الحياة التي ألفها ورآها في بيئته من أهم مصادره، فمن الصور المستمدة من التراث تجد يصور كرم ممدوحه بالبحر، يقول^(٢):

فإذا سخوا كانوا البحار وإن سطوا
كانوا الأسود أو الشراة الصيدا
فهنا يصور جود وكرم صحابة النبي - رضوان الله عليهم - بالبحر في العطاء الفياض، وكذلك يصور شجاعتهم وقوتهم بالأسود في سطوتها، فأضفى على صفات الجود والشجاعة صفات حسية، وهو ما يطلق عيه التجسيم.

وصور النبي - صلى الله عليه وسلم - بالأسد في شجاعته، والغيث في كرمه وجوده، وقد عبر عن ذلك بالتشبيه البليغ، مبالغة في تأكيد المعنى وتفخيمه، يقول^(٣):

الليثُ والغيثُ في يومي ندى وِردى
والصديقُ الفعلُ في يومي وغي وِوفا

(١) انظر: من بلاغة القرآن ص ١٤٨.

(٢) الديوان: ١١٧.

(٣) الديوان: ١١٠.

وقد جمع بين صفتي الكرم والمهابة بتصويرها بالغيث الذي يجود بالخير، ويخيف الناس ببرقه ورعده، يقول^(١):

أضاف إلى البشر المهابة والندی كغيث همى مع برقه والرواعد
حيث شبه صفتي المهابة والندی بالغيث، وسر ذلك التجسيم.

وفي تقليل وصف كرم الممدوح بالغيث، فقد صورته بالذي يشبه البسام بالباكي، يقول^(٢):

يا مَنْ يُشَبِّهُهُ بِالْغَيْثِ مِنْ كَرَمٍ مَنْ ذَا الَّذِي شَبَّهَ الْبَسَامَ بِالْبَاكِي
أما التصوير المستمد من الطبيعة، فتراه في معجزات خير البرية - صلى الله عليه وسلم - في وضوحها وصدقها وتأبيدها من الله - عز وجل - كالشمس لا تبقى مكاناً إلا ووصلت إليه، فأضاعت للبشرية نور الهدى، ولكن هذا النور محجوب عن من تنكر للهدى وعمي عن الحق، يقول^(٣):

ذِي الْمُعْجَزَاتِ فَكُلَّ ذِي بَصَرٍ غَدَا لِيَصَوَّبَهَا بِالْعَيْنِ ذَا تَصْوِيبٍ
كَالشَّمْسِ ضَاعَتْ لِلْأَنَامِ وَأَشْرَقَتْ إِلَّا عَنِ الْمَكْفُوفِ وَالْمَحْجُوبِ
فجعل صدق المعجزات في وضوحه وبيانه للناس، كالشمس في لمعان بريقها للعيان، وهنا الغرض من هذا التشبيه التوضيح لأنه تصوير محسوس بمحسوس.

وقد شبه علم ممدوحه بالشمس، في انتشاره ونوره، لكن يختلف مع الشمس في أن الشمس تزول لكن علمه تنزه عن الزوال، على سبيل التجسيم، يقول^(٤):

وَعُلُومُهُ كَالشَّمْسِ لَمْ تَزَلْ تَنْزَهُ عَنِ زَوَالٍ
فالشَّمْسُ عِنْدَهُ رَمَزٌ لِلْوُضُوحِ وَالْإِنْتِشَارِ.

(١) الديوان: ١٣٩.

(٢) الديوان: ١٨٠.

(٣) الديوان: ١٠٦.

(٤) الديوان: ١٨٥.

ومن الصور المستمدة من الطبيعة والبيئة التي يحيا بها ، صورة وجوه أصحاب رسول الله - رضوان الله عليهم - وقد شبهها بالدرّ، في الجمال والنور المنبثق من هداهم، وما نالوه من السعادة في الدنيا والآخرة، يقول^(١):

وَجْوهُ أَصْحَابِهِ كَالدَّرِّ مُشْرِقَةٌ إِذَا رَأَيْتَ إِمْرَعًا عَنْ هَدِيهِمْ صَدَفًا
نالوا السعادة في دنيا وآخرة والسبقَ والفضلَ والتقديمَ والشرفا

وفي صورة الهرم والكبر ، فقد شبه المشيب بالنسر الذي يعيش في شعره المجاوز لشحمة الأذن، يقول^(٢):

وَعَشَّشَ نَسْرٌ لِمَشْيِبِ بِلْمَتِّي وَطَارَ بَيْنِي وَالشَّبَابِ غَرَابِي

وعلى سبيل التشبيه البليغ فقد شبه متاع الدنيا بشهواتها ومتعها وزخرفاتها بالزهرة الجامعة لمعاني الحسن والجمال، والتي لم يقطفها النبي - صلى الله عليه وسلم -، بل تركها وابتعد عنها^(٣):

لَمْ يَقْطِفْ زَهْرَةَ الدُّنْيَا وَزَيْنَتَهَا بَلْ مَالَ عَنْهَا وَلَا حَتَّ رَوْضَةً أَنْفَا

وقال يرد على قصيدة للشيخ الامام إبراهيم الحجاقي - حيث أرسل إليه قصيدة يهنئه فيها بالسلامة- ، حيث يصور قصيدته بنظمها وانسجامها بالغيث في تسلسله، يقول^(٤):

ذُو النِّظْمِ كَالغَيْثِ اَنْسَجَامًا إِذَا دَعَاهُ لَا يَخْطِئُ صَوْبَ الصَّوَابِ

ومن المعاني المستمدة من الطبيعة وصف المحبوب البدر في الجمال والغصن الطري، الذي يسرق العقول والقلوب ، يقول^(٥):

مَنْ لِي بِهِ كَالْبَدْرِ إِلَّا أَنَّهُ كَالْغُصْنِ يَسْبِي الْمُجْتَنِي وَالْمُجْتَنِي

(١) الديوان: ١١٢.

(٢) الديوان: ١٩٣.

(٣) الديوان: ١١١.

(٤) الديوان: ٢٠٤.

(٥) الديوان: ١٣٤.

ومن التصوير المستمد من الطبيعة تشبيه قوام المحبوبة بالغصن، لغرض تزيين المشبه،
مثل قوله^(١):

وَأَهْيَفِ خَطَرَتْ كَالْغُصْنِ قَامَتْهُ فَكَلُّ قَلْبٍ إِلَيْهَا مِنْ هَوَاهُ هَفَا

وفي صورة تجمع القد والعجز، فتراه يرسم صورة الغصن المرتكز على الشجرة كثيفة الأوراق،
يقول^(٢):

وَقَدُّهُ قَدْ رَسَا مِنْ تَحْتِهِ كَفَلُّ كَالْغُصْنِ فَوْقَ الْكَثِيبِ الرَّاسِخِ الرَّاسِي

أما تمايل خصره وقده فهي كاليزني الناعم ، أما لحظه مثل السيف القائل، يقول^(٣):

تَهْتَزُّ كَالْيَزْنِيِّ اللَّدَنِ قَامَتْهُ وَإِنَّمَا لِحْظُهُ سَيْفٌ بَنِي ذِي يَزْنٍ

أما صورة خده فهو كشقيقة النعمان الطري في جمالها ورقتها ، ولونها الأحمر البراق،
فالشمس تبقى محجوبة خجلة من جماله، فيقول^(٤):

ذُو وَجْنَةٍ كَالشَّقِيقِ الْغَضِّ فِي تَرْفٍ يَظَلُّ مِنْهَا جَبِينُ الشَّمْسِ مَنكِسِفَا

وفي وصف الريق فقد شبهه بالخمير، لكنه يفوق الخمر حلاوة، يقول^(٥):

وَرَيْقُهُ كَالْخَمْرِ لَكِنَّهَا حَلَّتْ وَحَلَّتْ فَكَانَتْ فِي فَمِي مِنْهُ أَسْوَعَا

وعلى سبيل التشبيه البليغ تراه يصف الريق بكأس الخمر، يقول^(٦):

دَعِيَ الْعِتَابَ وَهَاتِي كَأْسَ فَيْكَ فَمَا فِي ذَا الْحَدِيثِ رَعَاكَ اللَّهُ أَوْهَاكَ

وهذا التصوير المستمد من الطبيعة تراه غالباً يستخدمه في وصف جمال المحبوبة؛ لأن
الطبيعة بأزهارها ، وأشجارها ، وسمائها ، وجمالها ، وغيرها من مظاهر الطبيعة منبع الجمال،
وتجد الشاعر قد برع في استخدام هذا المظاهر في تصوير محبوبه.

(١) الديوان : ١٠٩ .

(٢) الديوان : ١٨١ .

(٣) الديوان : ١٨٧ .

(٤) الديوان : ١٠٩ .

(٥) الديوان : ١٦٦ .

(٦) الديوان : ١٧٩ .

وتراه يستمد صورته من أدوات الحرب ، مثل تشبيهه بلاغة ممدوحه وفصاحته ، بالسيف الخاطف، يخطف به بصر الأعداء، مثل البرق الذي يخطف الأبصار، يقول^(١):

مِنْ كُلِّ حَرْفٍ مِثْلِ سَيْفٍ خَاطِفٍ بَصَرَ الْعِدَا كَالْبَرْقِ لَمَعُ فَرْنِدِهِ
وسر الجمال فيها التجسيم.

ويستخدم الرمح في وصف قد المحبوبة، والهدف لهذا الرمح هو القلب، وتراه يصورها بالرمح القاتل الذي يطعن القلوب، يقول^(٢):

لَا طَعْنَ فِيهِ وَقَدْ الرُّمْحُ قَامَتْهُ لَكِنَّ قَلْبِي لَهُ أَضْحَى كَبُرْجَاسٍ^(٣)
أما نظرات محبوبة فهي قاتلة الشاعر فمقلتها كالسهم ، والحاجب قوسه ، والهدف الذي يرمى إليه هو قلب الشاعر^(٤):

كَالسَّهْمِ مُقَاتِلُهُ وَالْقَوْسِ حَاجِبُهُ وَمُهَجَّتِي لَهَا قَدْ أَصْبَحَتْ هَدَافًا
ومن كثرة قتلى عشاقه فقد صور رمح قامته بطاعون عمواس، يقول^(٥):

أَضْحَى لِعَشَّاقِهِ مِنْ رَمْحِ قَامَتِهِ طَعْنَ ذَكَرْنَا بِهِ طَاعُونَ عَمَواسِ
أما جفن المحبوب فقد شبهه بالسيف، وشبه لمعان وجمال وبريق وجنتيها بما يرى من انعكاس ضوء السيف عليها، وغمد ذلك السيف هو القلب، فيقول^(٦):

وَجَفْنِ كَسَيفٍ وَجَنَّتَاكِ فَرْنِدُهُ صَاقِيلٍ وَلَكِنَّ الْقُلُوبَ غَمُودُهُ
فقد شبه الخد بالأخدود التي تسير فيه نار الدمع كناية عن شدة الشوق، يقول^(٧):

(١) الديوان: ١٧٥.

(٢) الديوان: ١٨١.

(٣) البُرْجَاسُ : البُرْجَاسُ : هدفٌ يُنصَبُ على رُمحٍ أو ساريةٍ (يونانية) ومعناه عندهم : رمح أو سارية في أعلاه كرة من ذهب أو فضة ، يرميها الحُدَّاقُ وهم على الجياد . والجمع : براجيس . (المعجم الوسيط: ٤٧/١).

(٤) الديوان: ١٠٩.

(٥) الديوان: ١٨١.

(٦) الديوان: ١٥٨.

(٧) الديوان: ١٢٩.

النَّارُ ذَاتُ وَقُودٍ فِي جَوَانِحِهِ شَوْقًا وَفِي خَدِّهِ لِلدَّمْعِ أَخْدُودُ

فتجد الكلمات السيف والرمح، والقوس، البرجاس، الغمد، ألفاظ حرب وقتال ولها تأثير كبير في إحداث الجرح بالأعداء، وقد استخدمها الشاعر في وصف مدي تأثير جمال المحبوب فيه، فالرمح - وهو قد المحبوبة - أصبح قلب الشاعر الهدف الذي يسدد إليه، وكذلك السهم - وهي نظرات المحبوبة - ، والسيف - هو الجفن - أضحى القلب غمده، كلها صور تبين مدى التأثير في نفس الشاعر.

ومن الصور المستمدة من حياة الشاعر، استخدامه للتشبيه البليغ في تشبيه الموت بالكؤوس التي يتشرب منها الطغاة، وقد وردت هنا الكؤوس جمعاً، كعامل نفسي عجل من شفاء قلوب المؤمنين، يقول^(١):

وَسَقَى الطُّغَاةَ كُؤُوسَ حَتْفٍ عَجَلَتْ لِلْمُؤْمِنِينَ زَهَابَ غَيْظِ قُلُوبِ

وتشبيه الشرك بالقميص، إنما كان هذا التشبيه لبيان هوان الشرك، وخفته، وعدم تماسكه، وسهولة تمزيقه، يقول^(٢):

وَفِي حَنِينٍ قَمِيصُ الشَّرِكِ لَيْسَ لَهُ لَمَّا تَمَزَّقَ رَافٍ مِنْ عَدَاةِ رَفَا

وهنا تجسيم للصفة المعنوية - الشرك - بتشبيهها بشيء محسوس وهو القميص.

وقد صور نفسه أسيراً بقيود الغرام^(٣):

قُولُوا لِمَنْ مَلِكُ الْفُؤَادِ بِأَسْرِهِ فَعَدَا بِقَيْدِ غَرَامِهِ مَصْفُودَا

فقد شبه الغرام بالقيود الذي يصفد به الإنسان، وسر الجمال هنا التجسيم.

(١) الديوان: ١٠٦.

(٢) الديوان: ١١١.

(٣) الديوان: ١١٤.

ويشبه اللوم في هواه كالهواء، الذي لا يطفئ نار الشوق والحب، وشبه أيضاً الشوق بالنار، التي لا تخدم حتى بالبكاء، وشبه اللوم بالرياح، على سبيل التجسيم، يقول^(١):

هَوَى فِيهِ الْمَلَامَةُ كَالهَوَاءِ فَلَا يَطْمَعُ لِنَارِي فِي انْطِفَاءِ
أَعَاذِلُ إِنَّ نَارَ الشُّوقِ تَذْكُو وَلَمْ يَخْمِدْ تَلْهُبُهَا بُكَائِي
ويبعد طفوها برياح لوم ومن جفني لم تخدم بماء

وقد شبه في مقطوعه كلام ممدوحه بالضرع الذي يدر المعاني الحسان، يقول^(٢):

يا أيها القاضي الذي مراده موافقُ حكمِ القضاءِ والقدرِ
درّ له ضرع الكلام حافلاً حتى احتوى على المعاني واقتدر

(١) الديوان: ١٢٠، ١٢١.

(٢) الديوان: ٢٤٦.

الاستعارة:

الاستعارة في اللغة : مشتقة من العارية ، وهي نقل الشيء من شخص إلى آخر، وفي الاصطلاح: استعمال اللفظ في غير وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى الأصلي للكلمة، والمعنى الذي نقلت إليه الكلمة مع وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي^(١).

ومن مظاهر التصوير في الاستعارة : التشخيص والتجسيد في المعنويات ، وبث الحركة والحياة في الجماد فتحول الصورة من شكل صامت إلى شكل متحرك^(٢).

وإذا نظرت في ديوان ابن حجر ترى أن شعره قد حفل بنوعي الاستعارة (التصريحية والمكنية)، وتلاحظ أيضاً أن الاستعارة المكنية الأكثر وروداً في شعره وذلك لما تتسم به من خاصيتي التشخيص والتجسيم.

الاستعارة المكنية:

وهي ما حذف منها المشبه به (المستعار منه) ، وبقيت صفة من صفاته ، أو لازمة من لوازمه، ومن أمثلة ذلك عند ابن حجر^(٣)، قوله^(٤):

يا مخجلَ الشمسِ بالإشراقِ إنَّ فتىً طلعتَ في داره يوماً لمسعود

فقد شبه الشمس بشخص يخجل، وهو بذلك أضفى على الشمس صفة من صفات البشر وهي الخجل فيكون سر جمال التصوير هنا التشخيص.

ومن ذلك أيضاً، قوله^(٥):

فالعَيْثُ من جوده في الجذبِ معترفاً كاللَيْثِ من بأسِهِ في الحربِ معترفاً

(١) من بلاغة القرآن ص ٢١٥.

(٢) السابق : ص ٢٣٠.

(٣) السابق : ص ٢١٧.

(٤) الديوان : ١٢٩.

(٥) الديوان : ١١٠.

فالغيث يعترف من جوده ونداه، والليث يعترف ببيأسه وقوته، وهو بذلك قد أضفى على الغيث والليث صفات بشرية، لغرض التشخيص.

ومن ذلك قوله^(١):

والطيف ما زار إذ باب الزيارة من فرط السهاد بفتح الجفن مسدودُ
فقد شبه الطيف بإنسان يقع منه الزيارة، وسر الجمال التشخيص.

وقوله^(٢):

أحبابنا عبثت أيدي السقام بنا من بعدكم فبماضي ودكم عودوا
فقد شبه السقام بإنسان له أيدي تعبث بالآخرين، وسر جمال التصوير التشخيص.

وقوله^(٣):

قد أمن الكون من خوف ونوره منزلةً أبناؤه الغر أو آباؤه الصّيدُ
فقد شخص الكون وجعله يأمن من الخوف.

وفي صورة الأمن والطمأنينة التي يعيشها رعاياه، فالبرق على ما فيه من القوة والقدرة على القتل، وما يثيره في النفوس من الخوف، تراه يرتجف رعباً من الملك، يقول^(٤):

نام الرعايا وَقَلْبُ الْبَرْقِ يَخْفِقُ من رعب به وبطرف النجم تسهيدُ
فقد شخص البرق وجعل له قلب يخفق.

وقد صور حال رمحه وهو يسقيه من دماء الأعداء على سبيل التشخيص، لتخرج الثمار وهي هامات الأبطال، يقول:

سقى الرماح دما الأعداء مبتدراً فكان إثمارها هامات أبطال

(١) الديوان : ١٣٠.

(٢) الديوان : ١٣٠.

(٣) الديوان : ١٣٢.

(٤) الديوان : ١٣١.

ومن صور الرعب التي زرعها في قلوب أعدائه، فقد شبه الرعب بالسيف الذي يقطع الرقاب،
يقول^(١):

سُئِلْتُ رُؤُوسَهُم بِالرَّعْبِ مِنْ أَمْدٍ وَطَرَفُ مُرْهَفِهِ فِي الْجَفْنِ مَغْمُودُ
وكذلك قوله^(٢):

إِنْ مَاسَ تَجْرِي مُقَاتِي بِدِمَائِهَا فَكَأَنِّي فِيهَا طُعِنْتُ بِقَدِّهِ
فعيناه لم تذرنا الدموع بل الدماء، كأنها طعنت بالرمح الذي هو قوام المحبوبة، فقد شبه قوام
المحبوبة بالرمح الذي يطعن به، وسر الجمال هنا التوضيح وتقريب الصورة للمتلقى.
وشبه نفسه بالشجرة التي تحيا بالماء فتصبح مخضرة، وتذبل بدونه، وهذا الماء بالنسبة له
هو وصال المحبوبة، يقول^(٣):

قَدْ إِصْفَرَ فِي يَوْمِ الْقَلْبِ مِنْكَ جِسْمُهُ وَمَا إِخْضَرَ فِي يَوْمِ اللَّقَا بِكَ عَوْدُهُ
شبه آثار النبي - صلى الله عليه وسلم - بالدواء الشافي لمرض الذنوب، فيقول^(٤):

آثَارُ خَيْرِ الْمُرْسَلِينَ بِهَا شِيفَا دَاءِ الذُّنُوبِ لِخَائِفٍ يَتَّهَمُومُ
وسر الجمال هنا التجسيم، فالآثار أصبحت دواء.

الاستعارة التصريحية:

ويقول على سبيل الاستعارة التصريحية^(٥):

هَلَالٌ وَلَكِنَّ الْقُلُوبَ مَحْلُوهُ غَزَالٌ وَلَكِنَّ الْعِذَارَ زُرُودُهُ
فقد شبه جمال المحبوبة بجمال الهلال في إضاءته ونوره ولمعانه.

(١) الديوان: ١٣١.

(٢) الديوان: ١٧٣.

(٣) الديوان: ١٥١.

(٤) الديوان: ١٠٠.

(٥) الديوان: ١٥٠.

ومن الملاحظ أن ابن حجر استخدم علم البيان بأساليبه وأنواعه فتراه يكثر من التشبيه في تقريب الصورة لذهن السامع، والاستعارة التصريحية وما لها من تأثير في النفوس يعتمد على الخيال، وعرض الصور حسياً مجسماً، فإذا كان التشبيه يأتي لبيان المعنى وإيضاح الفكرة، فإن الاستعارة أكثر ما تكون تستعمل في القوة وشدة التأثير على السامعين^(١).

وفي الاستعارة التصريحية ذلك يقول عبد القاهر الجرجاني: " من الفضيلة الجامعة فيها أنها تُبرز هذا البيان أبدأً في صورة مُستجدة تزيد قدره نُبلًا، وتوجب له بعد الفضل فضلاً، وإنَّكَ لَتَجِدُ اللفظة الواحدة قد اكتسبتَ بها فوائد حتى تراها مكررة في مواضع، ومن خصائصها التي تُذكرُ بها، وهي عنوان مناقبها، أنَّها تُعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ"^(٢).

وقد عمد أيضاً ابن حجر في صوره على التشبيه البليغ الذي ينبئ بالتطابق بين المشبه والمشبه به بدون فواصل - الأداة ووجه الشبه-.

(١) انظر : من بلاغة القرآن، ص ٢٢٩.

(٢) عبد القاهر الجرجاني(المتوفى: ٤٧١هـ) : أسرار البلاغة ، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، د.ت، ص ٤٣.

الموسيقى الشعرية

تعريف القدماء للشعر بأنه الكلام الموزون المقفى ، جعل ما يميز الشعر عن غيره الوزن والقافية ، "فالوزن له قيمة كبرى في الشعر حتى عدَّ أهم فارق بينه وبين النثر" (١) ، وقد أضاف إليه بعض النقاد الخيال فقال ابن خلدون : " الشعر هو الكلام المبني على الاستعارة والأوصاف، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي" (٢).

أما المحدثون وضعوا أركاناً ثلاثة يجب أن تتوافر في الكلام ليسمى شعراً :

أولها : أن معانيه تصب في صور خيالية تثير خيال القارئ أو السامع .

ثانيها : أن تتوافر في ألفاظه صفة التجانس بين اللفظ والمعنى ، وذلك بأن يكون اللفظ رقيقاً في موضع الرقة ، قوياً عنيفاً في موضع القوة والعنف ، وأن تتوفر فيه صفة الجرس الموسيقي ، وألا يكون اللفظ مبتدلاً أو كثير الشبوح لا يرتاح إليه الذوق الشعري.

ثالثها : الوزن الشعري وخضوع الكلام في ترتيب مقاطعه إلى نظام خاص (٣).

والناظر إلى نشأة علم العروض يرى مدى الارتباط بينه وبين الموسيقى فعلاقة الشعر وعلم العروض بالموسيقى علاقة السبب بالمسبب ، فدراية الخليل بن أحمد بعلم الموسيقى والإيقاع كان سبباً في تأليفه علم العروض (٤)، كما يقول القفطي " وله - أي الخليل - علم بالإيقاع، وله كتاب فيه. ومعرفته بالتَّغْم ومواقعها أحدث له علم العروض" (٥).

فبذلك يتضح أن بداية هذا العلم - أي الشعر - بداية موسيقية، ترتبط بما يوقعه هذا الكلام الموزون المقفى، على المتلقي من أثر وترنم.

(١) أحمد أمين: في النقد الأدبي، ص ٨٧.

(٢) إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر، ط ١، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٢م، ص ١٩.

(٣) انظر: السابق، ص ٢٠.

(٤) انظر: (مقدمة البارع في علم العروض ، ص ٧٨)

ابن القطاع (ت ٥١٥هـ) : البارع في علم العروض ، دراسة وتحقيق : أحمد محمد عبد الدايم، الطبعة الثانية، مكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة ، والسعودية، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥.

(٥) جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (ت ٦٤٦هـ): إنباه الرواة على أنباه النحاة تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي - القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية - بيروت، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٢م، ٣٧٨/١.

وقد ربط بعض النقاد الموسيقى بالشعر حتى جعلها بمثابة الألوان للصورة ، من ذلك ما قاله شوقي ضيف: "ولا تزال طوابع هذه النشأة بارزة في الشعر، فلا يوجد شعر بدون موسيقى ، وهي فيه تقوم مقام الألوان في الصورة ، فكما أنه لا توجد صورة بدون ألوان كذلك لا يوجد شعر بدون موسيقى وأوزان وأنغام"^(١).

كما أن الموسيقى في الشعر خصائص تأتيه من الموسيقى الخارجية المتمثلة في الوزن والقافية، والموسيقى الداخلية المتمثلة في ألوان البديع كالجناس، والمقابلة والتقسيم والتصريح وغيرها من ألوان البديع ، هناك نوع آخر من الموسيقى وهي الموسيقى الخفية كما أطلق عليها شوقي ضيف، واعتبر أن هذه الموسيقى الخفية التي تميز بين الشعراء، فيقول: "على ان موسيقى الشعر لم يضبط منها إلا ظاهرها وهو ما تضبطه قواعد علمي العروض والقوافي ، ووراء هذه الموسيقى الظاهرة موسيقى خفية تتبع من اختيار الشاعر لكلماته ، وما بينها من تلاؤم في الحروف والحركات ، وكأن للشاعر أدناً داخلية وراء أذنه الظاهرة تسمع كل شكلة وكل حرف وحركة بوضوح تام، وبهذه الموسيقى الخفية يتفاضل الشعراء"^(٢).

أما وجه الشبه بين الشعر والموسيقى يتجلى في أن كلا من الموسيقى والأوزان الشعرية تتنوع أنواعاً أربعة ، فالصوت يختلف عن الصوت بالطول والقصر ، وأنه جهوري أو خافت ، وأنه غليظ أو رقيق ، وأنه مرتفع أو منخفض ، وأنه يختلف باختلاف مصدر الصوت كعود ، أو كمان ، أما الاختلاف الأول نلاحظه في الشعر في اختلاف التفاعيل والبحور طولاً وقصراً ، والحركات والسكنات، فالطويل أطول في التفاعيل من الهزج مثلاً ، وهذا الاختلاف تأثير كبير في الأذن الموسيقية، أما الثاني الاختلاف في الغلظ والرقّة ممكن أن تقابلها بما في الشعر من حروف ضخمة وتراكيب قوية ، أو حروف لينة رخوة وتراكيب ناعمة، وترى من جهة ثالثة ما يتناسب مع الهدوء والسكينة ، ويناسبه إنشاده في هدوء ورقة كشعر الغزل ، ومنه ما يناسبه الشدة والبطش كشعر الحماسة، ومن ناحية رابعة تلاحظ في الموسيقى أن النغمة الواحدة تختلف

(١) شوقي ضيف: في النقد الأدبي، ص ٩٧.

(٢) السابق: ص ٩٧.

باختلاف المصدر ، وهذا يقابله في الشعر القافية ، فالقصيدتان قد تكونان في موضوع واحد ، ومن بحر واحد ، ولكنهما تختلفان في القافية، فتختلفان في درجة التأثير^(١).

وأما علاقة الأوزان بالأغراض الشعري وما تحويه من معانٍ ومضامين ، فيقول حازم القرطاجي: "ولما كانت أغراض الشعر شتى وكان منها ما يقصد به الجد والرصانة وما يقصد به الهزل والرشاقة، ومنها ما يقصد به البهاء والتفخيم وما يقصد به الصغار والتحقير، وجب أن تحاكي تلك المقاصد بما يناسبها من الأوزان ويخيلها للنفوس. فإذا قصد الشاعر الفخر حاكى غرضه بالأوزان الفخمة الباهية الرصينة، وإذا قصد في موضع قصداً هزلياً أو استخفافياً وقصد تحقير شيء أو العبث به حاكى ذلك بما يناسبه من الأوزان الطائشة القليلة البهاء، وكذلك في كل مقصد"^(٢).

(١) انظر: أحمد أمين، في النقد الأدبي، ص ٨٧ - ٨٩.

(٢) حازم القرطاجي: منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، الطبعة الثالثة، الدار العربية للكتاب، تونس، ٢٠٠٨م، ص ٢٣٩.

الموسيقى الخارجية :

أولاً : الوزن

اعتمد ابن حجر في صياغة قصائده على البحور الطويلة وذات المقاطع الكثيرة كالطويل والبسيط والكامل والوافر ، وهي بحور ظاهرة الشبوع في الشعر العربي، وأكثرها شيوعاً الطويل "فقد جاء ما يقرب من ثلث الشعر العربي من هذه الوزن"^(١)، وقد سار ابن حجر على منوال القدماء في الاعتماد على البحور الطويلة ، نظراً لأنها تتيح للشاعر الحرية في التعامل مع الألفاظ، وتمنحه الانطلاق في التعبير عن معانيه، وتعطيه مجالاً أوسع في تضمين كلماته ما يريد إيصاله من أفكار ومعاني، ونظراً لاتساعها للتشبيهات والاستعارات والمجازات والكنائيات، ولأن الصورة التي يريد أن يرسمها لا تكتمل في البحور القصيرة، فهي بطبيعة تفاعلاتها، مقاطعها الكثيرة، تسمح بحشد الألفاظ المختارة التي يبلغ فيها ما يرمي إليه من التأثير^(٢)، انظر الجدول رقم (١).

الجدول رقم (١)

ترتيب البحور الشعرية حسب نظمها في الديوان:

#	البحر	عدد القصائد	نسبتها	عدد الأبيات	نسبتها
١	الطويل	١٦	٣٧.٢	٤٩٩	٢٩.٥
٢	البسيط	٩	٢٠.٩	٤٩٢	٢٩.٢
٣	الكامل	٦	١٣.٩	٣١٠	١٨.٤
٤	مجزوء الكامل	٢	٤.٦	١٣٩	٨.٢
٥	الوافر	٢	٤.٦	٦٨	٤.٠
٦	السريع	٢	٤.٦	٥٤	٣.٢
٧	المجتث	٢	٤.٦	٤٧	٢.٨
٨	الهمزج	٢	٤.٦	٣٠	١.٨

(١) ابراهيم أنيس: موسيقى الشعر، ص ٥٧.

(٢) انظر: نوري حمودي القيسي: الطبيعة في الشعر الجاهلي، ط١، الشركة المتحدة للتوزيع، بيروت، ١٩٧٠م،

١.٦	٢٧	٢.٣	١	مخلع البسيط	٩
١.٢	٢١	٢.٣	١	مجزوء الرجز	١٠
-	١٦٨٧	-	٤٣	المجموع	

أما عن أكثر المواضيع التي طرقها ابن حجر فهي المدائح (النبوية و الملوكيات والأميريات) التي تجتمع في اثنتين وعشرين قصيدة من أصل ثلاث وأربعين ، أي بنسبة ٥١% ، أي حوالي نصف ديوان ابن حجر، أما عدد الأبيات فيفوق النصف بواقع ٦١.٦%، وهذا ما يفسر لجوئه للبحور الطويلة لما في المدائح من كثرة في المعاني ووفرة في التصوير والتشبيهات والاستعارات، انظر الجدول رقم (٢).

جدول رقم (٢):

قوائد المدائح (النبوية ، الملوكيات ، الأميريات)

ت	البحر	عدد الأبيات	عدد القوائد	متوسط عدد الأبيات في القصيدة
١	الكامل	٣١٠	٦	٥٢
٢	الطويل	٢٩٥	٨	٣٧
٣	البسيط	٢٥٠	٥	٥٠
٤	مجزوء الكامل	١٣٩	٢	٦٩.٥
٥	الوافر	٤٦	١	٤٦
	المجموع	١٠٤٠	٢٢	٥١
	النسبة المئوية	٦١.٦%	٥١%	-

أما طول قصائده في المدح فتجده يميل إلى القوائد الطويلة إلى المتوسطة فقد بلغت أطول قصيدة له في المدح من بحر مجزوء الكامل ١١٠ أبيات ، وأقصر قصيدة لديه ٢٢ بيتاً من بحر الطويل، وبلغ متوسط عدد الأبيات في قصائد المدح ٥١ بيتاً ، كما يتضح من الجدول رقم (٢).

أما قصائد الغزل فاقصر فيها على بحري الطويل والبسيط ، الذين يتصفان بالطول وكثرة المقاطع ، واستخدام ابن حجر لهذين البحرين في الغزل لنفس السبب الذي ذكرته في المدائح، ولكن اعتمد ابن حجر على القصائد قليلة الأبيات ، نظراً لأن غزله عبارة عن خواطر من الأشواق لأهله وبلده ولأحبابه ، فكانت أقصر قصيدة في الغزل من بحر الطويل تبلغ ١٢ بيتاً ، وأطولها أيضاً من بحر الطويل وصل إلى ٥١ بيتاً، وكان متوسط عدد الأبيات في قصائد الغزل ٢٧ بيتاً، أما نسبة قصائد الغزل إلى قصائد الديوان فبلغت ١٦.٢ % كما يتضح من جدول رقم(٣).

جدول رقم (٣):

ت	البحر	عدد الأبيات	عدد القصائد	متوسط عدد الأبيات في القصيدة
١	الطويل	١٢٩	٥	٢٦
٢	البسيط	٥٧	٢	٢٨.٥
	المجموع	١٨٦	٧	٢٧
	نسبة الشيوخ	١١.٠	١٦.٢	-

أما الموشحات فلما لها من نغم موسيقى خاص نابع من وزنها الخاص حيث عرفه ابن سناء الملك بأنه " كلام منظوم على وزن خاص"^(١).

ويأتي هذا النغم الموسيقي من تعدد الوزن والقافية، فهي لا تسير على النمط التقليدي في اختيار بحر معين وقافية موحدة في كل القصيدة.

وهذا نوع من التجديد في الموسيقى الذي نشأ في الأندلس متأثراً بالغناء الشعبي ، وهذا ما يفسر انتشار العامية فيه.

وقد قسم ابن سناء الموشحات إلى قسمين من حيث بنائها على الأوزان العربية ، فالأول ما جاء على أوزان أشعار العرب ، والثاني ما لا وزن له فيها ولا إمام له بها^(٢).

(١) ابن سناء الملك : دار الطراز في عمل الموشحات، تحقيق جودة الركابي، دمشق، ١٩٤٩، ص٢٥.

(٢) انظر : السابق ص٣٣.

أما البحور التي تستخدم في الموشحة تتسع فيها الحرية والتنوع فيمكن أن تستخدم في الموشحة تماماً، ومجزوءاً، ومشطوراً.

وهذا ما التزم به ابن حجر في موشحاته فتراها سارت على النمط الاول القائم على أوزان الشعر العربي ، المتصفة بالخفة والسهولة ، والقليلة في المقاطع ، فالسريع مثلاً سمي بذلك لسرعته في التدوق والتقطيع^(١)، والبحر المجتث سمي بذلك لاجتثائه من البحر الخفيف لخفته في الذوق والتقطيع^(٢)، وبحر الهزج الذي سمي بذلك تشبيهاً له بهزج الصوت أي تردده، وهو بحر ذو إيقاع ونغم^(٣)، أما الرجز فهو بحر سهل الاستخدام أقرب للنثر^(٤).

ونسج موشحاته على البحور التامة من أمثال السريع والمجتث والهزج ، والبحور المجزوءة مثل مجزوء الرجز ، ومخلع البسيط^(٥)، كما هو مبين في الجدول رقم (٤).

جدول رقم (٤): البحور الشعرية في الموشحات.

#	البحر	عدد القصائد
١	المجتث	٢
٢	الهزج	٢
٣	السريع	١
٤	مخلع البسيط	١
٥	مجزوء الرجز	١
	المجموع	٧

أما القطع الشعرية التي كتبها ابن حجر فقد تنوعت أوزانها الشعرية بين البحور الأكثر استخداماً ، وأقلها تناولاً بين الشعراء ، فاعتمد على البحور الطويلة في نظم مقطوعاته من أمثال الطويل والكامل والبسيط والوافر ، كذلك استخدم البحور الخفيفة ذات خصائص الخفة والسرعة

(١) انظر : عبد الخالق العف : العروض والقافية ، د.ط ، ٢٠٠٤ ، ص ٦٥ .

(٢) السابق : ص ٦٩ .

(٣) السابق : ص ٥١ .

(٤) السابق : ص ٥٣ .

(٥) يعد مخلع البسيط صورة من صورة مجزوء البسيط التي تجيء مقطوعة العروض والضرب ، ثم يدخله الخبن . انظر : عبد الخالق العف : العروض والقافية ، ص ٣٦ .

وسهولة تذقيها من أمثال دائرة المشتبه (الهزج، والرجز ، والرمل) ، ودائرة المجتلب (السريع ، والمنسرح ، والخفيف ، والمقتضب والمجتث) ، وله أيضاً ثلاثة قطع على وزن (دو بيت)^(١).

كما هو ملاحظ من الجدول رقم (٥) أنه استخدم جلاً الأوزان العربية، بالإضافة إلى وزن مستعار من الفارسية، ليظهر براعته في النظم.

جدول رقم (٥):

ترتيب البحور الشعرية حسب نظم القطع الشعرية

#	البحر	عدد القطع
١	الطويل	٣٢
٢	الكامل	٢٦
٣	السريع	١٦
٤	البسيط	١٦
٥	الوافر	١٤
٦	الخفيف	١٣
٧	المجتث	١٠
٨	الرمل	٧
٩	المنسرح	٧
١٠	الرجز	٦
١١	المتقارب	٥
١٢	المقتضب	٣
١٣	دوبيت	٣
١٤	الهزج	٢
	المجموع	١٦٠

(١) هذا الوزن ليس وزناً مخترعاً ولكنه مستعار من اللغة الفارسية، وقد وصفه العروضيون بأنه (فعْلُن متفاعِلن فعولن فعِلن) فوزنه مستعار من اللغة الفارسية، لكن الذوق العربي لم يألف هذا الوزن، فاستخدموه بتنوع قوافيه، لكن في وزن عربي. (موسيقى الشعر: ٢١٤).

ثانياً: القافية

تمثل العنصر الثاني من عناصر الموسيقى الخارجية القافية معناها مؤخر العنق، وموقعها في الشعر في أواخر الأبيات، أما المعنى الاصطلاحي العام للقافية فهي: " المقاطع الصوتية التي تتكرر في أواخر أبيات القصيدة"^(١).

والقافية عند الخليل بن أحمد الفراهيدي: هي مجموع الحروف التي تبدأ بمتحرك قبل أول ساكنين في آخر البيت الشعري مهما بلغت عدد المتحركات بين الساكنين"^(٢).

أما ابن حجر فعمد إلى استخدام القوافي المطلقة " وهي التي يكون فيها الروي متحركاً"^(٣)، وذلك لما لها من أثر موسيقي في أذن المتلقي فهو كثير شائع في الشعر العربي ويلتزم الشعراء حركته ، ويراعونها مراعاة تامة لا يحدون عنها"^(٤)، أما القافية المقيدة " وهي التي يكون الروي فيها ساكناً"^(٥) فلم يستخدمها إلا في قصيدة قصيرة من ٢٧ بيتاً ، حيث إن هذا النوع من القوافي قليل الشيوع في الشعر العربي"^(٦)، كما هو موضح في الجدول رقم (٥).

جدول رقم (٦): حركات الروي في قصائد الديوان (المدائح النبوية ، والملوكيات والأميريات

والغزل) وعدد أبيات كل حركة:

#	حركة الروي	الأبيات	القصائد
١	الكسرة	٧٤٧	١٨
٢	الفتحة	٣٨٩	٨
٣	الضمة	٣٧٢	٩
٤	المقيد	٢٧	١
	المجموع	١٥٣٥	٣٦

(١) عبد الخالق العف : العروض والقافية، ص ٧٣.

(٢) السابق: ص ٧٣.

(٣) إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر ص ٢٥٨.

(٤) السابق: ٢٥٨.

(٥) السابق: ٢٥٨.

(٦) السابق: ٢٥٨.

وكذلك عمد ابن حجر في بعض قصائده إلى اتباع حركة الروي بألف الإطلاق بهدف الحصول على كثافة في الجمال الموسيقي، مثل قصيدته^(١):

وَإِنْ شَكَّكَتَ فَسَائِلِ عَادِلِي شَجْنِي هَلْ أَشْكُو الْأَسَى وَالْبَيْنَ وَالْأَسْفَا
وقصيدته^(٢):

يَا سَعْدُ لَوْ كُنْتُ إِمْرَعًا مَسْعُودَا مَا كَانَ صَبْرِي فِي النَّوَى مَفْقُودَا

(١) الديوان: ١٠٨.

(٢) الديوان: ١١٤.

وقد حدد ابن حجر حروف الروي في أربعة عشرة حرفاً، وبنى عليها قوافيه في الأغراض المختلفة، ولم يقتصر روي ما على غرض بعينه، فقد كانت حروف الروي مشتركة في أغراضه المختلفة.

جدول رقم (٧):

حروف الروي في قصائد الديوان وعدد أبيات كل حرف

#	حرف الروي	عدد الأبيات	عدد القصائد
١	الذال	٢٧٥	٦
٢	اللام	٢٤٩	٧
٣	الباء	٢٠٢	٦
٤	الراء	١٩٣	٣
٥	الميم	١٨١	٢
٦	الفاء	٩٦	٢
٧	السين	٨٦	٢
٨	النون	٦٣	٢
٩	العين	٥٦	١
١٠	الهمزة	٤٦	١
١١	الكاف	٢٦	١
١٢	الغين	٢٢	١
١٣	الزاي	٢٢	١
١٤	الحيم	١٨	١
	المجموع	١٥٣٥	٣٦

والناظر إلى قوافي ابن حجر ، يجد أنها هي الحروف الأكثر شيوعاً في قوافي الشعر العربي، كاللام والذال والميم والباء والراء، والتي حددها اللغويون^(١).

وقد نظم قصائد قليلة وقصيرة على قوافٍ نادرة الشبوع مثل: الزاي، والغين.

(١) انظر : إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر، ص ٢٤٦.

الموشحات

إن التنوع في قوافي الموشحات جعل لها بصمة خاصة في عالم موسيقى الشعر، وهذا التنوع بناء على القواعد الأساسية للموشحات بحيث تتفق أبيات الموشح في وزنها وعدد أجزائها لا في قوافيها، بل يحسن أن تكون قوافي كل بيت منها مخالفة لقوافي البيت الآخر والقفل، أما الأفعال فتكون متفقة مع بقيتها في وزنها وقوافيها وعدد أجزائها^(١)، وتجد هذا التنوع في القوافي لدى موشحات ابن حجر.

القطع الشعرية

إن القطع الشعرية التي نظمها ابن حجر تنتوع في الوزن والقافية من مقطوعة لأخرى، وكذلك النظم على (الدو بيت) وما له من خصائص تتعلق بعضها بالوزن، والآخر بالقافية. و(الدو بيت) يأتي على أربعة أشطار على قافية واحدة والشطر الثالث ليس مصرعاً معها، وتجد ذلك في قوله ابن حجر^(٢):

يا من عدل المحب في عشق قمرٍ ظلماً ونهى عن التلاقي وأمرٍ
الليلة في الصدود لا أحملها والساعة في البعاد أدهى وأمرٍ
وكذلك يقول^(٣):

يا عين غَنا من لام يا بلوائي ألغزتك في الحروف والأسماءِ
من حاجبك النون ومن صدغك لي واؤ سلبتُ بالحسنِ عقل الرائي
ومن التجديد في قوافي الشعر العربي المواليا الذي يتميز عن غيره في التحلل من إعراب بعض الألفاظ ، وذلك بإسكان أواخرها كما هو الحال في اللغة العامية، ثم التنوع في القافية وروبيها، ويعد هذا تطور في القافية وتنويعها من ناحية ، وقواعد الإعراب من ناحية أخرى^(٤).

(١) ابن سناء الملك : دار الطراز في عمل الموشحات، ص ٢٥، ٢٦.

(٢) الديوان: ٢٧٣، ٢٧٢.

(٣) الديوان: ٢٧٢.

(٤) انظر : موسيقى الشعر ٢٠٩.

وتجد المواليا لدى ابن حجر في قوله^(١):

يوسف ملك وقميص الحُسن ملبوسو
لَمَّا عشقتو عليّ أنعم بتكبيسو
قام العذول بتفنيـدو وتعبيسو
واحسرتو حين أزور الحِبِّ وابوسو

إن التنوع في قافية القطع الشعرية من مقطوعة لأخري يحدث أثراً موسيقياً جميلاً، كما يوضح الجدول رقم (١٠)، فإن ابن حجر استخدم أغلب حروف اللغة العربية في قافية قطعه وكان أكثرها النون بما فيه من نغمة موسيقية جميلة، وكذلك حرف الراء وما فيه من نغمة جميلة في ترديده، وغيرها من الحروف الهجائية.

(١) الديوان: ٢٧٢.

جدول رقم (١٠):

ترتيب حروف الروي في قطع ابن حجر

#	الحرف	عدد القطع
١	النون	٢٦
٢	الراء	٢٢
٣	اللام	١٦
٤	الذال	١٣
٥	الميم	١٣
٦	الحاء	١٠
٧	الباء	٩
٨	السين	٧
٩	القاف	٦
١٠	التاء	٥
١١	الكاف	٥
١٢	العين	٤
١٣	الياء	٤
١٤	الهمزة	٣
١٥	الضاد	٣
١٦	الفاء	٣
١٧	الهاء	٣
١٨	الزاي	٢
١٩	الشين	٢
٢٠	الصاد	٢
٢١	الثاء	١
٢٢	الطاء	١
	المجموع	١٦٠

أما حركات الروي في القطع فقد اعتمد ابن حجر في قطعه على الروي المكسور، ويلاحظ أنه اعتمد أيضاً على القافية المقيدة على غرار ما كان من نظمه لقصائده الطوال، انظر جدول رقم (١١).

جدول رقم (١١):

ترتيب حركات الروي في القطع الشعرية

#	حركة الروي	عدد القطع
١	الكسرة	٥٧
٢	الفتحة	٤٨
٣	المقيد	٣٣
٤	الضمة	٢٢
	المجموع	١٦٠

وقد نظم ابن حجر بعض مقطوعاته على ما يقرأ على وجهين في قافيتين ، وذلك مثل قوله^(١):

أيها الشيخ المطيع هواه دغ هذي الدعابة * قد أتى داعي الردى
 وخيوط هذا الشيب لا تنسج بها ثوب الصباية * فهي ما خلقت سدى
 وكذلك قوله^(٢):

نسيمكم ينعشني والى دجى طال فمن لي بمجىء الصبا * خ
 ويا صباح الوجهه فارقتكم فشبت همماً إذ فقدت الصبا * خ

(١) الديوان: ٢٤٥.

(٢) الديوان: ٢٤٥.

الموسيقى الداخلية:

- التصريح: وهو بناء الشطر الأول من البيت الأول في القصيدة على رويها ، فهو أن يجعل العروض مقفاة تقفية الضرب، وهو مما استُحسِن ، حتى إن أكثر الشعر صُرِّع البيت الأول منه^(١).

وتجد ذلك في كل مقدمات قصائد ابن حجر حيث سار على نهج القدماء الذين عمدوا إلى التصريح في البيت الأول من القصيدة ، ومن الأمثلة على ذلك، مطلع قصيدته^(٢):

لا تَقْطَعُوا بِاتِّصَالِ الْهَجْرِ أَوْصَالِي وَوَأَفْقُونِي فَقَدْ خَالَفْتُ عَذَالِي
وكذلك مطلع قصيدته^(٣):

مُحِبُّ لَكُمْ مِنْ هَجْرِكُمْ يَتَوَجَّعُ نَدِيمَاهُ مِنْذُ غَيْبَتُمْ أَسَى وَتَفَجُّعُ
وقد يجمع في تصريحه الجناس وهو أن تتشابه في اللفظ مع الاختلاف في المعنى^(٤)، وتجد ذلك في كثير من قصائده، وهو ما يطلق عليه ردُّ العجز على الصدر وهو أن يكون أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين في آخر البيت والآخر في صدر المصراع الأول ، أو حشوه ، أو آخره أو صدر البيت الثاني^(٥) بأنواعه المختلفة فتجد مثلاً الجناس التام المماثل^(٦) في تصريحه في مطلع قصيدته^(٧):

لَوْ أَنَّ عُدَّالِي لَوَجَّهَكَ أَسْلَمُوا لَرَجَوْتُ أَنِّي فِي الْمَحَبَّةِ أَسْلَمُ
ف(أسلموا) الأولى بمعنى (استسلموا) ، والثانية بمعنى السلامة.

-
- (١) عبد المتعال الصعيدي : بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، الطبعة الأولى، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٩م، ٦٥٩/٤.
 - (٢) الديوان: ١٤٤.
 - (٣) الديوان: ١٦٨.
 - (٤) بغية الإيضاح : ٦٤٠/٤.
 - (٥) بغية الإيضاح : ٦٤٩/٤.
 - (٦) والجناس التام هو أن يتفقا في أنواع الحروف وأعدادها وهيئاتها وترتيبها ، والمماثل ما كانا من نوع واحد. بغية الإيضاح : ٦٤٠/٤.
 - (٧) الديوان: ٩٧.

ومثل قوله في مطلع قصيدته^(١):

سَرَى وَالِدْرَارِي ثَغْرَهُ وَعَقُودُهُ خَيَالٌ وَقَتٌ لِي بِالْوَصَالِ عَقُودُهُ

وقوله في مطلع قصيدته^(٢):

مَا كَانَ يَوْمَ وَصَلْتِ الصَّبِّ أَفْتَاكَ فَمَنْ بَتَعْذِيْبِهِ بِالصَّدِّ أَفْتَاكَ

(أفتاك) الأولى بمعنى فتاة، والثانية أصدر لك الحكم.

وقوله في مطلع قصيدته^(٣):

آيَاتٌ وَصَلِكٌ يَتْلُوهَا عَلَى النَّاسِ صَبٌّ تَحَرُّكُهُ الذِّكْرَى إِلَى النَّاسِي

ف(الناس) الأولى تعني البشر، أما الثانية فتقابل التذكر.

وقوله في مطلع قصيدته^(٤):

إِنْ رُحِمْتَ تَسْأَلُ عَنْ خِلَالِي فِي الْحُبِّ جَسْمِي كَالْخِلَالِ

ف(الخلال) الأولى هي الصفات والخصال ، أما (خلال) الثانية بمعنى المهازيل.

ومن ردِّ العجز على الصدر الذي يكون فيه بين اللفظين المكررين جناس مفروق^(٥) تجده

في كثير من مطالع قصائده ، مثلاً في مطلع قصيدته^(٦):

إِذَا زَمَزَمَ الْحَادِي بِذِكْرِكَ أَوْ حَادَا غَدَوْتُ عَلَى حَكْمِ الْهَوَى فَيْكَ أَوْحَادَا

ف(حادا) الأولى بمعنى الغناء، أما (أوحدا) بمعنى الوحدة.

ومطلع قصيدته^(١):

(١) الديوان: ١٥٠.

(٢) الديوان: ١٧٨.

(٣) الديوان: ١٨٠.

(٤) الديوان: ١٨٤.

(٥) وهو ما تشابه ركناه لفظاً لا خطأ ، وسمي مفروقاً لافتراق الركنين في الخط. انظر (محمد علوان : من

بلاغة القرآن ، الطبعة الثالثة ، ٢٠٠٥م، ص ٢٨٢)

(٦) الديوان: ١٢٥.

أَيَا بَصْرِي حَالِفِ عَيُونِ الْفَرَاقِدِ فَذُو السَّهْدِ وَجِدًا لَا يَكُنْ إِيَّاهُ رَاقِدِ

(الفرقد) بمعنى نجم في السماء يهتدى به وهما اثنان ويقال لهما فرقدان، ولكن الشاعر ذكرها بصيغة الجمع ليوضح حاله في كثرة ما يراقب النجوم في السماء ، أما (إيَّاهُ رَاقِدِ) بمعنى أن الذي يسهر بسبب الوجد والحزن لا يكون مستلقٍ على ظهره ألفة ومحبة بالسهر.

وتجد المفروق في مطلع قصيدته^(٢):

مَا دُمْتُ فِي سُنْفَنِ الْهَوَى تَجْرِي بِي لَا نَافِعِي عَقْلِي وَلَا تَجْرِي بِي

(تجري بي) بمعنى تسير بي، أما (تجري بي) بمعنى تجري بي .

وتجد المفروق في مطلع قصيدته^(٣):

فَرَاقٌ رَمَى قَلْبِي بِسُقْمٍ وَأَوْصَابِ وَيَا لَيْتَهُ لَلْقَرَبِ مِنْ بَعْدِ أَوْصَى بِي

(أوصاب) الأولى بمعنى المرض والهزال ، أما (أوصى بي) بمعنى الوصاية.

وأما الجنس الناقص فتراه في قوله في مطلع قصيدته^(٤):

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لَا دِينَ وَلَا حَسَبَ لِخَائِنِ غَدْرِهِ الْإِخْوَانَ مَا حَسَبُوا

(حسب) الأولى بمعنى النسب والأهل ، أما (حسبوا) الثانية بمعنى ما كان في الحسبان.

والناظر إلى اهتمامه في مطالع قصائده بالتصريح تارة لوحدها ، وتارة يشملها الجنس بأنواعه وهو ما يطلق عليه رد العجز على الصدر، لما للمقدمة من دور في جلب أذن المتلقي ، فالتصريح يعطي نغماً موسيقياً جميلاً يجذب الأذواق ، والجناس يزيده رونقاً وجمالاً.

• أما ما كان من رد العجز على الصدر الذي يكون فيه أحد اللفظين في آخر البيت

والآخر في حشو المصراع الأول، فكثير عند ابن حجر، فيقول^(٥):

(١) الديوان: ١٣٧.

(٢) الديوان: ١٠٤.

(٣) الديوان: ١٩٠.

(٤) الديوان: ٢٠٧.

(٥) الديوان: ٩٨.

وَلَقَدْ كَتَمْتُ هَوَاكَ لَكِن مُقَاتِي شَوْقاً إِلَى مَغْنَاكَ لَيْسَتْ تَكْتُمُ
وكذلك قوله^(١):

فَالْيَلُّ يَظْلِمُنِي فَيُظْلِمُ بَعْدَهُمْ لَكِن عَذُولِي فِي هَوَاهُمْ أَظْلَمُ
• أما الجناس المفروق فتجده في قوله^(٢):

بَرَحَ الْخَفَاءُ بِحُبِّ مَنْ وَلَهِي بِهِ أَوْرَى تَوْقُدَ مُهَجَّتِي وَلَهْيِي
فكلمة (ولهي به) بمعنى حبي وتعلقي ، أما (ولهيي) فمن اشتعال النار ، وذكرها على سبيل
الجناس المفروق يعطي رونقاً وجمالاً موسيقياً خاصاً.
وفي قوله^(٣):

دَع عَنْكَ مَا تَهْذِي بِهِ عِنْدِي فَمَا كُنْتُ إِصْلَاحِي وَلَا تَهْذِي
فكلمة (تهذي به) تعني الهذيان والتخريف ، أما (تهذيبي) فتعني الأدب والصلاح.
• الجناس وتجد الجناس بأشكاله المختلفة من ذلك الجناس التام في قوله^(٤):

فَقَدْتُمْ وَالْوَجْدُ أَصْبَحَ لَازِمِي فَيَا عَجَباً مِّنْ وَاجِدٍ غَيْرِ وَاجِدٍ
ف(واجد) الأولى بمعنى حزين ، أما الثانية بمعنى لم أجدكم.
وتجد ذلك في قوله^(٥):

أَفَاضُوا دُمُوعاً إِذْ أَفَاضُوا مَخَافَةً مِّنَ الْبَيْنِ أَحْيَتْ لِلنُّفُوسِ إِعْتِلَالَهَا
(أفاضوا) الأولى بمعنى سكبوا، وأما الثانية بمعنى الانصراف، ومأخوذة من الإفاضة من عرفات
إلى منى.

(١) الديوان: ٩٩.

(٢) الديوان: ١٠٤.

(٣) الديوان: ١٠٤.

(٤) الديوان: ١٣٨.

(٥) الديوان: ١٤٣.

تكرار الألفاظ ، مثل قوله^(١):

وَعَلَى قَرَابَتِكَ الْمَقَرَّرِ فَضْلُهُمْ وَعَلَى صَحَابَتِكَ الَّذِينَ هُمْ هُمْ

وفي قوله^(٢):

فَارْفُقْ بِمَشْتَاقِ بَحْبُوكِ مُفْرَدٍ يَا صَاحِبَ الْحَسَنِ الْغَرِيبِ غَرِيبٍ

وفي قوله:

مَنْ قَامَ فِي كَفِّ كَفِّ الْكُفْرِ حِينَ سَطَّتْ حَقًّا وَفِي صَرْفِ صَرْفِ الدَّهْرِ حِينَ هَفَا

وقوله^(٣):

وَحَيَّا الْحَيَا حَيًّا لَنَا وَمَعَاهِدًا وَلَا زَالَ ذَاكَ الْحَيِّ حَيِّ الْمَعَاهِدِ

فالحيا هنا المطر ، فجاء المطر مرحباً بحي لهم ، وقد تلاحظ ما أحدثه تكرار كلمة (حيا) من نغم موسيقي جميل.

ومن التكرار في الألفاظ قوله في بيته^(٤):

مَعْدَبْتِي بِالصَّدِّ مَا لِي وَمَا لَهَا وَمَا مَالَ قَلْبِي عَنْ هَوَاهَا وَمَا لَهَا

فتكرار الكلمات في هذا البيت يعطي جمالاً موسيقياً ، وخاصة أن تحتوي على حرف المد الألف في وسطها.

ومن التكرار تكرار الحروف في البيت الشعري^(٥):

وَفِي عَرَفَاتٍ عَرَفُوا بِسَعَادَةٍ عَلَيْهِمْ بِجَمْعِ الشَّمْلِ شَامُوا إِشْتِمَالَهَا

فترى تكرار حرفي العين والشين وما له من إيقاع جميل على المتلقي.

(١) الديوان: ١٠٣.

(٢) الديوان: ١٠٥.

(٣) الديوان: ١٣٧.

(٤) الديوان: ١٤١.

(٥) الديوان: ١٤٢.

ومن أشكال الموسيقى في قصائد ابن حجر ترديده لكلمات تشترك في نهاياتها، فتجد ذلك في قوله^(١):

تَبَوَّأَ الدَّارَ وَالْإِيمَانَ قَبْلُ وَقَدِ
آوُوا وَفَوَّا نَصَرُوا فَازُوا شَرَفًا
فتلاحظ ما يوقعه الشطر الثاني من البيت من أثر موسيقي جميل في أذن المتلقي.

• العكس والتبديل: وهو أن يقدم في الكلام جزءً ثم يؤخر^(٢)، ومن أمثلة ذلك عند ابن حجر قوله^(٣):

سَقَى اللّهُ دَهْرًا كَانَ لِلشَّمْلِ جَامِعًا
بِهِ فَهَلِ الرِّضْوَانُ لِلْجَمْعِ شَامِلُ
فترديد الكلمة تارة في المقدمة وتارة في المؤخرة، يحدث بهاء وجمالاً ورونقاً.

• أما تكرار ما في البيت من حركات لتقوية الناحية الموسيقية الإيقاعية، فمثلاً يأتي تكرار تنوين الفتح في قوله^(٤):

وَيَرُوي طَالِبٌ بِرًا وَعِلْمًا
لَدَيْهِ عَن يَزِيدَ وَعَن عَطَاءِ
أما تنوين الكسر مثل قوله^(٥):

بَدَا قَمَرًا بِبَدْرِ فِي نَجُومِ
مِنَ الْأَصْحَابِ أَهْلَ الْإِقْتِدَاءِ
ومثل قوله^(٦):

فَكَمِ مِنْ عَزَالٍ لِي بِهَا كَغَزَالَةٍ
تَمَلَّكَ رُوحِي بِالتَّفَاتِ وَإِسْفَارِ

• ومن أشكال الموسيقى اشتقاق كلمات من جذر واحد في البيت بمعان ودلالات متنوعة ، تعطي إيقاعاً من الموسيقى الجميلة ، وتجد ذلك في قوله^(٧):

(١) الديوان: ١١٢ .

(٢) بغية الايضاح ٥٩٢/٤ .

(٣) الديوان: ١١٩ .

(٤) الديوان: ١٢٢ .

(٥) الديوان: ١٢٣ .

(٦) الديوان: ١٩٨ .

(٧) الديوان: ٢٠٤ .

غَنَى غِنَا الْوَرَقِ أَوْرَاقَهَا فَنَقَطَتْ عُجْباً بَدْرُ السَّحَابِ
وكذلك قوله^(١):

فَالنَّثْرُ كَالنُّثْرَةِ وَالشِّعْرُ كَالشَّعْرِ رَى ضِيَاءَ فِاقِ ضَوْءِ الشَّهَابِ^(٢)
فهنا يمدح السبك في نثر ممدوحه بأنه عنقود من النجوم، وشعره في سطوعه وانتشاره
بالكوكب المنير.

• ومن أشكال الموسيقى لديه ذكر مقاطع قصيرة متساوية في البيت الواحد، فمن ذلك
قوله^(٣):

أَوْعَى الْمُلُوكِ هَدَى أَوْهَى الْمُلُوكِ عَدَى أَوْفَى الْمُلُوكِ نَدَى فِي الْحَالِ بِالْحَالِ

الخلاصة : إن استخدام ابن حجر لألوان البديع المتنوعة في شعره ليبدل على قدرته اللغوية
الفائقة في تطويع الألفاظ والمعاني إلى ما يرنو إليه، مع نغم موسيقي رائع.

(١) الديوان: ٢٠٤.

(٢) (النثرة) عنقود من النجوم في صورة السرطان (المعجم الوسيط : ٩٠١/٢) ، (الشعري) كوكب نير يطلع
عند شدة الحر (المعجم الوسيط : ٤٨٤/١).

(٣) الديوان: ١٤٦.

الخانزعة والنناج

الخاتمة:

تناول الباحث في هذه الدراسة الشيخ العلامة المحدث شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني حياته وشعره ، وانتهى البحث في ثلاثة فصول.

ففي الفصل الأول تناول الباحث حياة الشاعر فتحدث عن اسمه ونسبه وكنيته ولقبه ونشأته ونسبته إلى أرض فلسطين، وحياته العلمية ورحلاته ، وطلبه لشتى العلوم مثل الفقه والحديث، والنحو، والأدب، وكذلك تحدث عن مصنفاته التي ملأت المكتبات.

وتناول الباحث عصر ابن حجر، وتحدث عن الأحداث السياسية الخطيرة التي كان لها الأثر الواضح في العالم الإسلامي، فقد كان هذا العصر الدرع الحامي لهيبة الإسلام، بعد أن تعرض لأقصى هجمة عليه، وتحدث أيضاً عن البيئة الاجتماعية وتقسيمات طبقات المجتمع في ذلك العصر، وتحدث عن الحياة الثقافية في عصره، وما أثر التنشئة الخاصة التي مروا بها ليصبحوا حماة الدين، فكانت تنشئة على القرآن والسنة والجهاد في سبيل الله، وعلى موائد العلم والعلماء، هذا ما يفسر كثرة الكتب والمؤلفات الموسوعية التي عجت بها مكتبات العالم الإسلامي، وتحدث عن الأسباب التي أدت إلى ازدهار الحركة العلمية في ذلك العصر.

أما الفصل الثاني تناول الباحث فيه الموضوعات الشعرية في شعر ابن حجر العسقلاني وقد تضمن ذلك تمهيداً عن الشعر وتعريفه وشروطه، وأقسامه، ثم تحدث عن كل غرض من أغراضه التي صنفاها - أي الشاعر - إلى أربعة أقسام: استفتحها بالمدائح النبوية حيث كتب فيها سبغاً من القصائد، سار فيها على نهج القدماء حيث بدأها بمقدمة غزلية وكان محبوبه فيها النبي -صلى الله عليه وسلم- شوقاً وتقرباً له لينال شفاعته التي هي غرض قصيدة المدح النبوي، وتحدث عن المدح بقسميه الملوكيات والأميريات، ثم تناول قصيدة الغزل لدى الشاعر والتي تحدثت في مضمونها عن الشوق والحنين لأهله ومصر، وتحدث الباحث في القسم الأخير عن الأغراض المختلفة وهي الرثاء والزهد، والاعتذار، والشكوى من الخيانة.

وفي الفصل الثالث تناول الباحث الدراسة الفنية التي تضمنت البناء الفني للقصيدة، وتبين فيها أن الشاعر قد سار على نهج القدماء في قصائده، فكانت قصائد المدح النبوي تبدأ بمقدمة

غزلية، ثم ينتقل إلى مدح النبي - صلى الله عليه وسلم - فيشيد بأخلاقه ومعاركه وغيرها من مواطن المدح، ثم ينتقل إلى غرضه من القصيدة وهي طلب الشفاعة من النبي - صلى الله عليه وسلم -، ثم ينتقل إلى خاتمة القصيدة بالصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم -، وهذا النهج سار عليه في قصائد المدح الملوكيات والأميريات إلا أن الغرض تنوع بتنوع الأشخاص كما بين الباحث، وكان يختم قصيدته بالدعاء للممدوح.

أما لغته الشعرية فقد نأت عن الخشونة والتوعر، وتميزت بالسهولة والبساطة، حيث خلت من الألفاظ الوحشية النافرة، فكانت لغته متجانسة مع كل موضوع يتطرق إليه، فتجد الجدية والجزالة في قصائد المدح، وتجد الرقة في قصائد الغزل.

أما أسلوبه فكان واضحاً قوياً شعورياً، جميلاً ذوقياً، وكان الاقتباس من معاني القرآن من أبرز الأساليب التي استخدمها.

أما الصورة الشعرية فقد اعتمد شاعرنا في إبداعها على خياله الواسع، واستمد عناصرها من وحي ثقافته العميقة.

وفي ضوء الاستقراء ثبت استخدام شاعرنا ابن حجر للأوزان الشعرية شائعة الاستعمال، وقد عمد إلى التجديد فكتب في الموشحات، والمواليا والدو بيت في القطع، وكذلك رأينا مدي التناغم المؤثر والإيقاع المعبر عن المعني في ألفاظه المتمثلة في الموسيقى الداخلية.

النتائج:

بعد الدراسة والبحث في شعر ابن حجر وحياته، لا بد من تسجيل بعض النتائج التي توصل إليها الباحث، ويمكن إيجاز أهم النتائج كما يلي:

- أن وصف العصر المملوكي بالدونية والانحطاط أمر يرمي صاحبه إلى مصاف الجهل، لأن الدارس لهذا العصر يرى ما أنتجه من الكنوز العلمية التي يجدر بالباحثين سبر أغوارها والتعمق في جواهرها.
- أن الشعر لا يختص بفئة دون أخرى فابن حجر هو شيخ محدث عالم فقيه، ولكن له من الأدب نصيب وافر من خلال ديوانه الذي درسه الباحث.
- أن شخصية الشاعر وحياته لها تأثير على شعره، فترى شخصية ابن حجر الدينية كعالم وفقيه ومحدث لها الأثر الواضح في ألفاظ ومعاني الشاعر كما بينه الباحث.
- أن مدائح ابن حجر للملوك والأمراء مدائح يصفها الباحث بالصادقة؛ لأن الناظر إلى سيرة من مدحهم سيتيقن له السبب.
- أن كثرة مقطوعات ابن حجر العسقلاني دلالة على قوة سليقته والثروة اللغوية لديه، فقد كان يقول المقطوعة حسب الموقف أو الحالة النفسية التي مرَّ بها.
- أن الصور الشعرية التي صاغها ورسمها شاعرنا ابن حجر تدل على خياله الواسع ونظرة الناقد وبراعته في انتقاء الألفاظ الملائمة.
- سار شاعرنا ابن حجر على نهج القدماء في بناء قصيدته، التي تبدأ بمقدمة غزلية، والانتقال للمدح، ثم الغرض الأساسي للمدح، ثم الدعاء للممدوح.
- ترى تأثر شاعرنا ابن حجر بقصائد المدح النبوي التي اشتهرت في عصر شاعرنا وخاصة قصيدة البردة للبوصيري في مدح النبي -صلى الله عليه وسلم- التي تأثر بها الشعراء وذلك من خلال سيرهم على طريقته في تناول قصيدة المدح النبوي.
- أن شعر الغزل لدى ابن حجر لم يكن في أغلبه على حقيقته ولكن اتسم بالحنين، والشوق للأهل وبلده.

• أن غزل ابن حجر بنوعيه (قصائد مستقلة، أو مقدمات قصائد المدح) قد اتسم بالعدري العفيف فتجده يصف مرارة الشوق، ونار البعد عن أحبائه، وإن خالط الأمر بعض الحسية لكنه غزل محسوس عفيف.

وفي الختام لا بد الإشارة إلى أن هذه النتائج التي توصل إليها الباحث ، لا تمثل كل ما توصل إليه، وإلا فهناك الكثير من الأمور التي عالجه الباحث وتوقف عندها وخرج منها بنتائج يمكن أن تعد سمات عامة لشعر ابن حجر العسقلاني يمكن ملاحظتها في ثنايا البحث.

المصائر والمرآة

أولاً: المصادر والمراجع القديمة:

- إبراهيم بن حسن البقاعي ، عنوان الزمان بتراجم الشيوخ والأقران ، تحقيق حسن حبشي، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، الطبعة الاولى ، ٢٠٠١م .
- ابن القطاع (ت ٥١٥هـ) : البارع في علم العروض ، دراسة وتحقيق : أحمد محمد عبد الدايم، الطبعة الثانية، مكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة ، والسعودية، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥ .
- ابن اياس: بدائع الزهور، تحقيق محمد مصطفى، ط١، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.
- ابن بطوطة (المتوفى: ٧٧٩هـ) : تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الأسفار، دار الشرق العربي.
- ابن تغري بردي ، أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ)، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، تحقيق محمد أمين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤ .
- ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف (٨٧٤هـ) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر .
- ابن حجر العسقلاني : تهذيب التهذيب ، الطبعة الاولى ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- ابن حجر العسقلاني : فتح الباري شرح صحيح البخاري ، دار المعرفة ، بيروت، ١٣٧٩هـ.
- ابن حجر العسقلاني: ديوان شيخ الاسلام ابن حجر العسقلاني : تحقيق ودراسة : د. فردوس نور علي حسين، دار الفضيلة ، القاهرة.
- ابن خلدون (المتوفى: ٨٠٨هـ) : ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، الطبعة الثانية، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- ابن خلكان البرمكي الإربلي (المتوفى: ٦٨١هـ) : وفيات الأعيان ، تحقيق إحسان عباس

- ابن رشيق القيرواني الأزدي (المتوفى: ٤٦٣ هـ): العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الخامسة، دار الجيل، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.
- ابن سناء الملك : دار الطراز في عمل الموشحات، تحقيق جودة الركابي، طبعة دمشق، ١٩٤٩.
- ابن طباطبا (المتوفى: ٣٢٢ هـ) : عيار الشعر ، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المانع ، طبعة مكتبة الخانجي ، القاهرة ، د.ت.
- ابن قتيبة (المتوفى: ٢٧٦ هـ): الشعر والشعراء ، تحقيق أحمد محمد شاكر، الطبعة الثانية، دار المعارف ، القاهرة ، د.ت.
- ابن كثير القرشي الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤ هـ): البداية والنهاية، طبعة دار الفكر، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م.
- أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني: المعجم الأوسط ، تحقيق : طارق بن عوض الله بن محمد ، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني ، طبعة دار الحرمين - القاهرة ، ١٤١٥ هـ.
- أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨ هـ) : دلائل النبوة ، تحقيق : د. عبد المعطي قلجعي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.
- أبو بكر بن أبي شيبة (المتوفى: ٢٣٥ هـ) : الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق: كمال يوسف الحوت مكتبة الرشد ، الرياض ، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ هـ.
- أبو داود السجستاني (المتوفى: ٢٧٥ هـ) : سنن أبي داود ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - محمّد كامل قره بللي دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.
- البخاري. محمد بن إسماعيل أبو عبدالله : صحيح البخاري ، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر ، الطبعة الأولى، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ١٤٢٢ هـ.
- الترمذي، محمد بن عيسى بن سؤرة بن موسى بن الضحاك، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩ هـ) الجامع الكبير - سنن الترمذي ، تحقيق: بشار عواد معروف ، دار الغرب الإسلامي - بيروت ، ١٩٩٨ م.
- تقي الدين المقرئ (المتوفى: ٨٤٥ هـ) : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ

- تقي الدين المقرئزي (المتوفى ٨٤٥هـ) : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، تحقيق د. كرم حلمي فرحات ، الطبعة الأولى، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، ٢٠٠٧م.
- تقي الدين المقرئزي(المتوفى ٨٤٥هـ) : السلوك لمعرفة دول الملوك ، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ، ١٩٣٩.
- جميل بئينة : ديوان جميل بئينة : طبعة دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨٠م.
- الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا ، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م.
- الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار ، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م.
- حازم القرطاجي (ت ٦٨٤هـ): منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، الطبعة الثالثة، الدار العربية للكتاب، تونس، ٢٠٠٨م.
- حسان بن ثابت: ديوان حسان بن ثابت : شرحه وكتبه همامه و قدم له الأستاذ عبد أ. مهنا، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤م.
- الحطيئة: ديوان الحطيئة: برواية وشرح ابن السكيت ، دراسة وتبويب د. مفيد محمد قميحة، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- الحموي، ياقوت بن عبد الله الرومي (المتوفى: ٦٢٦هـ) : معجم البلدان ، الطبعة الثانية، دار صادر، بيروت، ، ١٩٩٥م.
- الذهبي (المتوفى : ٧٤٨هـ): سير أعلام النبلاء ، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، الطبعة الثالثة، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.
- الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (المتوفى: ٧٤٨هـ) : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق :عمر عبد السلام التدمري، الطبعة الثانية، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٣م.

- السخاوي (المتوفى: ٩٠٢هـ) : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت، د.ت.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (المتوفى: ٩١١هـ): طبقات الحفاظ، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية ، بيروت، ١٤٠٣.
- الشريف الرضي : ديوان الشريف الرضي : اعتنى به وشرح ألفاظه محمد بن سليم اللبابيدي ، طبعة المكتبة الأدبية في بيروت، ١٢٠٩.
- عبد القاهر الجرجاني (المتوفى: ٤٧١هـ): دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق محمود محمد شاكر أبو فهر ، الطبعة الثالثة، مطبعة المدني بالقاهرة ، دار المدني بجدة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
- عبد القاهر الجرجاني(المتوفى: ٤٧١هـ) : أسرار البلاغة ، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، د.ت.
- علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني (المتوفى: ٣٩٢هـ): الوساطة بين المنتبى وخصومه، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، طبعة مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، د.ت.
- قدامة بن جعفر (المتوفى: ٣٣٧هـ) : نقد الشعر ، الطبعة: الأولى مطبعة الجوائب - قسطنطينية ، ١٣٠٢هـ.
- القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف (ت ٦٤٦هـ): إنباه الرواة على أنباه النحاة تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي - القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية - بيروت، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٢م.
- القلقشندي، أحمد بن علي (المتوفى: ٨٢١هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، دار الكتب العلمية، بيروت
- محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ) : مختار الصحاح ، تحقيق : يوسف الشيخ محمد ، المكتبة العصرية ، الطبعة الخامسة، الدار النموذجية، بيروت، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- محمد بن سَلَام الجمحي (المتوفى: ٢٣٢هـ): طبقات فحول الشعراء ، تحقيق: محمود محمد شاكر ، طبعة دار المدني، جدة، د.ت.

- مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ): المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ، طبعة دار إحياء التراث العربي ، بيروت.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل : تحقيق شعيب الأرنؤوط ، عادل مرشد، وآخرون، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.
- المقري، أحمد بن محمد التلمساني (المتوفى: ١٠٤١هـ) : نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الأولى ، دار صادر، بيروت ، لبنان، ١٩٩٧م.

ثانياً : المراجع الحديثة:

- إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر، الطبعة الثانية ، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٢م.
- إحسان عباس، فن الشعر، بيروت 1959 .
- أحمد الشايب : أصول النقد الأدبي، الطبعة العاشرة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٩٤م.
- أحمد أمين: في النقد الأدبي ، الطبعة الرابعة ، دار الكتاب العربي ، بيروت-لبنان ، ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م.
- أحمد بدوي : أسس النقد الأدبي عند العرب، طبعة نهضة مصر للطباعة، ١٩٩٦م
- أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: ١٤٢٤هـ) بمساعدة فريق عمل : معجم اللغة العربية المعاصرة ، عالم الكتب ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م .
- بشرى موسى صالح : الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٤م.
- جبران مسعود : معجم الرائد ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة السابعة ١٩٩٢م
- خير الدين الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ): الأعلام ، دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر - أيار/ مايو ٢٠٠٢ م.
- رمضان إسحاق الزيان : دراسات في الحديث الشريف وعلومه، الطبعة الأولى، دار المنارة، فلسطين ، غزة ، ٢٠١١م.

- رينهارت بيتر أن دوزي، تكملة المعاجم العربية (المتوفى: ١٣٠٠هـ) نقله إلى العربية وعلق عليه: (ج ١ - ٨: محمد سليم النعيمي) (ج ٩، ١٠: جمال الخياط) الطبعة الأولى، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية ، من ١٩٧٩ - ٢٠٠٠م.
- شكري عزيز الماضي، في نظرية الأدب ، ط ١ ، دار الحداثة بيروت ، 1986.
- شوقي ضيف (المتوفى: ١٤٢٦هـ) تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، طبعة دار المعارف، د.ت.
- شوقي ضيف : في النقد الادبي ، الطبعة التاسعة، دار المعارف ، القاهرة ، د.ت.
- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) ، الطبعة الثامنة ، دار المعارف ، القاهرة، د.ت.
- صفي الرحمن المباركفوري : الرحيق المختوم ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، الرياض، ٢٠٠٣م.
- عبد الله إبراهيم ،التفكيك الأصول والمقولات ، دار إفريقيا الشرق المغرب ، 1989.
- عبد المتعال الصعيدي : بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، الطبعة الأولى، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٩م.
- عز الدين اسماعيل : الأسس الجمالية في النقد العربي عرض وتفسير ومقارنة، الطبعة الثالثة، دار الفكر العربي، ١٩٧٤م.
- علي علي صبح: الصورة الأدبية تاريخ ونقد ، طبعة دار إحياء الكتب العربية ، د.ت.
- قاسم عبده قاسم : عصر سلاطين المماليك ، دار الشروق ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٩٤م.
- محمد الطيب النجار (المتوفى: ١٤١١هـ) : القول المبين في سيرة سيد المرسلين ، دار الندوة الجديدة ، بيروت، د.ت .
- محمد الغزالي السقا (المتوفى: ١٤١٦هـ) : فقه السيرة ، الطبعة الأولى، دار القلم ، دمشق، ١٤٢٧هـ.
- محمد صالح الشنطي : فن التحرير العربي ضوابطه وأنماطه ، الطبعة الخامسة، دار الأندلس للنشر والتوزيع، السعودية، حائل ، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.
- محمد علوان : من بلاغة القرآن ، الطبعة الثالثة ، ٢٠٠٥م

- محمود رزق سليم : الادب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث، طبعة دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٩٥٧
- محمود رزق سليم : موسوعة عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ، الطبعة الثانية، مكتبة الآداب ،القاهرة ، ١٩٦٢م.
- معجم اللغة العربية المعاصرة، الطبعة الأولى، عالم الكتب، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م.
- من بلاغة القرآن، محمد علوان، الطبعة الثالثة ، ٢٠٠٥م
- نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر ، الطبعة الثالثة، منشورات مكتبة النهضة ، القاهرة ، ١٩٦٧م.
- نبيل أبو علي : الأدب العربي بين عصرين المملوكي والعثماني ، الطبعة الأولى، دار المقداد، غزة، ٢٠٠٨م
- نوري حمودي القيسي : الطبيعة في الشعر الجاهلي ، الطبعة الأولى، الشركة المتحدة للتوزيع، بيروت، د.ت.

الفهرس

رقم الصفحة	الموضوعات
------------	-----------

أ	البسمة
ب	الإهداء
ج	الشكر
د	مقدمة البحث
و	خطة البحث

٢٩-١	الفصل الأول: حياة ابن حجر العسقلاني وعصره
١-٢	حياة ابن حجر العسقلاني
٣	مولده ونشأته
٧	حياته العلمية ورحلاته
٩	مصنفات ابن حجر
٢٩-١١	عصر ابن حجر العسقلاني
١٢	الحياة السياسية
٢٠	الحياة الاجتماعية
٢٥	الحياة الثقافية

١٠٨-٣٠	الفصل الثاني: الدراسات الموضوعية
٣١	تمهيد
٣٧	المدائح النبوية
٦٢	المدح
٨٧	الغزل
١٠٠	الأغراض الأخرى

١٨٤-١٠٠	الفصل الثالث: الدراسة الفنية
١١١	بناء القصيدة
١٢٣	الأسلوب واللغة

١٤٨	الصورة الشعرية
١٦٢	الموسيقى الشعرية

١٨٥	الخاتمة
١٩٠	النتائج

١٩٠	المصادر والمراجع
١٩٨	الفهرس